مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الملل والنحل

تحاضر الأستاذ
الشيخ جعفر السبحاني

الجزء الأول

Princeton University Library
32101 060161096

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

مرکز مدیریت حوزه علمیه قم

(۱)

أبحاث
فی
الملل والنحل

سجل الكتاب

الكتاب : أبحاث فى الملل والنحل ـ الجزء الاول
محاضرات الاستاذ : الشيخ جعفر السبحانى
الناشر : مركز مديريت حوزه علميه قم (١)
المطبعة : الخيام ـ قم
الطبعة : الثانية مع اضافات هامة
المطبوع : ٣٠٠٠
التاريخ : رجب المرجب ١٤٠٨ الموافق لعام ١٣٦٦ هـ ش

Subhani

أبحاث في الملل والنحل

محاضرات الأستاذ

الشيخ جعفر السبحاني

الجزء الأول

(RECAP)
BP191
.S92
1988
ج١ ز١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عباد الله الصالحين

محمد وآله الطيبين الطاهرين

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 018017101

تقديم

ان الوقوف على آراء وعقائد المذاهب المختلفة وتحليلها ومعرفة ادلتها من افضل انواع الدراسة والتحقيق ، فهو السبيل الافضل لمعرفة الرأى الأصوب ، والموقف الأحق بالاخذ والاتباع ، وهو الاسلوب الذي سلكه القرآن الكريم فى مواجهاته العقائدية مع اصحاب الديانات والاتجاهات الفكرية المضادة كما وحث عليه فقال: « قل هاتوا برهانكم » أو قال : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

وقد كان المسلمون هم السباقون الى هذا المنهج وهذا الاسلوب من الدراسة والتحقيق ولهذا نلحظ فى المكتبات والدراسات الاسلامية كتبا فى الفقه المقارن ، والعقائد المقارنة ، وغير ذلك من حقول المعرفة ، والثقافة .

ونظراً لأهمية هذا الاسلوب فى عصرنا الحاضر طلبت مني «شورى

ادارة الحوزة العلمية » فى قم المقدسة القاء سلسلة من المحاضرات فى آراء ومعتقدات الطوائف المختلفة التى شهدتها الساحة الفكرية الاسلامية فى العصور اللاحقة لوفاة النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك في اطار من التحليل ، والمقارنة ، والدراسة والتقييم فلبيت هذاالطلب وتم بتوفيق الله تعالى القاء مجموعة من المحاضرات فى هذا المجال ، ليكون مقدمة للمرحلة التخصصية .

ثم حبذت شورى الادارة طبع ونشر هذه المحاضرات فى كتاب يستفيد منه عامة طلاب الدراسات الاسلامية، فاخرجتها فى هذا الكتاب الحاضر . فشكراً لهذه الشورى على اهتمامها بهذه العلوم ، ووفقها الله للمزيد من تقديم الخدمات الثقافية المفيدة انه سميع مجيب الدعاء.

هذا ، والرجاء من القراء الكرام تزويدنا بنقدهم البناء حتى تكتمل هذه المباحث باذنه تعالى .

قم ـ الحوزة العلمية

جعفر السبحاني

يوم ميلاد فاطمة الزهراء (ع)

٢٠/جمادى الاول /١٤٠٨ هـ

تصدير

* الملل والنحل فى المؤلفات الاسلامية
* الصلة بين علم العقائد وعلم الملل والنحل

الملل والنحل فى المؤلفات الاسلامية

قد قامت ثلة من علماء المسلمين ، بتدوين كتب مفصلة أو مختصرة في هذا المضمار فكشفوا مصادر الاراء وموارادها ، وجمعوا واردها وشاردها وما ألفوه حول تبيين العقائد والنحل على أصناف نشير اليها :

١ ـ ما يتناول جميع الشرائع والمذاهب العالمية، اسلامية كانت أو غيرها ، ومن هذا القسم كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لامام المذهب الظاهري ، أبي محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى المتوفي ٤٥٦ ، وكتاب « الملل والنحل » لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨) .

٢ ـ ما يتناول خصوص الفرق الاسلامية ومن هذا القسم كتاب « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » ، تأليف شيخ الأشاعرة أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المتوفي عام ٣٣٠ وكتاب « الفرق بين الفرق » تأليف الشيخ عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفرائيني التميمي المتوفي سنة ٤٢٩ وكتاب « التبصير

فى الدين » و « تمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة » لعمادالدين الأسفرائيني المتوفي عام ٤٧١ وقد طبع الكتاب الأخير بمصر عام ١٣٧٤ .

٣ ـ ما يتناول خصوص مذهب من المذاهب الاسلامية ومن هذا القسم كتاب « فرق الشيعة » تأليف أبي محمد الحسن بن موسى النوبختى من أعلام القرن الثالث للهجرة وقد بين فيه فرق أهل الامامة . وكتاب « فرق الشيعة » للشيخ أبي القاسم سعد بن عبدالله أبي خلف الأشعري القمي المتوفى عام ٢٩٩ أو ٣٠١ وقد طبعت هذه الكتب ووزعت في العالم وهي متاحة لكل من أراد معرفة هذه المذاهب والمقالات والاراء والأفكار . ولنقدم قبل الورود في البحث أموراً تفيد القراء الكرام وطلاب هذه المعرفة :

١ ـ الملة والنحلة فى اللغة

الملة بمعنى الطريقة ، والمراد هنا السنن المأخوذة والمقتبسة من الاخرين ولأجل ذلك يضيفها القرآن الى الرسل والأقوام اذيقول مثلا: « بل ملة ابراهيم حنيفاً ـ البقرة : ١٦٠ » . وقوله : « اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ـ يوسف : ٣٧ » ولا تستعمل مضافة الى الله ولا الى آحاد أمة نبي بل الى نفس النبي ويقال : ملة ابراهيم وملة محمد (صلى الله عليهما وآلهما) ولا يقال : ملة الله .

وأما النحلة فهي على ما في اللسان بمعنى الدعوى والنسبة

والدين وتستعمل في الباطل كثيراً مثل كلمة « انتحال المبطلين » والمقصود من الكلمتين فى هذا العلم ، الطريقة والمناهج العقائدية سواء أكانت حقاً أم باطلا .

٢ ـ الصلة بين علم العقائد وعلم الملل والنحل

وهناك اتصال وثيق بين علم الكلام وعلم الملل والنحل . ووزان علم الملل والنحل الى علم العقائد والكلام ، وزان تاريخ العلم الى نفسه ، نظير الفلسفة وتاريخها . فالفلسفة تطرح الموضوعات الفلسفية على بساط البحث ، فتقيم برهاناً على ما تتبناه ، غير أن تاريخ الفلسفة يشرح المناهج الفكرية التي نجمت فى فترات مختلفة ، من دون تركيز على رأي أو تبني عقيدة خاصة في كثير من الأحيان .

ومثله علم الكلام بالنسبة الى الملل والنحل ، فالأول يبحث عن المسائل العقائدية التى ترجع الى المبدأ والمعاد وما يلحقهما من من المباحث ويوجه عنايته الى اثبات فكر خاص في موضوع معين ونقد الاراء المضادة له ، ولكن الثاني يطرح المناهج الكلامية المؤسسة طيلة قرون من دون أن يتحيز الى منهج دون منهج غالباً وهمته عرض هذه الاسس الفكرية على رواد الفكر والمعرفة .

وان شئت قلت: ان علم الملل والنحل يتعرض الموضوعات الكلامية المبحوثة عنها فى علم الكلام ويشرحها ويعرض الاراء المختلفة حولها من دون استقصاء في القضاء بينها وأما علم الكلام فهو يتخذ موضوعات

خاصة للبحث ويبدي المؤلف نظره الخاص فيها ويركز على رأيه باقامة البرهان .

٣ ـ قيمة الكتب المؤلفة فى هذا المضمار

لا شك أن للكتب المؤلفة فى هذا المضمار ، مكانة في الأوساط العلمية وأن المؤلفين فى الملل والنحل قد تحملوا جهوداً كثيرة فى الاحاطة بالمناهج الفكرية الرائجة في الملأ العلمى خصوصاً الأوائل منهم ، غير أنه لا يمكن الاعتماد على هذه الكتب بصورة مطلقة وذلك لأنا نرى أنهم يذكرون فرقاً للشيعة الامامية لم يسمع الدهر بأسمائها كما لم يسمع بآراء أصحابها قط .

فهذا امام الأشاعرة يذكر للشيعة الغالية ١٥ فرقة وللشيعة الامامية ٢٤ فرقة وينسب اليهم القول بالتجسيم وغير ذلك من الاراء والعقائد السخيفة ، ويقسم الزيدية الى ست فرق وقد أخذ عنه من جاء بعده ممن ألف في هذا المجال .

فاذا كان حاله وحال من نسج على منواله كالبغدادي فى « الفرق بين الفرق » والشهرستاني في « الملل والنحل » في تلك المواضع التي نحن أعرف منهم بها بهذا المنوال ، فكيف حالهم فيما ينقلونه عن سائر أصحاب الشرائع من اليهود والنصارى والمجوس من البراهمة والبوذيين وغيرهم ، ولأجل ذلك يجب أن تكون نسبة القول الى أصحابها مقرونة بالاحتياط والتثبت والرجوع الى مؤلفات

نفس الفرق .

يقول المحقق المعاصر الشيخ محمد زاهد الكوثري في تقديمه لكتاب « التبصير في الدين » : والعالم المحتاط لدينه لا ينسب الى فرقة من الفرق ما لم يره في الكتب المردود عليهم ، الثابتة عنهم أو في كتب الثقات من أهل العلم المتثبتين في عزو الأقاويل، ولايلزمهم الا ما هو لازم قولهم لزوماً بيناً لم يصرح قائله بالتبري من ذلك اللازم[1] .

وقد تصفحنا أكثر ماكتبه أحمد بن تيمية في « المسائل الكبرى عن الشيعة » وغيرهم ، فوجدناه مليئاً بالخطأ لو لم نقل بالكذب والوضع ، وسيوافيك بعض ما عزاه الى الامامية من القول بتكفير الصحابة جميعاً وسبهم والبرائة منهم .

اذا عرفت ذلك فاعلم أنه يقع الكلام في فصول :

١ . التبصير : ص ٧ .

الفصل الأول

افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة

افتراق الامة الى ثلاث وسبعين فرقة

روى أصحاب الحديث [1] أن النبي صلى الله عليه وآله أخبر عن افتراق الأمة الى ذلك الحد الهائل غير أن ما يروونه في هذا المجال مضطرب جداً . ولابأس بأن نأتي ببعض صوره :

روي أبوهريرة: افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة . وفي ما أخرجه أبوداود والحاكم بزيادة قوله : ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وذكر الشمس محمد بن أحمد البشاري المقدسي في « أحسن التقاسيم » متن الحديث بشكل آخر وهو :اثنتان وسبعون في الجنة وواحدة في النار . وقال هذا أصح اسناداً من النص الاخر : اثنتان وسبعون في النار وواحدة ناجية . وان كان الأخير أشهر.

وعلى كل تقدير فقد نفى ابن حزم امام المذهب الظاهري صحة الحديث وقال : ذكروا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن

١ . سيوافيك اجمالا مصادر الرواة في آخر البحث .

القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة ، وحديثاً آخر: تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النارحاشا واحدة فهي في الجنة .ثم قال : هذان حديثان لايصحان أصلا من طريق الاسناد وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبرالواحد فكيف من لا يقول به[١] .

ونقل الشهرستاني الحديث بشكل آخر وقال: أخبر النبي ص ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة والباقون هلكى. قيل ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة والجماعة . قيل وما السنة والجماعة؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي .

وربما ينقل الحديث بصورة اخرى وهي اضافة : افترقت المجوس على سبعين فرقة وافترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة . . . . .[٢] .

هذا ونحن لانناقش في سند الحديث و يكفينا في ذلك ماكتبه الشيخ محمد زاهد الكوثري فقال : ما هذا حاصله: يقول الحاكم في المستدرك بعد أن أخرج الحديث: هذا صحيح من شرط مسلم . ولكن يستدرك عليه الذهبي بأن في سنده محمد بن عمرو ولايحتج به منفرداً ولكن مقروناً بغيره. وأما ماورد بمعناه في صحيح ابن ماجة وسنن البيهقي وغيرهما ففي بعض أسانيده عبدالرحمن بن زياد بن أنعم ، وفي بعضها كثير بن عبدالله ، وفي بعضها عباد بن يوسف وراشد بن سعد ، وفي بعضها الوليد بن مسلم ، وفي بعضها مجاهيل كما يظهر من كتب الحديث

١ . الفصل : ج ٣ ص ٢٤٨ .
٢ . الملل والنحل للشهرستاني : ج ١ ص ١٣ .

ومن تخريج الحافظ الزيلعي لأحاديث الكشاف وهو أوسع من تكلم في طرق هذا الحديث فيما أعلم [١] .

نعم هذا ما رواه بعض أهل السنة . وسيوافيك بعض الأسناد ومتون الحديث في آخر البحث .

وأما الشيعة الامامية : فقد رواه الصدوق في خصاله بطريقين غير نقيين [٢] .

وعلى كل تقدير فيجب امعان النظر في المراد منه على فرض صحة سنده والظاهر من الحديث أن أمته تفترق الى تلك الفرق الهائلة حقيقة غير أن المشكلة عند ذاك هو عدم بلوغ الفرق الاسلامية هـذا العدد فان كبار الفرق الاسلامية لاتتجاوز الأربع :

الأول : القدرية : (المعتزلة) .

الثاني : الصفاتية : (أهل الحديث والاشاعرة) .

الثالث : الخوارج .

الرابع : الشيعة .

وهذه الفرق الأصلية وان تشعبت الى شعب وفروع ولكن لايبلغ المجموع الى هذا الحد وان أصر الشهرستاني على تصحيح البلوغ

١ . التبصير في الدين ـ المقدمة : ص ٩ .

٢ . الخصال : ج ٢ ص ٥٨٤ و٥٨٥ ، أبواب السبعين ومـا فوقه ، الحديث العاشر والحاديعشر . وقد عقد العلامة المجلسي باباً خاصاً لاحظ البحار : ج ٢٧، ص ٢ ـ ٣٦ . واكثرما نقله راجع الى صحاح القوم ومسانيدهم.

لهذا الحد حيث قال : ثم يتركب بعضها مع بعض ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل الى ثلاث وسبعين فرقة [١] .

ولايخفى عدم استقامة ما ذكره فان المراد من « أمتي » هي الفرق الاسلامية المؤمنة برسالة النبي الأعظم وكتاب الله . وبلوغها الى هذا الحد أول الكلام . فان المراد هو الاختلاف في العقيدة التي يدخل صاحبها في النار ويجعله من الهالكين وهي لاتعدو عن فرق معدودة وأما الاختلاف في الأصول والمعارف التي لاتعد من صميم العقائد الاسلامية كالاختلاف في وجود الواسطة بين الوجود والعدم والاختلاف في حقيقة الجسم والأكوان ، والألوان والجزء الذي لا يتجزى والطفرة وغير ذلك الذي أوجدت فرقاً كلامية ، فلا يوجب دخول النار وان كان الحق واحداً والأقوال الباقية باطلة ، لكن لا يصح عد المعتقدين بها من الفرق المنصوص عليها في كلام النبي هذا.

وبعبارة واضحة : ان الفرق المذمومة في الاسلام ، هي فرق أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية في أبواب العدل والتوحيد والقدر والقضاء والتنزيه والتجسيم والجبر والاختيار والهداية والضلالة والرؤية والادراك والامامة والخلافة ونظائرها ، ممايعد من صميم العقيدة الاسلامية. وأما الاختلاف في سائر المسائل التي لاتمت للدين بصلة ولا تمثل العقيدة الاسلامية كما أشرنا اليها آنفاً فلا يكون المخالف والموافق داخلا في الحديث .

١ . الملل والنحل : ص ١٥ .

ثم ان الذين ذهبوا الى صحة الحديث تمايلوا يميناً ويساراً في تصحيح مفاده بعد الاذعان بصحة أسناده فقالوا : ان المراد من ذلك العدد الهائل هو المبالغة في الكثرة كما في قوله سبحانه: «ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ـ التوبة : ٨٠ » .

وأنت خبير بأن هذه المحاولة فاشلة لأنها انما تصح اذا ورد الحديث بصورة سبعين أو غيرها من العقود العددية فان هذا هو المتعارف ولكن الوارد غير ذلك . فترى أن النبي يركز في حق المجوس على عدد السبعين وفي حق اليهود على عدد الاحدى والسبعين وفي حق النصارى على اثنتين وسبعين وفي حق الأمة الاسلامية على ثلاث وسبعين . وهذا التدرج يعرب بسهولة عن أن المراد هو البلوغ الى هذا الحد بشكل حقيقي لا بشكل مبالغي .

ولأجل ذلك يقول محقق كتاب الفرق بين الفرق : والحق أن أصول الفرق لا يصل الى هذا العدد بل أنه لا يبلغ نصفه ولا ربعه وأن فروع الفرق يختلف العلماء في تفريعها وأنت في حيرة حين تأخذ في العد بين أن تعتبر في عدك الفرق أصولها أو فروعها واذا استقر رأيك على اعتبار الفروع فعلى أي حد من التفريع أنت آخذ في اعتبارك[1] .

وهناك محاولة جيدة لهذا الكاتب وهي أنه على فرض صحة الحديث لا ينحصر الافتراق فيما اذا كان في العصور الأولى ومن قبل أن يدون هؤلاء العلماء مصنفاتهم فان حديث الترمذي يتحدث عن افتراق أمة

١ . مقدمة الفرق بين الفرق : ص ٧ .

محمد صلى الله عليه وآله وأمته مستمرة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين فيجب أن يتحدث في كل عصر عن الفرق التي نجمت في هذه الامة من أول أمرها الى الوقت الذي يتحدث فيه المتحدث، ولاعليه ان كان العدد قد بلغ ماجاء في الحديث أو لم يبلغ ، فمن الممكن بل المقطوع لوصح الحديث وقوع الأمر في واقع الناس على وفق ما أخبر به[1] .

وهناك محاولة ثالثة غير صحيحة جداً وهي الاهتمام بتكثير الفرق فترى أن الامام الأشعري يجعل للشيعة الغالية خمس عشرة فرقة وللشيعة الامامية أربعاً وعشرين فرقة كما أن الشهرستاني يعد للمعتزلة اثنتى عشرة فرقة ويعد للخوارج الفرق التالية: المحكمة، الأزارقة، النجدات البيهسية ، العجاردة ، الثعالبة ، الأباضية ، الصفرية .

وذلك لأن الجميع من أصناف الشيعة والمعتزلة والخوارج يلتقون تحت أصول خاصة معلومة في محلها ، مثلا أصناف الخوارج يجتمعون تحت أصول ، أشهرها تخطئة عثمان والامام أمير المؤمنين عليه السلام في مسألة التحكيم وتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار . فلا يصح عد كل صنف فرقة ، وان اختلف كل مع شقيقها في أمر جزئي ، ومثلها أصناف الاخرين .

ثم ان الكاتب المعاصر عبدالرحان بدوي ، ذهب الى عدم صحة الحديث للأسباب التالية :

١ . مقدمة الفرق بين الفرق : ص ٧ .

أولا : ان ذكر هذه الأعداد المحددة المتوالية : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ أمر مفتعل لا يمكن تصديقه فضلا عن أن يصدر مثله عن النبي صلى الله عليه وآله .

ثانياً : انه ليس في وسع النبي صلى الله عليه وآله أن يتنبأ مقدماً بعدد الفرق التي سيفترق اليها المسلمون .

ثالثاً : لا نجد لهذا الحديث ذكراً فيما ورد لنا من مؤلفات من القرن الثاني، بل ولا الثالث الهجري ولو كان صحيحاً لورد في عهد متقدم .

رابعاً : أعطت كل فرقة لختام الحديث ، الرواية التي تناسبها : فأهل السنة جعلوا الفرقة الناجية هي أهل السنة ، والمعتزلة جعلوها فرقة المعتزلة وهكذا . وقال :

وقد ظهر التعسف البالغ لدى مؤرخي الفرق في وضعهم فروقاً وأصنافاً داخل التيارات الرئيسية حتى يستطيعوا الوصول الى ٧٣ فرقة وفاتهم أن افتراق المسلمين لم ينته عند عصرهم وأنه لابد ستنشأ فرق جديدة باستمرار مما يجعل حصرهم ، هذا خطأ تماماً ، اذ لا يحسب حساباً لما سينشأ بعد ذلك من فرق اسلامية جديدة [١].

ولا يخفى أن ما ذكره من الأسباب غير صحيح عدا ما ذكره من السبب الرابع وما ذيله به .

أما دليله الأول ، فلأن ما جاء فيه هو نفس المدعى ولم يبين

١ . مذاهب الاسلاميين : ج ١ ص ٣٤ .

وجهاً لافتعال الحديث .

وأما دليله الثاني ، فلأن المتبادر منه أنه ليس في وسع النبي صلى الله عليه وآله التنبؤ بالأحداث الاتية ، ولكنه باطل بشهادة الصحاح والسنن على تنبؤه صلى الله عليه وآله باذن الله عن كثير من الحوادث الواقعة في أمته، وقدجمعناعدة من تنبؤاته في موسوعتنا: مفاهيم القرآن [1].

وربما يريد الكاتب من عبارته معنى آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وآله لايصح له أن يقدم على مثل هذا التنبؤ ، لأنه اقدام غير مرغوب فيه لما يحتوى على الاضرار بالأمة، ولكن هذا الرأي منقوض أيضاً بتنبؤات أخرى تضاهي المورد هذا ، فهذا هو النبي صلى الله عليه وآله يتنبؤ بالمستقبل المظلم الذي يواجهه ذوالخويصرة من وجوه الخوارج قائلا للنبي صلى الله عليه وآله : اعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ويلك من يعدل ان لم أعدل قد خبت وخسرت ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله أتأذن لي فيه أن أضرب عنقه ؟ قال : دعه فان له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية ينظر الى نصله فلايوجد فيه شيء .

فأي فرق بين هذا التنبؤ ونظائره الواردة في أحاديث النبي

١ . مفاهيم القرآن : ج ٣ ص ٥٠٨ ـ ٥٠٣ .

صلى الله عليه وآله ، والتنبؤ بافتراق أمته الى الفرق المعدودة .

وأما دليله الثالث فعجيب جداً ، فقد رواه أبو داود في سننه (م ٢٠٢ - ٢٧٥) والترمذي في سننه (م ٢٠٩ - ٢٧٩) وابن ماجه في سننه (م ٢١٨ - ٢٧٦) وأحمد بن حنبل في مسنده (ت ٢٤١) والجميع من أعيان أصحاب الحديث في القرن الثالث، فكيف يقول هذا الكاتب : « بل ولا الثالث الهجري » . واليك بعض ما اسندوه :

١ - روي أبو داود في كتاب السنة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : افترقت اليهود على احدى أوثنتين وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على احدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة .

ثم روى عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا فقال ألا ان رسول الله صلى الله عليه وآله قام فينا فقال : ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وان هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة[1].

٢ - روى الترمذي في باب ما جاء في افتراق هذه الأمة مثله عن أبي هريرة وروى عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليأتين على أمتي ما أتى على بني اسرائيل حذو النعل بالنعل حتى ان كان منهم من أتى أمة علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك وان بني اسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي

١ . سنن أبي داوود : ج ٤ كتاب السنة ص ١٩٨ .

على ثلاث وسبعين ملة ،كلهم في النار الا ملة واحدة ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي [١] .

٣ ـ روى ابن ماجه في باب افتراق الأمم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تفرقت اليهود على احدى وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة .

وروى عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله : افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة وسبعون فى النار وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فاحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وثنتان وسبعون فى النار قيل يا رسول الله : من هم ؟ قال : الجماعة .

وروى عن انس ين مالك ما يقرب من ذلك [٢] .

٤ ـ وروى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة ما نقلناه عنه آنفاً [٣] .

كما روى أيضاً عن أنس بن مالك ما رويناه عنه سابقاً [٤] .

وعلى كل تقدير فلا يهمنا البحث حول عدد الفرق وكثرتها وقلتها بل الذي نتوخاه في هذه الصحائف هو البحث عن الفرق الموجودة

١ . سنن الترمذى : ج ٥ كتاب الايمان : ص ٢٦ الحديث ٢٦٤١ .
٢ . سنن ابن ماجه : ج ٢ ، باب افتراق الامم ص ٤٧٩ .
٣ . سنن ابن ماجه : ج ٢ ، باب افتراق الامم ص ٣٣٢ .
٤ . سنن ابن ماجه : ج ٣ ، ص ١٢٠ .

في الأوساط الاسلامية وهي عبارة عن هذه الفرق : أهل السنة بأصنافهم : أهل الحديث والاشاعرة والمعتزلة والخوارج ، والشيعة بفرقها الثلاث : الامامية الاثنى عشرية ، الزيدية ، الاسماعيلية .

وأما الفرق التي بادت واندثرت ، وقد أكل الدهر عليها وشرب فهي غير مطروحة لنا بل البحث عنها مفصلا ضياع للوقت الا على وجه الاشارة .

الفصل الثاني

جذور الاختلاف في حياة النبي

« صلى الله عليه وآله وسلم »

لا شك أن المسلمين قداختلفوا بعد لحوق النبي الأكرم بالرفيق الأعلى الى فـرق مختلفة ، وسنبين جذور هـذه الخلافات وحوافزها فى الأبحاث الاتية .

انمـا الكلام في وضع المسلمين أيام النبي الأكرم فهل كانوا محتفظين بوحدة كلمتهم ومستسلمين لأمر نبيهم جميعاً كما أمر الله بـه سبحانه أم كان هناك بعض الاختلاف بينهم في جملة من المسائل .

لا شك أن المسلم الحقيقي هو من يستسلم لأوامـر الله ورسوله ولا يخـالفه قيد شعرة آخذاً بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم ـ الحجرات: ١ » . وقـد فسر المفسرون قوله سبحانه : « لا تقدموا بيـن يدي الله ورسوله » بقولهم أي : لا تتقدموا على الله ورسوله في كل مـا يأمر وينهى ، ويؤيده قوله سبحانه في نفس السورة : « واعلموا أن فيكم

رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم ـ الحجرات : ٥ » .

وقال عز من قائل : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ـ النساء : ٦٥ » .

ومع ذلك كله فقد نجد بين الصحابة والنبي الأعظم مشاجرات ومنازعات بين آونة وأخرى قد ضبطها التاريخ وأصحاب السير. غير أن الشهرستاني يصر على أن أكثر الخلافات كان من جانب المنافقين وقال : ان شبهات أمته في آخر زمانه، ناشئة من شبهات خصماء أول زمانه من الكفار والملحدين ، وأكثرها من المنافقين، وان خفي علينا ذلك في الأمم السالفة لتمادي الزمان ، فلم يخف في هذه الامة ان شبهاتها نشأت كلها من شبهات منافقي زمن النبي اذلم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهى وشرعوا فيما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى وسألوا عما منعوا من الخوض فيه والسؤال عنه ، وجادلوا بالباطل فيما لا يجوز الجدال فيه .

هذا ثم ذكر الشهرستاني حديث ذي الخويصرة التميمي في تقسيم الغنائم اذ قال : اعدل يا محمد ، فانك لم تعدل، حتى قال عليه الصلاة والسلام : ان لم أعدل فمن يعدل . .[1] .

ان ما ذكره الشهرستاني صحيح لا غبار عليه غير أن الاعتراض والخلاف لم يكن منحصراً بالكفار والمنافقين بل كان هناك رجال من المهاجرين والأنصار ، يعترضون على النبي في بعض الامور التي

١ . الملل والنحل : ج ١ ص ٢١ .

لا تروقهم وكأن الشهرستاني نسى قصة الحديبية حيث آثر رسول الله صلى الله عليه وآله الصلح يوم الحديبية على الحرب وأمر به عملا بما أوصى الله اليه وكانت المصلحة فى الواقع وفي نفس الامر توجبه لكنها خفيت على أصحابه فطفق بعضهم ينكره والاخر يعارضه علانية بكل ما لديه من قوة . هذا هو عمر بن الخطاب فانه بعد ما تقرر الصلح بين الفريقين على الشروط الخاصة وقد أدركته الحمية فأتى أبابكر وقد استشاط غضباً : يا أبابكر أليس برسول الله؟ قال بلى قال: أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال فعلام نعطي الدية في ديننا . . . الحديث [1] .

وكأن الشهرستاني غفل أيضاً عن الجدال الشديد بين النبي وبعض أصحابه في متعة الحج . قال الامام القرطبي : « لا خلاف بين العلماء أن التمتع المراد بقوله تعالى : « فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي » هو الاعتمار في أشهر الحج قبل الحج قلت وهو فرض من نأى عن مكة بثمانية وأربعين ميلا من كل جانب على الأصح ، وانما أضيف الحج بهذه الكيفية الى التمتع أو قيل عنه : التمتع بالحج، لما فيه من المتعة : أي اللذة باباحة محظورات الاحرام في المدة المتحللة بين الاحرامين ، وهذا ماكرهه عمر وبعض أتباعه فقال قائلهم : أنتطلق وذكورنا تقطر. وفي مجمع البيان أن رجلا قال : أنخرج حجاجاً ورؤوسنا تقطر؟ وأن النبي صلى الله عليه وآله قال له :

١ . السيرة النبوية لابن هشام : ج ٣ ص ٣١٧ .

انك لم تؤمن بها أبداً [١] .

ولأجل هذه المكافحة التي نجمت في حياة النبي خطب عمر بن الخطاب في خلافته وقال : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما [٢] .

وهذا الامور تسهل لنا التصديق بما رواه البخاري في اسناد عن ابن عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس قال : لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وآله وجعه قال : أئتونى بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده قال عمر ان النبى صلى الله عليه وآله غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط قال : قوموا عني ، ولا ينبغي عندى التنازع . فخرج ابن عباس يقول : ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين كتابه [٣] .

كما يسهل لنا التصديق بخلافهم في حال حياته عند ما أمرهم بقوله : جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنه ، فقال قوم : يجب علينا امتثال أمره ، وأسامة قد برز من المدينة ، وقال قوم قد اشتد مرض النبي عليه الصلاة والسلام فلا تسع قلوبنا مفارقته والحالة هذه فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره [٤] .

١ . النص والاجتهاد : ص ١٢٠ وقد نقل مصادر كلامه .

٢ . مفاتيح الغيب للرازى : ج ٣ ص ٢٠١ فى تفسير آية ٢٤ من سورة النساء وشرح التجريد للفاضل القوشجى : ص ٤٨٤ .

٣ . صحيح البخارى : ج ١ ص ٣٠ .

٤ . الملل والنحل : ج ١ ص ٢٤ – ٢٣ ط بيروت – دار المعرفة .

نعم كانت هناك هنابث ومشاجرات في أمورلا تروق سليقة بعض النفوس وميولهم ، غير أن هذه الخلافات لم تكن على حد تنشق بها عصى الوحدة وتنفصم بها عرى الاخوة أعظم خلاف بين الأمة هـو الخلاف الذي نجم بعد لحوقه بالرفيق الأعلى وهو الخلاف في الامامة وقد لمست الأمـة ضرره وخسارته حتى أن الشهرستاني أعرب عـن عظم هـذه الخسارة بقوله : ما سل سيف في الاسلام على قاعـدة دينية مثل مـا سل على الامامة في كل زمان [1] . واليك بيـان أساس هذا الاختلاف :

لمـا التحق النبي الأكرم بالرفيق الاعلى صارت الأمـة فرقتين باقيتين الى الان .

الأولى: القائلون بأن منصب الامامة منصب الهي وأن الامام يقوم بالوظائف التي كانت القيت على عائق النبي من تبيين الأحكام الشرعية وتفسير كتاب الله وصيانـة الدين عن النقص والزيادة والاجابـة على الأسئلة الواردة والاعتراضات المتوجهـة الى الدين مضافاً الى ادارة المجتمع البشرى وسياسته التي يعبر عنها بالحكومة الاسلامية .

الثانية : القائلون بأن منصب الامامة منصب عادي يجب أن يقوم بها واحد من آحاد الامة لتبرير أمر المجتمع سياسة واجتماعاً واقتصاداً وغير ذلك ، وأنه لم يرد فى أمر الخلافة نص على شخص ما وهـؤلاء هم الموسومون بأهل السنة . ولا نجد اسم ـ أهل السنة ـ قـد أطلق على من مات قبل سنة ١٥٠ .

١ . الملل والنحل : ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٣ ط بيروت ـ دار المعرفة .

الفصل الثالث

علل تكوّن الفرق الإسلامية

* الاتجاهات الحزبية
* سوء الفهم واللجاج فى تحديد الحقائق
* المنع عن كتابة الحديث وتدوينه، بل التحدث عنه
* الاحتكاك الثقافى واللقاء الحضارى

ان الوقوف على تاريخ الفرق الاسلامية ، وكيفية تكونها والعلل الباعثة على نشأتها ، من الأبحاث المهمة التي تعين الباحث في تقييم المذاهب الاسلامية ومدى اخلاص أصحابها في نشرها وبثها بين الأمة وهذه النقطة الحساسة من علم الملل والنحل قد أهملت في كثير من كتب الفرق والنحل الا شيئاً قليلا لا تشبع نهمة الطالب ونحن نأتي في هذه العجالة باجمال ما وقفنا عليه في تاريخ تكونها والبواعث الموجدة لها . وأما الاسهاب فى البحث فموكول الى آونة أخرى .

لبى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله دعوة ربه وانتقل الى جواره وترك لأمته ديناً قيماً عليه سمات « بساطة العقيدة ويسر التكليف » وأخذ المسلمون يفتحون البلاد بقوة المنطق أولا وحد السلاح ثانياً وتنسحب قوى الكفر والشر أمام دعاة الاسلام وجنوده البواسل وتنصاع لهداة البلاد أثر البلاد .

ارتحل الرسول الصادع بالحق ، وترك بين أمته كتاب الله العزيز

الذي فيه تبيان كل شي [١] ، وسنته الوضائة المقتبسة من الوحي [٢] السليم من الخطأ ، المصون من الوهن ، وعترته الطيبين الذين هم في لسان نبيهم قرناء الكتاب [٣] .

فالمسلمون الأولون في ضوء بساطة العقيدة وسهولة التشريع وفي ظل هذه الحجج والأدلة القويمة ،كانوا في غنى عن الخوض في أقوال المدارس العقلية والمناهج الكلامية التي كانت دارجة بين الأمم المتحضرة آنذاك فهم بدل الغور فيها كانوا يخوضون غمار المنايا ويرتادون ميادين الحرب في أقطار العالم وأرجاء الدنيا لنشر الدين والتوحيد ومكافحة شتى ألوان الشرك والثنوية ومحو العدوان والظلم عن المجتمع البشري .

نعم كان هذا وصفهم وحالهم الا شذاذ منهم من الانتهازيين، عبدة المقام وعشاق المال ممن لم تهمهم الا أنفسهم والا علفهم وملؤهم . وقد قلنا ان بساطة التكليف كانت احدى العوامل التي صرفت المسلمين عن التوجه والتعرض للمناهج الفلسفية الدارجة في الحضارات

١ . ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ـ النحل : ٨٩ .

٢ ، ان هو الا وحى يوحى ـ النجم : ١٤ .

٣ . لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا لن يفترقا حتى يردا على الحوض . والتثليث فى كلامنا لا يعارض التثنية فى كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لان مرجع كلام العترة الى سنة الرسول التى أودعها فى قلوبهم باذن الله عز وجل .

القائمة آنذاك فلأجل ذلك كانوا يكتفون مثلا في معرفة الله سبحانه بقوله عز من قائل: « أفي الله شك فاطر السموات والأرض ـ ابراهيم : ١٠ » وقوله عز وجل: « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ـ الطور: ٣٥ » وفي نفي الشرك والثنوية كانوا يكتفون بقوله سبحانه : «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ـ الأنبياء : ٢٣ » وفي التعرف على صفاته وأفعاله بقوله سبحانه : « هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ـ الحشر : ٢٢ ». الى آخر سورة الحشر . وفي تنزيهه عن التشبيه والتجسيم بقوله سبحانه : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ـ الشورى : ١١» وبقوله : «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ـ الانعام : ١٠٤ » وفي سعة قدرته : « وما قدروا الله حق قدره ـ الأنعام : ٩٢ » الى غير ذلك من الايات الواردة حول المبدأ والمعاد وما يرجع اليهما من الأبحاث الكلامية الغامضة . فلكل واحدة من هذه المسائل نصوص في الكتاب والسنة وهي أغنتهم عن الرجوع الى غيرهم .

نعم ان مفاهيم هذه الايات على بساطتها تهدف الى معان بعيدة الاغوار، عالية المضامين . فالكل يستفيد منها حسب مقدرته وأستعداده فهي هادية لكل البشر ومفيدة لجميع الطبقات من سذجها الى متعلمها ألى معلمها . . . .

وهذه الميزة يختص بها القرآن الكريم ويتميز فيها عن غيره فهو مع كونه هدى للناس عامة خير دليل للمفكرين صغارهم وكبارهم .

هذا هو الكتاب وأما السنة فهي عبارة عما ينسب الى النبي من

قول أو فعـل أو تقرير ، نازلة منزلـة التفسير وتبيين معانى الكتاب الحكيم ، مبينة لمجمله ، شارحة لمعانيه كما يعرب عنه قوله سبحانه: « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مـا نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ـ النحل : ٤٤ » . أى لا لتقرأ فقط بل تبين وتشرح مـا نزل ، بقولك وفعلك وتقريرك .

وأما العترة فيكفي في عصمتهم وحجية أقوالهم ، حديث الثقلين الذي تواتر نقله ، وقـام بنقله أكابر المحدثين فى العصور الاسلامية كلهـا .

وكان اللائق بالمسلمين والواجب عليهم مع هذه الحجج الالهية التمسك بالعروة الوثقى ، ورفض الاختلاف ولكن يا للأسف تفرقوا الى فرق وفرق لعلل نشير اليها، أن لتكون المذاهب الاسلاميـ اصولا وفروعاً ـ عللا وأسباباً ومعدات وممهدات ولايقوم بحق بيانها الباحث الا بافراد كتاب خاص في هذا الموضوع ، ولكن نشير في هذه العجالة الى العوامل الرئيسية في تكون الفرق ونشوئها فى المجتمع الأسلامي وهي أمـور :

١ ـ الاتجاهات الحزبية والتعصبات القبلية .

٢ ـ سوء الفهم واعوجاجه في تحديد الحقائق الدينية .

٣ ـ المنع عن كتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وآله ونقله والتحدث به كما سيجيء وفسح المجال للأحبـار والرهبان للتحدث عن قصص الأولين والاخرين ، وغير ذلك ، مما عندهم من الأخبار

والتاريخ .

٤ ـ الاحتكاك الثقافى واللقاء الحضارى بين المسلمين وغيرهم من الفرس والروم والهنود .

واليك البحث عن كل واحد من هذه العوامل حسب ما يقتضيه المجال .

العامل الاول : الاتجاهات الحزبية

ان أعظم خلاف بين الأمة هو الخلاف في قضية الامامة اذ ماسل سيف قط فى الاسلام وفي كل الأزمنة على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة . وقد كان الشقاق بين المسلمين في تلك المسألة أول شقاق نجم بينهم وجعلهم فرقاً او فرقتين . فمن جانب نرى علياً صلوات الله عليه ورجال البيت الهاشمي ركنوا الى النص وقالوا ان الامامة شأنها شأن النبوة لا تكون الا بالنص . وان هذا النص قد صدر عن النبي في مواطن شتى ، آخرها واقعة الغدير المشهورة بين كافة الناس حين ما قام النبي صلى الله عليه وآله في محتشد عظيم وقال : « من كنت مولاه فهذا على مولاه . . . »[1] .

١ . راجع فى تواتره ورواته فى جميع العصور الاسلامية من عصر الصحابة الى عصرنا هذا ، ودلالته على الولاية الكبرى للامام أمير المؤمنين كتاب الغدير : الجزء الاول ، ولاجل ذلك طوينا الكلام عن نقل مصادره .

ومن جانب آخر نرى الأنصار تجتمع في سقيفة بني ساعدة قبل تجهيز النبي صلى الله عليه وآله ومواراته ، يبحثون عن قضية الامامة أو الخلافة، فيرى سيدهم أن القيادة حق للانصار رافعاً عقيرته بقوله: يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست في العرب ، ان محمد صلى الله عليه وآله لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وقلع الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه الا رجال قليل ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به حتى اذا أرادبكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الايمان به ورسوله والمنع له ولأصحابه، والاعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرها ـ الى أن قال ـ : استبدوا بهذا الأمر دون الناس فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأى وأصبت في القول ولن نعدوا ما رأيت، نوليك هذا الأمر فانك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى [1].

هذا منطق الأنصار ورئيس جبهتهم ترى أنه يجر النار الى قرصه وحزبه بحجة أنهم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله ونصروه وآووه، الى غير ذلك من الحجج التي ذكرها سعد بن عبادة: رئيس

١ . تاريخ الطبرى : ج ٢ ، حوادث سنة ١١ ، ص ٤٥٦ .

الخزرج في جبهة الأنصار .

ومن جهة ثالثة نرى بعض المهاجرين الذين اطلعوا على اجتماع الأنصار في السقيفة ، يتركون تجهيز النبي صلى الله عليه وآله ومواراته ويسرعون الى السقيفة ويحضرون في جمعهم ويناشدونهم ويعارضون منطقهم بقولهم : ان المهاجرين أول من عبدالله في الأرض وآمن بالله وبرسوله وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك الا ظالم ـ الى أن قال ـ : ذا ينازعهم سلطان محمد صلى الله عليه وآله وامارته وهم أولياوه وعشيرته الا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورط في هلكة [1].

وهذا منطق بعض المهاجرين لايقصر من حيث الصلابة أوالوهن عن منطق الأنصار والكل يدعي أن الحق له ولحزبه ، من دون أن يتفكروا في مصالح الاسلام والمسلمين ، ومن دون أن يتفكروا فى اللياقة والكفاءة فى القائد ، ومن دون أن يرجعوا الى الكتاب والسنة واحراز المعايير التي يجب وجودها فى القائد، فيشبه منطق هولاء منطق المرشحية من سرد الثناء على أنفسهم وحزبهم لرئاسة الجمهورية أو عضوية المجلس الوطنى .

و كل يدعى وصلا لليلى و ليلى لا تقر لهم بذاكا

نعم كان التشاجر قائماً بينهم على ساقيه الى أن تغلب جناح هذا الصنف من المهاجرين على جبهة الأنصار باعانة بعض الأنصار وهو

١ . تاريخ الطبرى : ج ٢ ، حوادث سنة ١١ ص ٤٥٧ .

بشير بن سعد وهو ابن عم «سعد بن عبادة» فبايع أبابكر حتى يكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا أمرهم، ولمارأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو اليه قريش ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض ـ وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء ـ: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولاجعلوا لكم معهم فيها نصيباً فقوموا فبايعوا أبابكر فقاموا اليه وبايعوه [١] .

وبذلك المعايير والمبررات تمت البيعة للخليفة والكل أشبه بالمكافحات الحزبية أو القبلية التى لا يمت بالاسلام وأهله .

فعند ذلك أخذ هؤلاء المهاجرون بزمام الحكم واحداً بعد واحد الى أن تربع ثالث القوم عثمان بن عفان على منصة الحكم فحدثت في زمانه حوادث مؤلمة وبدع كثيرة أدت الى الفتك به والاجهاز عليه.

غير أن علياً صلوات الله عليه وبني هاشم وعدة من المهاجرين والبدريين وعدة من كبار الأنصار تمسكوا بالنص النبوي وبقوا على ما فارقهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه ، كما أن رئيس الأنصار الخزرجين وداعميه لم يبايعوا أبابكر ولا علياً .

هذا تحليل تكوين أول تفرق حدث فى الاسلام فجعل الأمة فرقتين فرقة تشايع الخلفاء وفرقة تشايع علياً عليه السلام الى اليوم .

١ . تاريخ الطبرى : ج ٢ حوادث سنة ١١ ، ص ٤٥٨ .

والذين شايعوا علياً عليه السلام وتابعـوه لم يكن ذلك منهم الا تمسكا بالدين مذعنين بـأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قـد نص عليه من دون أن يكون هناك اندفاع حزبي أو علاقة شخصية أو قبليـة بل تسليماً لقولـه سبحانه : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنـة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ـ الاحزاب : ٣٦ » .

وأما غيرهم فقد عرفت المعايير التي استندوا اليها في تقديمهم على غيرهم فالكل معايير قبلية أو شخصية .

العامل الثاني : سوء الفهم واللجاج في تحديد الحقائق .

الخوارج والمرجئة

اذا كانت الدعايات الحزبية أول عامل لتكون الفرق فهناك عامل ثان لتفريق المسلمين وتبديدهم الى فرق متباعدة وهو سوء الفهم عن تقصير في تحديد العقائد الدينية من بعضهم ، وقلة العقل وخفافة في بعض آخر منهم ، وقد كان هذا عاملا قوياً لتكون الخوارج التي كانت من أخطر الفرق على الاسلام والمسلمين، لولا أن الامام علياً عليه السلام استأصلهم وبدد شملهم ومع ذلك بقيت منهم حشاشات تنجم تارة وتخفق أخرى في الأجيال والقرون واليك شرحه :

ثار أهل العراق والحجاز ومصر على عثمان نتيجة الأحداث المؤلمة التي ارتكبها عماله في هذه البلاد وانتهى الأمر الى قتله وتنصيب علي عليه السلام مكانه لما عرفت الأمة من علمه وفضله وسابقته وجهاده المنقطع النظير ، وقام علي عليه السلام بعزل الولاة والعمال الذين نصبهم عثمان على رقاب الناس . وقد انتهى أعمالهم الاضرارية

من جانب ، واصرار الخليفة على ابقائهم من جانب آخر، الى قتله .

قام على عليه السلام بعزل الولاة آنذاك ونصب العمال الأتقياء الزهاد الكفاة مكانهم وعند ذلك طمع الزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله في العراقين وطلبا منه أن يولي أحدهما على الكوفة والاخر على البصرة .والمألوف من طريقة علي عليه السلام في تنصيب العمال اشتراط شروط، تخالف ماكان عليه الرجلان وقد قال في حقهما كلمة: « وانى أخاف شرهما على الأمة وهما معي ، فكيف اذا فرقتهم فى البلاد »[1] .

فعند ذلك ثارا على الامام علي عليه السلام وخرجا عليه واتهماه لتبرير موقفهما بقتل عثمان او ايواء قتلته ، وكانت نتيجة ذلك اشتعال نارالحرب بين الامام وبين الرجلين في نواحى البصرة (حرب الجمل) وقتل الرجلين بعد أن اريقت دماء الأبرياء .

ثم ان معاوية قد عرف موقف علي عليه السلام بالنسبة الى عمال الخليفة عثمان ومع هذا طلب من الامام ابقاءه والياً على الشام فرفض الامام ذلك لما يعرف من نفسية معاوية وانحرافه ، ونشبت من ذلك (حرب صفين) ولما ظهرت بوادر الفتح المبين لعلي وجيشه ، التجأ معاوية وحزبه الى خديعة رفع المصاحف والدعوة الى تحكيم القرآن بين الطرفين ، فصار ذلك نواة لحدوث الاختلاف في جبهة علي عليه السلام . فمن قائل : نستمر فى الحرب وهذه خدعة ومكر ، ومن

١ . شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد : ج ١١ ص ١٦ .

قائل : نجيبهم الى ما دعونا اليه ، وقد أمر الامام بمواصلة الحرب وقام بتبيين الخدعة غير أن الظروف الحاكمة السائدة على جيش الامام ألجأه الى قبول وقف الحرب وادلاء الأمر الى الحكمين واعلان الهدنة وكتب هناك كتاب حول هذا .

ومن العجيب ان الذين كانوا يصرون على ايقاف الحرب ندموا على ما فعلوا فجاؤا الى الامام يصرون على نقض العهد ، والهجوم على جيش معاوية من جديد . غير أن الامام وقف في مقابلهم بصمود لما يتضمن من نقض العهد « وكان عهد الله مسئولا ـ الأحزاب : ١٥».

وعند ذلك نجمت فرقة باسم الاسلام من جيش علي عليه السلام وطلع قرن الشيطان فعادت تلك الجماعة خارجة عن اطاعة امامهم رافضة لحكومته ومبغضة اياه، كما أبغضت عثمان وعماله وهذه الفرقة هم فرقة الخوارج وما زالوا مبدء أحداث وعقائد في التاريخ. وكان الحافز القوي على تكوين الفرقة هو سوء الفهم واعوجاج السليقة وقد عرفهم الامام بقوله ـ عند ما شهروا سيوفهم عليه في النهروان ـ : فأنا نذيركم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر وباهضام هذا الغائط على غير بينة من ربكم ولا سلطان مبين معكم ، قد طوحت بكم الدار واحتبلكم المقدار وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فابيتم علي اباء المخالفين المنابذين ، حتى صرفت رأيي الى هواكم وأنتم معاشر أخفاء الهام ، سفهاء الأحلام [١] .

١ . نهج البلاغة شرح محمد عبده : ج ١ ص ٨٢ الخطبة : ٣٥ .

وللامام كلمة أخرى يشير فيها الى السبب الذي فارقوا به عن الحق قال صلوات الله عليه : لا تقتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه . (يعنى معاوية وأصحابه) .

قال الامام عبده : والخوارج من بعده وان كانوا قد ضلوا لسوء عقيدتهم فيه الا أن ضلتهم لشبهات تمكنت من نفوسهم فاعتقدوا الخروج عن طاعة الامام مما يوجبه الدين عليهم فقد طلبوا حقاً وأرادوا تقريره شرعاً فأخطأوا الصواب فيه [1] .

وقد زعموا أن مسألة « التحكيم » تخالف قوله سبحانه : « ان الحكم الا لله ـ يوسف : ٤٠ » .

وسيوافيك مفاد الاية ومقالة المحتجين بها ، كي يظهر مدى اعوجاج فهم القوم .

ظهور المرجئة :

قد كان لظهور الخوارج أثر بارز في حدوث الفتن وظهور الحوادث الاخر في المجتمع الاسلامي وقد نجمت المرجئة من تلك الناحية حيث آل الارجاء بمعنى التأخير قال سبحانه: « أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ـ الأعراف : ١١١ » .

ولهذه الفرقة آراء خاصة نشير اليها في محلها . غير أن اللبنة الأولى لظهورها هو اختلافهم في أمر علي وعثمان، فهؤلاء كانوا يحترمون

١ : نهج البلاغة ط مصر ، بشرح محمد عبده : ج ١ ص ١٠٣ ، خطبة ٥٨ .

الخليفتين أبابكر وعمر ويبغضون علياً وعثمان ، على خلاف أكثرية المسلمين. ولكن المرجئة وعلى رأسهم محمد بن شبيب لما لم يوفقوا لحل هذه المشكلة التجأوا الى القول بالارجاء فقالوا : نحن نقدم أمر أبي بكر وعمر ، ونؤخر أمر الاخرين الى يوم القيامة . فصارت المرجئة فرقة وفرعاً من دوحة الخوارج ، مع فوارق بينهم وبين المرجئة التي نأتي في محلها والعامل لتكونها كأصلها ، هو سوء الفهم واعوجاج التفكير .

العامل الثالث: المنع عن كتابة الحديث وتدوينه، بل التحدث عنه

ان هنا عاملا ثالثاً لتكون الفرق ونشوء الفوضي في العقائد والأصول ، وهو المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل التحدث عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله الى عهد المنصور العباسي .

توضيحه :

الحديث عبارة عما ينسب الى النبي صلى الله عليه وآله من قول أو فعل أو تقرير نازل منزلة التفسير لمعانى الكتاب الحكيم ، مبين لمجمله، شارح لمعانيه كما يعرب عنه قوله سبحانه : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ـ النحل : ٤٤ » .

أي لالتقرأ فقط بل تبين وتشرح مانزل، بقولك وفعلك وتقريرك.

اذاكانت السنة هي في الدرجة الثانية من الدين بعد القرآن الكريم فى الحجية والاعتبار ، حتى انك لا تجد فيها شيئاً الا وفى القرآن أصوله وجذوره ، ولا أسهاباً الاوفيه مجمله وعناوينه .

اذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يصدر في قوله وكلامه الا بايحاء من الله سبحانه كما يصرح بذلك قوله سبحانه : «ما ضل صاحبكم وما غوى ان هوالا وحى يوحى ـ النجم: ٢ـ٣».

فهل يصح للرسول أن يمنع عن تدوينه وكتابته أو مدارسته ومذاكرته ؟

واذا كان الرسول منع دراسة الحديث ونقله ونشره وتدوينه فما معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته في منى عام حجة الوداع : نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه الى من هوأفقه منه[١]. وما معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما يسمع ، فرب مبلغ أوعى من سامع[٢] . أو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : أللهم ارحم خلفائي اللهم ارحم خلفائى ، اللهم ارحم خلفائى ، قيل يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال : الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنتي[٣] . كيف تصح نسبة المنع الى الرسول الأعظم ، مع أن المستفيض منه خلافه . واليك بعض ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم :

أمر الرسول بكتابة حديثه

١ : ـ روي البخاري في باب كتابة العلم : فجاء رجل من أهل

١ . سنن الترمذى : ج ٥ ، ص ٣٤ ، ح ٢٦٥٨ ، ٢٦٥٧ .
٢ . المصدر نفسه .
٣ . بحار الانوار : ج ٢ ص ١٤٥ ح ٧ .

اليمن فقال: أكتب لي يا رسول الله فقال : اكتبوا لأبي فلان[١].

وروى أن رجلا من الأنصار كان يجلس الى النبي صلى الله عليه وسلم فيسمع من النبي الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله اني أسمع منك الحديث فيعجبني ولا احفظه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استعن بيمينك وأومأ بيده أي للخط[٢] .

٢ : ـ وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله أكتب كل ما أسمع منك ؟ قال : نعم ، قلت في الرضا والسخط ؟ قال : نعم فانه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك الا حقاً[٣].

٣ : ـ وعن عبدالله بن عمرو قال كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ باصبعه الى فيه وقال : اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه

١ . صحيح البخاري : ج ١ ص ٣٠ .

٢ . سنن الترمذي : ج ٥ ص ٣٩ ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الرخصة فيه ح ٢٦٦٦ .

٣ . مسند أحمد : ج ٢ ص ٢٠٧ .

الاحـق [١] .

٤ : ـ وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قلت يا رسول الله انا نسمع منك أحاديث لا نحفظها أفلا نكتبها ؟ قـال : بلى فاكتبوها [٢].

أضف أن الذكر الحكيم يحث المسلمين على كتابة مايتداينون بينهم . قال سبحانه: « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق . . . » ثم يعود ويؤكد على المؤمنين أن لا يسأموا من الكتابة فقال سبحانه : « ولا تسأمـوا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله . . ـ البقرة : ٢٨٢ » .

فاذا كان المال الذي هو زينة الحياة الدنيا من الأهمية بهذه المنزلة فكيف بأقوال النبي صلى الله عليـه وآله وسلـم وأفعاله وتقاريره التي تعتبر تالي القرآن الكريم حجية وبرهاناً ؟

مثلا نرى أنه سبحانه قد شرح دساتير وحيه وآى قرآنه بالأمـر بالقراءة مبيناً أهمية القلم في التعليم والتعلم حيث قال عز من قائل : «اقرء باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقـرأ وربك

١ . سنن الدارمي: ج ١ ، ص ١٢٥ باب من رخص فى كتابـة العلم ، وسنن أبى داود : ج ٣ ، ص ٣١٨ ، باب فى كتاب العلم ، ومسند أحمد : ج ٣ ص ١٦٢ .

٢ . مسند أحمد : ج ٢ ص ٢١٥ .

الأكرم الذي علم بالقلم ـ العلق : ١ ـ ٤ » .

بـل وعظم سبحانه القلم والكتابة تعظيماً ، حتى جعلهـا بمرتبة استحقاق القسم بها فهو جل وعلا يقول : « ن والقلم وما يسطرون ـ القلم : ١ ـ ٢ » .

أفهل يعقل معـه أن ينهى صلى الله عليه وآله وسلم عـن كتابه ما هو قرين القرآن وتاليه في الحجية ، أعني السنة الشريفة ؟ كلا .

اسطورة المنع عن كتابة الحديث

هذا ان دل على شيء فانما يدل على أن ما نسب اليـه صلى الله عليه وآله وسلم من النهى عن كتابة الحديث ، يخالف منطق الوحي والحديث والعقل ، وما هو الا وليد الأوهام والسياسات التي أخذت تمنع نشر حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتدوينه لغايات سياسية لاتخفى على ذي لب. فمثلا روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه » [1] وفي رواية أنهم استأذنوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكتبوا عنه فلم يأذنهم [2] .

وفي مسند أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى أن

١ . سنن الدارمي : ج ١ ص ١٧٩ .

٢ . سنن الدارمي : المقدمة ص ١١٩ .

يكتب شيئاً من حديثه [١] . وأيضاً ورد في مسند أحمد عن أبي هريرة أنه قال : كنا قعوداً نكتب ما نسمع من النبي فخرج علينا فقال ما هذا تكتبون ؟ فقلنا ما نسمع منك ، فقال أكتاب مع كتاب الله ؟ فقلنا ما نسمع فقال اكتبوا كتاب الله ، امحضوا كتاب الله ، اكتاب غير كتاب الله امحضوا أو خلصوه قال فجمعنا ما كتبنا في صعيد واحد ثم أحرقناه بالنار [٢].

ثم ان القوم لم يكتفوا بما نسبوه الى النبي في مجال كتابة الحديث ، بل ذكروا هناك أحاديث موقوفة عن الصحابة والتابعين تنتهي الى الشخصيات البارزة : كأبي سعيد الخدري ، وأبي موسى الأشعري ، وعبدالله بن مسعود ، وأبي هريرة ، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر ، وعمر بن عبدالعزيز ، وعبيدة ، وادريس بن أبي كتاب الله ادريس ، ومغيرة بن ابراهيم الى غير ذلك [٣] .

وروى عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : « اني كنت أردت أن أكتب السنن واني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، واني والله

١ . مسند أحمد : ج ٣ ص ١٢ .

٢ . مسند أحمد : ج ٥ ص ١٨٢ .

٣ . جمع الخطيب في « تقييد العلم » : ص ٤٨ ـ ٢٩ ، الروايات المنسوبة الى النبي والموقوفة عن الصحابة والتابعين .

لا ألبس كتاب الله بشيء، أبداً » [١] .

وروى ابن جرير أن الخليفة عمر بن الخطاب كان كلما أرسل حاكماً أو والياً الى قطر أو بلد ، يوصيه في جملة ما يوصيه : « جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد وأنا شريككم » [٢] .

وكان عمر قد شيع قرظة بن كعب الأنصاري ومن معه الى حراة على ثلاثة أميال من المدينة وأظهر لهم أن مشايعته لهم انما كانت لأجل الوصية بهذا الأمر ، وقال لهم ذلك القول [٣] .

وقد حفظ التاريخ أن الخليفة قال لأبي ذر ، وعبدالله بن مسعود وأبي الدرداء : « ما هذا الحديث الذي تفشون عن محمد ؟ ! » [٤] .

وذكر الخطيب في تقييد العلم عن القاسم بن محمد : أن عمر بن الخطاب بلغه أن في أيدي الناس كتباً ، فاستنكرها وكرهها وقال: أيها الناس انه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب فأحبها الى الله وأعدلها وأقومها ، فلا يبقين أحد عنده كتاباً الا أتاني به فأرى فيه رأيي . قال فظنوا أنه يريد ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار ثم قال : امنية كامنية أهل الكتاب [٥] .

١ . تقييد العلم : ص ٤٨ ـ ٢٩ .

٢ . تاريخ الطبرى : ج ٣ ص ٢٧٣ .

٣ . طبقات ابن سعد : ج ٦ ص ٢ .

٤ . ابن حنبل ، العلل ومعرفة الرجال : ج ١ ص ٦٢ .

٥ . تقييد العلم : ص ٥٢ .

وقد صار عمل الخليفتين سنة ، فمشى عثمان مشيهما ولكن بصورة محدودة وقال : لا يجوز لأحد أن يحدث بحديث لم يسمع في عهد أبي بكر وعمر، كما أن معاوية اتبع طريقة الخلفاء الثلاثة وكان يقول: أيها الناس اتقوا الروايات عن رسول الله الا ما كان يذكر في زمن عمر [١] وكان عبيدالله بن زياد ، الوالي ليزيد بن معاوية على الكوفة ينهي زيد بن أرقم الصحابي عن التحدث باحاديث رسول الله [٢] .

وبذلك أصبح ترك كتابة الحديث سنة اسلامية ، وعدت الكتابة شيئاً منكراً مخالفاً لها .

هذه هي بعض الأقاويل التي رواها أصحاب الصحاح والسنن في نفس الوقت الذي نقلوا أحاديث تناقضها وتأمر بكتابة الحديث والسنة كما سيوافيك .

العقل والمنطق ، والمنع عن كتابة الحديث

كيف يسمح العقل والمنطق أن يحكم بصحة الأحاديث الناهية عن الكتابة ، مع أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمر في أخريات حياته أن يحضروا له قلماً ودواة ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً ! وما كان المكتوب (على فرض كتابته) الا حديثاً من أحاديثه فقد روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : لما اشتد بالنبي وجعه قال : ايتوني

١ . طبقات ابن سعد : ج ٥ ص ١٧٣ .

٢ . نقلا عن مسند أحمد : ج ٥ ،كما في فرقة السلفية ص ١٤ .

بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، قال عمر : ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله فاختلفوا وكثر اللغط قال : قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع فخرج ابن عباس يقول : الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه [١] .

أفهل يجتمع هذا الأمر مع النهي عن تدوينه ؟

ثم اننا نرى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قام ببعث كتابات الى الملوك والساسة والأمراء والسلاطين وشيوخ القبائل وروسائها ناهز عددها الى ثلاثمائة كتاب في طريق الدعوة والتبليغ أو حول العهود والمواثيق وقد حفظ التاريخ متون هذه الرسائل التي جمع بعضها نخبة من المحققين في كتاب خاصة [٢] .

والتاريخ يصرح بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يملي والكاتب يكتب ، فلما ازدادت الحاجة وكثرت العلاقات الاجتماعية أصبحت الحاجة الى كتاب يمارسون عملهم ، فأدى ذلك الى كثرة الكتاب فجعل لكل عمل كاتباً ولكل كاتب راتباً معيناً . وقد كان أكثرهم كتابة ، علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه فقد كان يكتب الوحي وغيره من العهود والمصالحات وقد أنهى المؤرخون كتابه صلى الله عليه وآله وسلم الى سبعة عشر كتاباً .

١ . البخاري ، كتاب العلم ، باب كتابة العلم : ج ١ ص ٣٠ .

٢ . « كالوثائق السياسية » لمحمد حميد الله ، و« مكاتب الرسول » للعلامة الاحمدي .

اذن هل يجوز أن يكتب الرسول الاكرام صلى الله عليه وآله وسلم هذه المكاتبات والعهود والمصالحات الى بطون القبائل ورؤساء العشائر وهو يعلم انهم يحتفظون بهذه المكاتبات بحجة أنها من أوثق الوثائق السياسية والدينية ، ثم ينهى عن تسطير كلامه وحديثه ؟ فما هذان الا نقيضان لا يجتمعان .

الغايات السياسية والاهداف الدينية

ومع ذلك كله فقد غلبت الغايات السياسية على الأهداف الدينية وقامت بكل قوة أمام حديث النبي ونشره وكتابته ، حتى أن الخليفة أبابكر أحرق في خلافته خمس مأة حديث كتبه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [١] . ولما قام عمر بعده بالخلافة نهى عن كتابة الحديث وكتب الى الافاق : ان من كتب حديثاً فليحرقه [٢] ثم نهى عن التحدث ، فتركت عدة من الصحابة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٣] فلم يكتب الحديث ولم يدون الا في عهد المنصور عام ١٤٣ كما سيوافيك بيانه .

وقد بلغت جسارة قريش الى ساحة النبي الأقدس فمنعوا عبدالله بن عمر عن الاهتمام بحديث النبي وكتابته قائلا بأنه بشر يغضب [٤] .

١ . كنز العمال : ص ٢٣٧ و ٢٣٩ .

٢ . المصدر نفسه .

٣ . مستدرك الحاكم : ج ١ ص ١٠٢ و ١٠٤ .

٤ . المصدر نفسه .

أي والله انه بشر يرضى ويغضب ولكن لا يرضى ولا يغضب الا من حق ولا يصدر الا عنه .

ان الرزية الكبرى أن يمنع عن التحدث بحديث رسوله وكتابته وتدوينه ويحل محله التحدث عن العهد القديم والجديد وعن الأحاديث الاسرائيلية والمسيحية والمجوسية فتمتلىء الاذهان والصدور بالقصص الخرافية التي لا تمت الى الاسلام بصلة ولا يصدقها العقل والمنطق كما سيمر عليك شرح تلك الفاجعة العظمى التي المت بالاسلام والمسلمين .

فلو صح ما نقل عن أبي هريرة من جمع ماكتبه الصحابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكان واحد وحرقه بالنار ، لوجب على المسلمين كافة أن يجمعوا كل مصادر أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلى رأسها صحيح البخاري وصحيح مسلم وحرقها في مكان واحد وذلك اقتداء بالسلف الصالح ، واذا صح هذا فهل يبقى من الاسلام ما يرجع اليه في فهم القرآن الكريم وتمييز الحلال عن الحرام ؟

والذي نظنه « وظن الألمعي صواب » ان الذى منع من تدوين الحديث ونشره ومدارسته وكتابته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هو الذي منع من كتابة الصحيفة يوم الخميس عند احتضار النبى صلى الله عليه وآله وسلم فالغاية بداية ونهاية وقبل رحلته صلى الله عليه وآله وسلم وبعدها واحدة لم تتغير ، واما حقيقة تلك الغاية فموكول

بيانها الى آونة اخرى .

ان الخسارات التي منى الاسلام والمسلمون بها من جراء مثل هذا المنع، كائناً ما كان، سببه كانت وما تزال عظيمة ووخيمة وسنشير الى بعضها في محلها ان شاء الله تعالى .

أعذار مفتعلة

اذا كان المنع من كتابة السنة أمراً عجيباً ، فتبرير هـذا المنع بأنه كان لصيانة اختلاط الحديث بالقرآن الكريم أعجب منه، وذلك لأن التبرير هذا اشبه بالاعتذار الأقبح من الذنب، لأن القرآن الكريم في اسلوبه وبلاغته يغاير أسلوب الحديث وبلاغته ، فلا يخاف عليه من الاختلاط بالقرآن مهما بلغ من الفصاحة. فقبول هذا التبرير يلازم ابطال اعجاز القرآن الكريم وهدم اصوله من القواعد .

ومثله الاعذار المنحوتة الأخرى ، لتبرير هـذا المنع ، كخوف الانكباب على درس غير القرآن ، نسب الى الخليفة عمر بن الخطاب على ما مر . غير أن مرور الزمان أثبت خلاف تلك الفكرة لأن كتابة الحديث من عصر المنصور لم يؤثر في دراسة القرآن وحفظه وتعليمه وتعلمه . وهناك أعذار منحوتة اخرى لا تقصر في البطلان عن سابقيها ولم تخطر ببال المانع او المانعين أبداً، وانما هي وليدة « حب الشيء الذي يعمى ويصم » بعـد لأي من الدهر ، والهدف منه هـو اسدال العذر على العمل السيىء ، أعاذنا الله منه .

وقد استمر المنع من تدوين الحديث الى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز (١٠١ ـ ٩٩) فأحس بضرورة تدوين الحديث فكتب الى أبي بكر بن حزم في المدينة : انظر ما كان من حديث رسول الله فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولاتقبل الأحاديث النبي، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لايعلم ، فان العلم لا يهلك حتى يكون سراً [١] .

ومع هذا الاصرار المؤكد من الخليفة ، صارت رواسب الحظر السابق المؤكد من قبل الخلفاء الماضين حائلا دون القيام بما أمر به الخليفة فلم يكتب شيء من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد صدور الأمر منه ، الا صحائف غير منظمة ولا مرتبة ، الى أن دالت دولة الأمويين وقامت دولة العباسيين، وأخذ أبو جعفر المنصور بمقاليد الحكم ، فقام المحدثون في سنة مائة وثلاثة وأربعين بتدوين الحديث وفي ذلك قال الذهبي :

« في سنة مائة وثلاثة وأربعين شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريح بمكة ، ومالك الموطأ بالمدينة ، والأوزاعي بالشام ، وابن أبي عروبة ، وحماد بن سلمة وغيرهما في البصرة ، ومعمر باليمن وسفيان الثورى بالكوفة وصنف ابن اسحاق المغازي ، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأى الى أن قال : وقبل هذا العصر كان الائمة يتكلمون من حفظهم أو يروون

١ . صحيح البخارى : ج ١ ص ٢٧ .

العلم من صحف صحيحة غير مرتبة »[١] .

ومعنى هذا، أن العالم الاسلامى اندفع فجأة بعد مضي١٤٣ سنة من هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو هذا الأمر ، فاشتغل العلماء بجمع الأحاديث والفقه وتدوينهما، وألفت كتب كثيرة في هذا المجال، واستمرت تلك الحركة الى حدودسنة ٢٥٠، فجمعت أحاديث كثيرة ودونت العقائد على طبق الأحاديث المضبوطة . فاذا كان هذا تاريخ الحديث وتدوينه وانتشاره ، يتبين للقاريء بسهولة أن حديثاً لم يكتب طوال قرن ونصفه ، كيف تكون حاله مع كون اعدائه بالمرصاد ، يكذبون عليه بما يقدرون، وينشرون كل غث وسمين باسم الدين وباسم الرسول ،كما سيوافيك بيانه ، وما قيمة العقائد التي دونت على اساس تلك الأحاديث ؟

نحن لا ننكر أن العلماء والمحدثين قاموا بوظيفتهم وواجبهم الديني تجاه السنة النبوية ، وكابدوا وتحملوا المشاق في استخراج الصحيح من السقيم . لكن العثور على الصحيح بعد هذه الحيلولة الطويلة ، من أشق المشاكل وأصعب الأمور .

وبسبب هذه الحيلولة كلما بعد الناس عن عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ازداد عدد الأحاديث ، حتى أخرج محمد بن اسماعيل البخاري صحيحه عن ستة مأة الف حديث بـ (٦٠٠/٠٠٠) ولأجل ذلك نرى أن هرم الأحاديث يتصل بزمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

١ . تاريخ الخلفاء للسيوطى : ص ٢٦١ .

وقاعدة ذلك الهرم تنتهي الى القرون المتأخرة ، فكلما قربنا من زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نجد الحديث والمحدث قليلين، والعكس بالعكس . وهذا يدل على أن الأحاديث عالت حسب وضع الوضاعين وكذب الكذابين .

هذا كلام اجمالي عن الحديث ، والتفصيل في تاريخ الحديث وتطوره يترك الى الكتب المختصة بذلك ، غير أن الذي نركز القول عليه هو الاثار السلبية التي خلفها هذا المنع فى المجتمع الاسلامي يوم ذاك. حتى يقف القاريء على علل تكون المذاهب وتشعب الفرق. وأن من العلل المهمة حرمان الأمة عن السنة النبوية الصحيحة قرابة قرن ونصف ، وانصياع الناس الى قصص الاخرين وأساطير الكهنة من الدجالين والا بالسة ، وبالتالي تكون العقائد والمذاهب . واليك شرح ذلك .

الاثار السلبية للمنع

لقد خسر الاسلام والمسلمون من جراء حظر تدوين الحديث ونشره ، خسارة عظمى لا يمكن تحديدها بالأرقام والأعداد ـ كيف ـ وقد انتشرت الفوضى في العقائد ، والأعمال ، والأخلاق ، والاداب، وصميم الدين، ولباب الاصول، كنتيجة لهذا المنع ، لأن الفراغ الذي خلفه هذا العمل، أوجد أرضية مناسبة لظهور بدع يهودية ، وسخافات مسيحية ، وأساطير مجوسية ، خاصة من ناحية كهنة اليهود ، ورهبان

النصارى، الذين افتعلوا أحاديث كثيرة ونسبوها الى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام كما افتعلوا على لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من الأساطير وقد وقف على ذلك عدة من الأجلة.

١ ـ قال ابن خلدون، عند ما تكلم عن التفسير النقلي وأنه كان يشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل الكتاب ولا علم، وانما غلبت عليهم البداوة والامية. واذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تتوق اليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم وتساهل المفسرون في مثل كذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات، وأصلها كلها كما قلنا من التوراة أو مما كانوا يفترون[1]

٢ ـ قال الامام محمد عبده: قد وضعت الزنادقة اللابسون لباس الاسلام غشاً ونفاقاً وقصدهم بذلك افساد الدين، وايقاع الخلاف والافتراق في المسلمين. وقال حماد بن زيد: «وضعت الزنادقة أربعة عشر ألف حديثاً» وهذا بحسب ما وصل اليه علمه واختباره في كشف كذبها، والا فقد نقل المحدثون أن زنديقاً واحداً وضع هذا المقدار. قالوا: «لما أخذ ابن أبي العوجاء ليضرب عنقه، قال وضعت فيكم

١. مقدمة ابن خلدون: ص ٤٣٩.

أربعة آلاف حديث احرم فيها الحلال وأحل الحرام »[١] . وابن أبي العوجاء هو ربيب حماد بن سلمة المحدث الشهير الذي ينقل الذهبي عن ابن الثلجي قال سمعت عباد بن صهيب يقول : ان حماداً كان لايحفظ وكانوا يقولون انها دست في كتبه . وقد قيل ان ابن أبي العوجاء كان ربيبه فكان يدس في كتبه[٢] .

قال المرتضى ، لما قبض محمد بن سليمان ، وهو والى الكوفة من قبل المنصور ، عبد الكريم بن أبي العوجاء وأحضره للقتل وأيقن بمفارقة الحياة : لئن قتلتموني فقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة[٣] .

يقول ابن الجوزي : ان عبدالكريم كان ربيباً لحماد بن سلمة وقد دس في كتب حماد بن سلمة[٤] .

نرى أن المحدثين يروون بأسنادهم عن حماد ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، مرفوعاً : رأيت ربي جعداً أمرد عليه حلة خضراء . وفي رواية أخرى : ان محمداً رأى ربه في صورة شاب

١ . المنار : ج ٣ ص ٥٤٥ ، ونقله في الاضواء : ص ١١٥ .

٢ . ميزان الاعتدال : ج ١ ص ٥٩٣ ، ومات حماد عام ١٦٧ .

٣ . أمالي المرتضى : ج ١ ص ١٢٨ – ١٢٧ .

٤ . الموضوعات : ص ٣٧ طبع المدينة المنورة ، ولاحظ تهذيب التهذيب : ج ٣ ص ١٦ – ١١ .

أمرد ، دونه ستر من لؤلؤ قدميه أو رجليه في خضرة [١] .

وقال الشيخ محمد بن زاهد الكوثري المصري في تقديمه على كتاب الأسماء والصفات للحافظ أبي بكر البيهقي : ان مرويات حماد بن سلمة في الصفات ،تجدها تحتوي على كثير من الأخبار التافهة تتناقلها الرواة طبقة عن طبقة ، مع أنه قد تزوج نحو مأة امرأة ، من غير أن يولد له ولد منهن . وقد فعل هذا الزواج والنكاح فعله ، بحيث أصبح في غير حديث « ثابت البناني » لا يميز بين مروياته الاصلية وبين ما دسه في كتبه ، ربيبه ابن أبي العوجاء ، وربيبه الاخر زيد المدعو (بابن حماد) ، فضل بمروياته الباطلة كثير من البسطاء . ويجد المطالع الكريم نماذج شتى من أخباره الواهية في باب التوحيد من كتب الموضوعات المبسوطة وكتب الرجال وفعلت مرويات نعيم ابن حماد مثل ذلك ، بل أدى به الى التجسيم ،كما وقع مثل ذلك لشيخ شيخه مقاتل بن سليمان، وتجد آثار الضرر الوبيل في مروياتهما في كتب الرواة الذين كانوا يتقلدونها من غير معرفة منهم لما هناك واليك كتاب الاستقامة لحشيش بن أصرم ، والكتب التي تسمى السنة لعبدالله بن أحمد بن حنبل ، وللخلال والتوحيد لابن خزيمة وغيرهما مما تجد فيها ما ينبذه الشرع والعقل، ولا سيما كتاب (النقض) لعثمان

١ . ميزان الاعتدال : ج ١ ص ٥٩٤ – ٥٩٣ . وهذه الاساطير المزخرفة من مفتعلات الزنادقة نظراء : ابن أبي العوجاء دسوها في كتب المحدثين الاسلاميين ، تعالى عما يقول الظالمون .

ابن سعيد الدارمي الجزي المجسم (في رده على المريى) فانه أول من اجترأ بالقول « ان الله لو شاء لاستقر على ظهر بعوضة واستقلت به بقدرته فكيف على عرش عظيم » هذا بعض ما لعب به أعداءالاسلام في اصول الدين [١] ولا يقصر منهاكتاب العلوللذهبى .

٣ ـ وقال الدكتور احمد أمين : اتصل بعض الصحابة بوهب بن منبه ، وكعب الاحبار ، وعبدالله بن سلام ، واتصل التابعون بابن جريج ، وهـؤلاء كانت لهم معلومات رووا عن التوراة والانجيـل وشروحها وحواشيها، فلم يرى المسلمون بأساً من أن يقصوها بجانب آيات القرآن ، فكانت منبعاً من منابع التضخيم [٢] .

٤ ـ قال أبورية : لما قويت شوكة الدعوة المحمدية ، واشتد ساعدها ، وتحطمت امامها كل قوة تنازعها ، لم ير من كانـوا يقفون امامها ، ويصدون عـن سبيلها ، الا أن يكيدوا لها عن طريق الحيلـة والخداع ، بعد أن عجزوا عن النيل منها بعدد القوة والنزاع . ولمـا كان اشد الناس عـداوة للذين آمنوا اليهود ، لم يجدوا بداً مـن أن

١ . نظرة فى كتاب الاسماء والصفات للبيهقى مقدمة الشيخ محمدزاهد الكوثرى: ص ٥ ، وقال بمقالة الجزى ابن تيمية فى كتابه « غوث العباد » المطبوع بمصر مطبعة الحلبى عام ١٣٥١ .

٢ . ضحى الاسلام : ج ٢ ص ١٣٩ .

يستعينوا بالمكر ، ويتوسلوا بالدهاء ، لكي يصلوا الى ما يبتغون فهداهم المكر اليهودي الى أن يتظاهروا بالاسلام ، ويطووا نفوسهم على دينهم ، حتى يخفى كيدهم ، ويجوز على المسلمين مكرهم [١] .

أو ليس ذلك الاستغلال والسيطرة على عقول المسلمين ، هو نتيجة أمور ، منها : المنع من التحدث عن الرسول ، وفسح المجال لأبناء أهل الكتاب ، حتى يتمكنوا من نشر كلم الباطل ، ويمزقوا أصول الاسلام وفروعه . والعجب أن التفاسير الى يومنا هذا مكتظة بأقوالهم وأحاديثهم ، ولها من القيمة عند قرائها مكان .

٥ ـ قال العلامة الشيخ جواد البلاغي : الرجوع في التفسير وأسباب النزول الى امثال عكرمة ، ومجاهد ، وعطاء ، والضحاك، كما ملأت كتب التفاسير بأقوالهم المرسلة ، مما لا يعذر فيه المسلم في أمر دينه ، لأن هؤلاء الرجال غير ثقات في أنفسهم ، ومجتمعون على موائد أهل الكتاب من الأحبار والرهبان .

قيل للأعمش : ما بال تفسير مجاهد ؟ قال: أخذه من أهل الكتاب ويكفي في ذلك أن مجاهد الاخذ منهم فسر قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » قال يجلسه معه على العرش .

وأما عطاء ، فقد قال أحمد : ليس في المراسيل أضعف من مراسيل الحسن وعطاء ، كانا ياخذان عن كل أحد .

وقال النسائي: وأما مقاتل بن سليمان ، كان يكذب ، وعن يحيى

١ . أضواء على السنة المحمدية : ص ١٣٧ .

قال : حديثه ليس بشيء ، وقال ابن حيان : كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافقهم كتبهم [١] .

وأما الخرافات والأساطير في تفسير الكون وبدء الخليقة وأحوال الامم الماضية ، فحدث عنه ولا جرح ، فقد ملأوا الصدور والطوامير وتأثرت بهم طبقات من المسلمين، ممن كتبوا حول المواضيع السالفة.

ولعل القاريء الكريم يحسب أن هذه الكلمات الصادرة من أساتذة الفن ، ورجال التحقيق فى الملل والنحل ، صدرت من غير تحقيق وتدقيق ، الا أن المراجع للكتب الرجالية ، يقف على صدق المقال ، ويكتشف أنه كان هنالك رجال يتظاهرون بالاسلام ـ وفى الوقت نفسه ـ يبثون ما لديهم من الاسرائيليات ، والمسيحيات والمجوسيات ، تحت غطاء هذا التظاهر . واليك نزراً من تاريخ بعض هؤلاء الرجال :

١ ـ كعب الاحبار

هو كعب بن ماتع الحميري ، قالوا : هو من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب ، أسلم في زمن أبي بكر ، وقدم من اليمن في خلافة عمر ، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ، وتوفى في خلافة عثمان ، وروى عنه جماعة

١ . آلاء الرحمن : ج ١ ص ٤٦ نقلا عن الذهبى .

من التابعين ، وله شيء في صحيح البخاري وغيره [١] .

هذا ما قاله الذهبي في كتابه : «تذكرة الحفاظ» حيث ترى أنه يعرفه بأنه من أوعية العلم ، ومعنى ذلك أن الصحابة كانوا يعتقدون بأنه من محال العلم والفضل ، ولهذا السبب أخذ عنه الصحابة وغيرهم . وعندئذ فيسأل : اذا أخذ عنه الصحابة وغيرهم على أنه من أوعية العلم، فما ذاك الذي أخذوه عنه؟ هل أخذوا عنه سوى الاسرائيليات المحرفة والكاذبة ؟ فانه لم يكن عنده ـ على فرض كونه صادقاً ـ سوى تلك الأساطير والقصص الموهومة . فهل تسعد أمة أخذت معالم دينها عن المحدث اليهودي ، المعتمد على الكتب المحرفة بنص القرآن الكريم ؟ ولكن كما قلنا هذا الفرق مبني على كونه صادقاً، أما اذا كان كاذباً فالخطب أفدح وأجل ، ولا يقارن بشيء .

والمطالع الكريم في مروياته يقف على أنه يركز على القول بأمرين : التجسيم والرؤية ، وقد اتخذهما أهل الحديث والحنابلة من الاثار الصحيحة ، فبنوا عليها العقائد الاسلامية وكفروا المخالف واليك كلا الأمرين .

الاول : تركيزه على التجسيم

ان الاحاديث المنقولة عن ذلك الحبر اليهودي ، تعرب بوضوح عن أنه نشر بين الأمة الاسلامية فكرة التجسيم ، التي هي من عقائد

١ . تذكرة الحفاظ للذهبي : ج ١ ص ٥٢ .

اليهود . قال : « ان الله تعالى نظر الى الارض فقال اني واطـؤ على بعضك ، فاستعلت اليه الجبال وتضعضعت لـه الصخرة ، فشكى لها ذلك فوضع عليها قدمه فقال هذا مقامي ، ومحشر خلقي ، وهذه جنتي وهذه ناري ، وهذا موضع ميزاني ، وأنا ديان الدين »[١] .

ففي هذه الكلمة من هذا الحبر ، تصريح بتجسيمه سبحانه أولا وقد شاعت هذه النظرية بين أبناء الحديث والحشوية منهم ، وثانياً : التركيز على الصخرة التي هي مركز بيت المقدس، وثالثاً: أنالجنة والنار والميزان ستكون على هذه الأرض ، ومركز سلطانها سيكون على الصخرة ، وهذا من صميم الدين اليهودي المحرف .

الثانى : تركيزه على رؤية الله

ومن كلامه أيضاً : أن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بيـن موسى ومحمد صلى الله عليه وآله [٢]، وقد صار هذا النص وأمثالـه مصدراً لتجويز فكرة رؤية الله سبحانه وتعالى فىالدنيا والاخرة، وبالأخص فى الاخرة ، وقـد صارت هـذه العقيدة اليهودية المحضة ، احدى الاصول التى بني عليها مذهب أهل الحديث والأشاعرة .

ومن أعظم الدواهي، أنالرجل خدع عقولالمسلمين وخلفائهم فاتخذوه واعظاً ومعلماً ومفتياً يفتيهم . وهنا لك شواهد على ذلك :

١ . حلية الاولياء : ج ٦ ص ٢٠ .

٢ . الشرح الحديدى : ج ٣ ص ٢٣٧ .

منها : التزلف الى الخليفة الثانى

قال ابن كثير : أسلم كعب فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر ، فترخص الناس في استماع ما عنده ، ونقلوا ما عنده عنه غثهـا وسمينها . وليس لهذه الامة والله أعلم حاجة الى حرف واحد مما عنده [١] .

انلهذاالرجل أساليب عجيبة في اللعب بعقول المسلمين وخلفائهم واليك نماذج منها :

الف : قال كعب، لعمر بن الخطاب: انا نجدك شهيداً وانا نجدك اماماً عادلا ، ونجدك لاتخاف فى الله لومة لائم . قال هذا لا اخاف فى الله لومة لائم فانى لى بالشهادة [٢].

تـرى أنه كيف يتزلف الى الخليفة ، ويتنبأ بشهادته وقتلـه في سبيل الله .

ب : نقل أبـو نعيم أيضاً : أن كعباً مر بعمر ، وهو يضرب رجلا بالدرة. فقال كعب: على رسلك ياعمر، فوالذي نفسي بيده انه لمكتوب في التوراة ، ويل لسلطان الارض مـن سلطان السماء ، ويل لحاكم الارض من حاكم السماء، فقال عمر: الامن حاسب نفسه، فقال كعب: والذي نفسي بيده انها لفي كتاب الله المنزل، ما بينهما حرف: الا من حاسب نفسه [٣].

١ . تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ١٧ طبع الافست .

٢ . حلية الاولياء : ج ٥ ص ٣٨٩ – ٣٨٨ .

٣ . المصدر السابق .

وهذه الجملة تعرب عن أن كعباً كان يتزلف الى عمر ، حتى أنه يقرأ عليه نص التوراة المحرف لتصديق كلامه .

ج : وروى أيضاً : أن عمر جلد رجلا يوماً وعنده كعب ، فقال الرجل حين وقع به السوط : سبحان الله ، فقال عمر للجلاد : دعه فضحك كعب ، فقال له : وما يضحكك، فقال : والذي نفسي بيده ان « سبحان الله » تخفيف من العذاب [1].

والكلمة هذه محاولة من الحبر اليهودي، لتوجيه عمل عمر، عند ما أمر الجلاد بترك المجلود .

وهذه الأمور صارت سبباً لجلب عطف الخليفة، ففسح له التحدث في عاصمة الوحي ، وأوساط المسلمين .

ومنها : تزلفه الى عثمان

ومن الخطب الفادح، أنه صار بأفانين مكره ، موضع ثقة لعثمان ومفتياً له في الاحكام ، يصدر عن فتياه ، ويعمل بقوله. واليك مايلي:

ألف: ذكر المسعودي أنه حضر أبوذر، مجلس عثمان ذات يوم فقال عثمان : أرأيت من زكى ماله هل فيه حق لغيره ؟ فقال كعب : لايا أمير المؤمنين ، فدفع أبوذر في صدر كعب ثم قال له : كذبت يا ابن اليهودي ، ثم تلا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب

١ : حلية الاولياء : ج ٥ ص ٣٩٠ ـ ٣٨٩ .

والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ـ البقرة : ١٧٧ » .

فقال عثمان : أترون بأساً أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننفقه في ما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه ؟ فقال كعب : لاباس بذلك فرفع أبوذر العصاء فدفع بها في صدر كعب وقال : يا ابن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا ، فقال له عثمان : ما اكثر أذاك لي غيب وجهك عني فقد آذيتني [١].

ب : ونقل أيضاً : أتى ذلك اليوم بتركة عبدالرحمن بن عوف الزهري من المال، فنضد البدر، حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائل ، فقال عثمان : انى لارجو لعبد الرحمان خيراً ، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترون، فقال كعب الاحبار: صدقت يا أميرالمومنين ، فشال أبوذر العصاء ، فضرب بها رأس كعب ، ولم يشغله ما كان فيه من الالم ، وقال : يابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال ان الله أعطاه خيرالدنيا وخير الاخرة ، وتقطع على الله بذلك ، وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما يسرنى أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً» فقال له عثمان : وارعني وجهك [٢] .

١ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٤٠ ـ ٣٣٩ .
٢ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٤٠ .

ومنها : تزلفه الى معاوية

نرى أن كعب يتنبأ بمولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهجرته وملكه ، فيقول : مولده بمكة ، وهجرته بطيبة ، وملكه بالشام [١] .

فما ذا يريد كعب بقوله : وملكه بالشام ؟ هل هو الا تزلف الى معاوية ، وأنه يريد أن يقول : ان ملك النبي لن يستقر الا فيها ؟ وقد كان معاوية يمهد وسائل الملك لنفسه بالشام .

وقال أيضاً : ان أول هذه الأمة نبوة ورحمة ، ثم خلافة ورحمة ثم سلطان ورحمة ، ثم ملك وجبرية ، فاذا كان ذلك، فان بطن الأرض يومئذ خير من ظهرها [٢] .

فترى أنه يتنبأ بالسلطنة ويعدها رحمة ، وهذا المضمون انتشر فى الصحاح والمسانيد بكثرة، وقد روى الترمذي، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك .

وروى أبو داود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك من يشاء [٣].

وسيوافيك أنه أخذ منه أبوهريرة ، ولأجل ذلك نرى تلك الفكرة

١ . سنن الدارمى : ج ١ ص ٥ .
٢ . حلية الاولياء : ج ٦ ص ٢٥ .
٣ . سنن أبى داود : ج ٤ ص ٢١١ .

ـ فكرة الملك ـ جاءت في روايات أبي هريرة ، قال : الخلافة بالمدينة والملك بالشام [١] .

وقد اخذ عن ذلك الحبر الماكر عدة من الصحابة كابن عباس وأبي هريرة ، ومعاوية وغيرهم [٢] .

قال الذهبي : توفى في خلافة عثمان [٣] ، وقال أبو نعيم في حلية الاولياء أنه توفى كعب قبل مقتل عثمان بسنة . [٤] وعلى ذلك توفى عام ٣٤ .

وقال ابن الاثير في حوادث سنة ٣٤ : ففي هذه السنة توفى كعب الاحبار [٥].

نعم توفى في ذاك العام ، لكن بعد ما ملأ المجتمع الاسلامي بأساطير ، وقصص ، وعقائد اسرائيلية ، حسبها السذج من المحدثين أنها حقائق راهنة ، فنقلوها ناسبين لها الى كعب تارة ، والى النبي الأعظم اخرى ، وعليها بنيت العقائد وانتظمت الاصول ، ومن تفحص في كتب الحديث والتفسير والتاريخ ، يقف بوضوح على أن كثيراً من المحدثين والمفسرين والمورخين، اعتمدوا على أقواله ومروياته من دون أي غمز وطعن أو تردد وشك ، وهذا من عجائب الأمور

١ . كنزالعمال : ج ٦ ص ٨٨ .
٢ . سيرأعلام النبلاء : ج ٣ ص ٤٩٠ .
٣ . تذكرة الحفاظ للذهبى : ج ١ ص ٥٢ .
٤ . حلية الاولياء : ج ٦ ص ٤٥ .
٥ . الكامل فى التاريخ : ج ٣ ص ٧٧ .

وغرائبها .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير من روايات ذلك الرجل وتسويلاته . فمن أراد الوقوف على أحواله وأقواله وما بث بين المسلمين من أساطير وقصص اسرائيلية ، فليراجع الى المصادر التالية[1]

هذا وان أصحاب الثقافة المنحرفة تبث فكرتها بين المجتمع في ظل دعامتين مؤثرتين :

الأولى : يحاول الاتسام بالعلم ، ويعرف نفسه للمجتمع بأنه عالم كبير ، ومفكر اجتماعي بلا منازع ، حتى يتخذ لنفسه من هذا الطريق مكاناً في القلوب تنعطف اليه النفوس وترتاح به .

الثانية : يحاول الصلة بأصحاب السلطة ، حتى يتخذوها سناداً وعماداً في مقابل العواصف القارعة التي تبعثها صلحاء الأمة ومفكروها الواقعيون .

فاذا تهيأت لأصحاب الفكرة المنحرفة هاتان الدعامتان ، يسهل لهم النفوذ في عقول بسطاء الأمة ، ويتمكن من نفث أفكاره المسمومة في نفوسها ، ولا تمر الايام حتى تصبح أفكارها حقيقة راهنة لايمكن

١ . الاعلام للزركلي : ج ٥ ص ٢٢٨ ، تذكرة الحفاظ : ج ١ ص ٥٢ ، حلية الاولياء : ج ٥ ص ٣٦٤ الخ ، و : ج ٦ ص ٤٨ ـ ١ ، الاصابة : ج ١ ص ١٨٦ ، النجوم الزاهدة : ج ١ ص ٩ ، الكامل : ج ٣ ص ١٧٧ ، شرح ابن أبي الحديد في أجزائه المختلفة : ج ٣ ص ٥٤ ، و : ج ٤ ص ١٤٧ ـ ٧٧ ، و : ج ٨ ص ٢٥٦ ، و : ج ١٠ ص ٢٢ ، و : ج ١٢ ص ١٩٣ ـ ١٩١ ـ ٨١ ، و : ج ١٨ ص ٣٦ .

تجاوزها ، ولا الدعوة على خلافها ، بل تصير المخالفة لها ارتداداً عن الدين ، وتشبثاً بالباطل .

ومن عجيب الأمور أن الاحبار والرهبان لما تظاهروا بالايمان ولما يدخل الايمان فى قلوبهم ، هيمنوا على عقول المسلمين من خلال هذين الأمرين .

فمن جانب عرفوا بأنهم من أوعية العلم، وأن عندهم علوم الاولين والاخرين بتفصيلاتها، وأنهم حفظة التوراة والانجيل والزبور وغيرها من الكتب السماوية .

ومن جانب آخر استعانوا بالحكم السائد ، بحيث صاروا موضع ثقة له يسمع لكلامهم ويصد عن رأيهم .

عند ذلك أخذت الاسرائيليات والمسيحيات ، مكان السنة النبوية وصارت نقلتها مصادر الحكم والفتياء ، فأصبحت آرائهم وأقوالهم مدارك الفقه وسناد التاريخ ، ومعياراً للحق والباطل في العقائد . فيالها من رزية عظمت ويالها من مصيبة كبرت .

هذا هو كعب الأحبار فقد استعان في بث ثقافته (الثقافة اليهودية) عن هاتين الدعامتين فهلم معي ندرس حياة بعض زملائه وسوف تقف على أن الخط الذي مشى عليه كعب ، مشى عليه زملاءه واليك البيان.

٢ ـ وهب بن منبه اليمانى ونفى المشيئة للانسان

وقد ابتلى المسلمون بعد كعب الأحبار بكتابي آخر قد بلغ الغاية

في بث الاسرائيليات بين المسلمين حول تاريخ الأنبياء والأمم السالفة وهو وهب بن منبه . قال الذهبي ولد في آخر خلافة عثمان ، كثير النقل عن كتب الاسرائيليات ، توفى سنة ١١٤ وقد ضعفه الفلاس [١] .

وقال في تذكرة الحفاظ : عالم أهـل اليمن ، ولد سنة الرابع والثلاثين ، وعنده من علم الكتاب شيء كثير ، فانه صرف عنايته الى ذلك وبالغ ، وحديثه في الصحيحين عن أخيه همام [٢] .

وترجمه ابن نعيم في حلية الأولياء ترجمة مفصلة استغرقت قرابة ستين صفحة وبسط الكلام في نقل أقواله وكلماته القصار [٣] .

وقد خدع عقول الصحابة بأفانين المكر ، حيث صار يعرف نفسه أعلم من قبله ومن عاصره بقوله لبعض حضار مجلسه : يقولون عبدالله ابن سلام أعلم أهل زمانـه ، وكعب أعلـم أهل زمانه أفرأيت مـن جمع علمهما يعني نفسه [٤] .

وقـد تسنم الرجل ، منبر التحدث عن الأنبياء والأمم السالفـة يوم كان نقل الحديث عـن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ممنوعـاً وأخذ بمجامع القلوب فأخذ عنه من أخذ . وكانت نتيجة ذلك التحدث انتشار الاسرائيليات حـول حياة الأنبياء في العواصم الاسلامية وقـد دونما ألقاه في مجلد واحد ، أسماه في كشف الظنون « قصص الأبرار

١ . ميزان الاعتدال : ج ٤ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٢ .

٢ . تذكرة الحفاظ : ج ١ ص ١٠١ ـ ١٠٠ .

٣ . حلية الاولياء : ج ٤ ص ٨١ ـ ٢٣ .

٤ . تذكرة الحفاظ : ج ١ ص ١٠١ .

وقصص الاخيار »[١] .

وهب بن منبه والتركيز على القدر

وليته اكتفى بهذا المقدار ولم يلعب بعقيدة المسلمين ولم ينشر نظرية الجبر التي لـو ثبتت لما بقيت للشرائع دعامة ، ويظهر مـن تاريخ حياته أنه أحد المصادر لانتشار نظرية نفي الاختيار والمشيئة عن الانسان، حتى المشيئة الظلية التي لولاها لبطل التكليف ولغت الشريعة.

روى حماد بن سلمة عن أبي سنان قال: سمعنا وهب بن منبه قال: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعاً وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء في كلها : من جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر ، فتركت قولي [٢].

والمراد من القدر في قوله « كنت أقول بالقدر » ليس القول بتقدير الله سبحانه وقضائه ، بل المراد هو القول بالاختيار والمشيئة للعبد كما يظهر من ذيل كلمه .

وهذا النقل يعطي أن القول بنفي القدر والمشيئة للانسان ، قد تسرب الى الأوساط الاسلاميـة ، من هؤلاء الجماعة وعـن الكتب الاسرائيلية فيصح بعد هذا أن يعد القول بنفي المشيئة عقيدة جاء بها القرآن والسنة النبويـة ، ونكفر من قال بالمشيئة للانسان ولو مشيئة ظلية تابعة لمشيئته سبحانه . ونقاتل في سبيل هذه العقيدة .

١ . كشف الظنون : ج ٢ ص ٢٢٣ ، مادة قصص .

٢ . ميزان الاعتدال : ج ٤ ص ٣٥٣ .

٣ ـ تميم بن أوس الدارى من رواة الاساطير

الاسرائيليات المبثوثة في كتب التفسير والحديث والتاريخ ترجع أصولها الى رجال الكنائس والبيع وقد تعرفت على اثنين منهم وهما كعب الأحبار ووهب بن منبه، وثالثهم هو تميم الدارى وله دور كبير في بثها حيث انه أول من تولى نشر هذه الأساطير . وقد حدث عنه علماء الرجال والتراجم وأطبقوا على أنه كان نصرانياً ، قدم المدينة فأسلم في سنة ٩ هجرية . وله من الأوليات أمران :

١ ـ كان أول من أسرج في المسجد

٢ ـ أول من قص بين المسلمين

وكان يسكن المدينة ثم انتقل الى الشام بعد قتل عثمان [١] .

هذا واتفقت عليه الكتب الرجالية . ويستنتج منها مايلي :

أولا : ان الرجل كان قصاصاً فى المدينة يوم لم يكن هناك من يعارضه ويكافئه ، وبما أن الرجل كان قد قضى شطراً من عمره بين الأحبار والرهبان ، فمن الطبيعي أن يقوم بقص كل ما تعلمه من أساتذته من الاسرائيليات والأساطير المسيحية وبثها بين المسلمين ، وهم يأخذونها منه زاعماً أنها حقائق راهنة .

ومن المأسوف عليه أن السياسة الحاكمة سمحت لهذا الكتابي

١ . الاصابة : ج ١ ص ١٨٦ ، والاستيعاب فى هامش الاصابة نفس المصدر وأسد الغابة : ج ١ ص ٢١٥ وغيرهما من المصادر .

الذي أسلم قي أخريات حياة الرسول ، أن يتحدث عن الأمم السالفة والانبياء السابقين . وفي الوقت نفسه منعت عن التحدث عن رسول الله ونشر كلامه وتدوينه ، بحجة واهية قد تعرفت عليها .

أو ليس النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا تحدثوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم على ما رواه ابوهريرة حيث انه قال : كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل اليكم [١] .

واذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرنا بعدم تحدث هؤلاء القصاصين من أهل الكتاب ، فما فائدة نقل هذه القصص وبثها بين المسلمين واتلاف عمر الشباب والكهول بالاستماع اليها .

ولكن ابن عباس يقول أشد مما نقله أبوهريرة : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ؟ وكتابهم الذي أنزل على رسول الله أحدث الكتب تقرؤونه محضاً لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عندالله ليشتروا به ثمناً قليلا .

ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي انزل اليكم [٢] .

١ . صحيح البخارى : الجزء التاسع ،كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : ص ١١١ .

٢ . أضواء على السنة المحمدية : ص ١٥٥ – ١٥٤ ، نقلا عن البخارى من حديث الزهرى .

ان ابن عباس الذي هو وليد البيت النبوي أعرف بسنـة النبي صلى الله عليـه وآله وسلم من أبي هريرة ، فهو ينهي عـن السؤال والاستماع الى كلماتهم .

وبذلك يعلم أن ما أسند الى النبي في المسانيد من القول (حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج) [١] اما موضوع ، أو مأول محمول على ما علم من صدق الكلام .

طعن الشيطان لكل بنى آدم الا عيسى وأمه :

اذا كان كعب الاحبار وزميله وهب بن منبه والمتقدم عليهما تميم الداري ، هم القصاصون في المجتمع الاسلامي والمتحدثون عـن التوراة والانجيل ، وكانت الصحابة ممنوعة عن التحدث عـن النبي فمن الطبيعي أن ينتشر في العواصم الاسلامية الأساطير الخرافية حتى ما يمس بكرامة الأنبياء وكرامة النبي الاكرم . وهذا البخاري ينقـل في صحيحه عـن أبي هريرة : قال ، قال النبي : كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بأصبعه حين يولد غير عيسى بـن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب [٢] .

وقد نقله أحمد في مسنده باختلاف يسير . ومعنى هـذا الحديث الذي ينقله ذلك الصحابي عن الرسول ، أن الشيطان يطعن كل ابـن

١ . مسند أحمد : ج ٣ ص ٤٦ ، وصحيح البخارى ـ الانبياء .
٢ . صحيح البخارى : ج ٤ باب صفة ابليس وجنوده ص ١٢٥ .

آدم الا واحداً منه وهو عيسى بن مريم، وأما الأنبياء كموسى ونوح وابراهيم وحتى خاتمهم ، لم يسلموا من طعن الشيطان . أوليس ذلك الحديث يخالف كتاب الله حيث يقول : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين ـ الحجر : ٤٢ » .

فاذن ، كيف يمكن أن يقول النبي ذلك وقد أوحى اليه أنه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين[١] وخيرهم الأنبياء والمرسلون وفي مقدمهم نبي العظمة . ومن المحتمل جداً أن وصل الى أبي هريرة من رواة عصره ، نظراء كعب الأحبار أو زميله تميم الداري وأضرابهما وقد نسبوه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ان هذا الحديث ونظائره أوجد مشاكل في الدين وأعطت حججاً لأيدي المخالفين حتى يهاجم الرسول الاكرم والأنبياء ، بأنهم سقطوا في الخطيئة واقترفوا الاثام ، الا عيسى بن مريم فانه أرفع من طبقة البشر وانه وحده قد استحق العصمة والصون من الاثام .

فهؤلاء المحدثون لو فرض أنهم صادقون في نياتهم لكنهم كالصديق الجاهل أضروا الاسلام بنقل هذه القصص والأساطير وأيدوا العدو بها وأتعبوا المسلمين من بعدهم .

تميم الدارى وقصة الجساسة

ان لتميم الداري حديثاً معروفاً باسم حديث الجساسة ، نقله

١ ؛ النحل : ١٠٢ ، و: الحجر : ٤٢ .

مسلم في صحيحه فراجع : الجزء الثامن ص ٢٥٣ ، تجد فيها من الغرائب ما تندهش منها العقول .

روى مسلم عن فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس ـ وكانت من المهاجرات الأول ـ : سمعت نداء المنادى (منادي رسول الله) ينادي الصلاة جامعة ، فخرجت الى المسجد فصليت مع رسول الله فكنت في صف النساء التي تلى ظهور القوم فلما قضى رسول الله صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال : ليلزم كل انسان مصلاه ثم قال : أتدرون لم جمعتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : انى والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلا نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال ، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ثم ارفأوا الى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر ، فقالوا ويلك ما أنت ؟ فقالت أنا الجساسة ، قالوا وما الجساسه ؟ قالت : أيها القوم انطلقوا الى هذا الرجل في الدير فانه الى خبركم بالاشواق ، قال لما سمت لنا رجلا فزعنا منها أن تكون شيطانة ، قال فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير فاذا فيه أعظم انسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً ، مجموعة يداه الى عنقه ما بين ركبتيه الى كعبيه بالحديد ، قلنا ويلك ما أنت ؟

قال قد قدرتم على خبرى فاخبروني ما أنتم ؟ قالوا نحن اناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم ، فلعب بنا الموج شهراً ثم ارفأنا الى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها ، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر . فقلنا ويلك ما أنت فقالت أنا الجساسة قلنا وما الجساسة قالت اعمدوا الى هذا الرجل في الدير فانه الى خبركم بالاشواق فاقبلنا اليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة فقال أخبروني عن نخل بيسان قلنا عن أي شأنها تستخبر قال أسألكم عن نخلها هل يثمر قلنا له نعم قال أما انه يوشك أن لا تثمر ، قال أخبروني عن بحيرة الطبرية قلنا عن أي شأنها تستخبر قال هل فيها ماء قالوا هي كثيرة الماء قال أما ان مائها يوشك أن يذهب ، قال أخبروني عن عين زغر قالوا عن أي شأنها تستخبر قال هل في العين ماء وهل يزرع أهلها بماء العين قلنا له نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها قال أخبروني عن نبي الاميين ما فعل قالوا قد خرج من مكة ونزل يثرب قال أقاتله العرب قلنا نعم قال كيف صنع بهم فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه قال لهم قد كان ذلك قلنا نعم قال أما ان ذاك خير لهم أن يطيعوه واني مخبركم عني اني أنا المسيح واني اوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فاسير في الارض فلا أدع قرية الا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان على كلتاهما ، كلما اردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلني ملك

بيده السيف صلتاً يصدني عنها وان على كل نقب منها ملائكة يحرسونها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وطعن بمخصرته في المنبر هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة يعني المدينة ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس نعم فانه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت احدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا انه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو . وأومأ بيده الى المشرق قالت فحفظت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] .

وقد علق المحقق المصري أبورية على هذا الحديث وقال : لعل علماء الجغرافيا يبحثون عن هذه الجزيرة ويعرفون أين مكانها من الأرض ، ثم يخبروننا حتى نرى ما فيها من الغرائب التي حدثنا بها ـ سيدنا تميم الداري ـ [٢] .

وأعجب منه أن يحدث نبي العظمة الذي يقول سبحانه في حقه: « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ـ النساء : ١١٣ » عن تميم الداري ويستشهد لكلام نصراني دخل في الاسلام حديثاً ونعم ما قال شاعر المعرة :

فياموت زر ان الحياة ذميمة .

١ . صحيح مسلم : باب في الرجال ص ٢٠٥ ـ ٢٠٣ .

٢ . الاضواء : ص ١٧١ .

٤ ـ ابن جريج الرومى ورواية الموضوعات

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج رومي ، ولائه لال خالد بن أسيد الاموي ولد سنة ٨٠ وتوفى عام ١٥٠ قال أحمد بن حنبل :كان من أوعية العلم وهو وابن أبي عروبة أول من صنف الكتب ، وقال عبدالرزاق : كان ابن جريج ثبتاً لكنه يدس [١] .

ونقل الذهبي أيضاً عن عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: ان بعض هذه الأحاديث الذي يرسلها ابـن جريج أحاديث موضوعة كان ابن جريج لا يبالي من أين يأخذها [٢] .

حصيلة البحث

هذه العصابة التي أتينا بأسمائها وذكرنا عنها شيئاً ، كانـوا هم الأسس في تسرب القصص الديني اليهودي والمسيحي الى متون كتب المسلمين وصارت نواة لكثير من القصاصين والوضاعين الذين نسجوا على منوالهم ونقلوا كل ما سمعوه من غث وسمين باسم الدين، ولأجل ذلك نجد كثيراً من كتب التفسير والتاريخ والحديث حتى ما يسمى بالصحاح والمسانيـد ، مملوءة بالاسرائيليات والمسيحيات بـل والمجوسيات .

١ : تذكرة الحفاظ : ج ١ ص ١٧١ ـ ١٦٩ .
٢ . ميزان الاعتدال : ج ٢ ص ٦٥٩ .

يقول « جولـد تسهير » في هذا المضمار في كتابه « العقيـدة والشريعة » : هناك جمـل أخذت من العهد القديم والعهد الجديـد وأقوال للربانيين ، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة وتعاليم مـن الفلسفة اليونانية ، وأقوال مـن حكم الفرس والهنود ، كل ذلك أخذ مكانه في الاسلام عن طريق الحديث ـ الى أن قال ـ ومن هذا الطريق تسرب كنز كبير مـن القصص الدينية حتى اذا مـا نظرنا الى الرواة المعدودة مـن الحديث ونظرنـا الى الأدب الديني اليهودي ، فاننا نستطيع ان نعثر على قسم كبير دخل الأدب الديني الاسلامي من هذه المصادر اليهودية [١] .

نحن لانصدق هذا المستشرق الحاقد على الاسلام في كلمايقول ويقضي، الا أننا نوافقه في أن ما يؤثرعن أمثال كعب الأحبار، ووهب ابن منبه ، وتميم الداري ، وعبد الملك بن جريج وغيرهم ، من الاسرائيليات ، ليس من صلب الاسلام وحديثه . والعجب أن هـذه الجماعة لم تتمكن من اخفاء نواياها السيئة ، فترى أن اليهودي منهم ينقل فضائل موسى ويرفعه فوق جميع الأنبياء ، كما أن النصارى منهم أخذ يرفع مقام المسيح عليه السلام على جميعهم ويصفه بالعصمة وحده دون غيرهم .

نعم ليس كل ما ورد في الشريعة الاسلامية ووافق التعاليم اليهودية

١ . العقيدة والشريعة فى الاسلام تأليف المستشرق « جولـد تسهير » ترجمة الاساتذة الثلاثة .

والنصرانية ، مأخوذة من كتبهم لأن الشرايع السماوية واحدة في جوهرتها ، متحدة في أصولها ، وبينهما مشتركات كثيرة والاختلاف انما هو في الشرعة والمنهاج لا فى الجوهر واللباب ، قال سبحانه : «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ـ المائدة : ٤٨ » .

فالاختلاف انما هو فى الطرق الموصلة الى ماء الحياة أعني الأصول والتعاليم السماوية النازلة من مصدر الوحي . فلو كان هناك اختلاف فانما هو في القشور والأثواب ، لا في الجوهر واللباب . وقد فصلنا الكلام في ذلك في مفاهيم القرآن [١] .

خاتمة المطاف

وأخيراً نقول : ان المتظاهرين بالاسلام من الأحبار والرهبان الذين كان لهم دور كبير في بث الاسرائيليات وتكوين المذاهب، ليسوا منحصرين في ما ذكرناهم ، بل هناك جماعة منهم لعبوا دوراً في هذا المضمار يجد المتتبع أسماءهم ويقف على أقوالهم في كتب الرجال والتراجم والروايات والأحاديث كعبد الله بن سلام الذي أسلم في حياة النبي ، وطاوس بن كيسان الخولاني الحمداني بالولاء من التابعين، ولد عام ٣٣ وتوفى عام ١٠٦ وغيرهم مما تركنا البحث عنهم اختصاراً .

١ . مفاهيم القرآن : ج ٣ ص ١٢٤ ـ ١١٩ .

ولاتمام البحث نأتي بنص أحد المحققين في ذاك المجال وهي: كلمة للدكتور « رمزى نعناعة » حول الاسرائيليات ، قال: تسرب كثير من الاسرائيليات عن طريق نفر من المسلمين أنفسهم أمثال : عبدالله ابن عمرو بن العاص فقد روى أنه أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم اليرموك فكان يحدث الناس ببعض ما فيها اعتماداً على حديث مروي [١] .

وعن هؤلاء المفسرين الذين لايتورعون عن تفسير القرآن بمثل هذه الخيالات والأوهام يقول النظام « لاتسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة فان كثيراً منهم يقول بغير رواية من أساس وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدى والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن الى صوابهم »[٢] و [٣] .

وقال أيضاً حول قصة آدم وحواء : ونقرء تفسير الطبري وتفسير مقاتل بن سليمان في هذه القصة فيتجلي لنا بوضوح أنهما أخذا ماجاء في التوراة وشروحهما من تفصيل لهذه القصة ، ووضعوه تفسيراً لآيات القرآن الكريم وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة ، وعن

١ . وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : حدثوا عني، ليس في المصدر، وحدثوا عن بني اسرائيل ولاحرج . الحديث مسند أحمد : ج ٣ ص ٤٦ .

٢ . الحيوان للجاحظ : ج ١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٣ .

٣ . الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير للدكتور رمزى نعناعة : ص ١١١ ـ ١١٠ .

اسرائيل عن أسباط عن السدى تارة أخرى [١] . ومثلا نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت في الانجيل كقصة ولادة عيسى بن مريم ومعجزاته ، فجاء المفسرون ينقلون عن مسلمة اليهود والنصارى شروحاً لهذه الايات [٢] و [٣] .

وقال أيضاً ولم يقتصر تأثير الاسرائيليات على كتب التفسير بل تعداها الى العلوم الاسلامية الاخرى ، فقد عنى بعض المسلمين بنقل تاريخ بني اسرائيل وأنبيائهم كما فعل أبو اسحاق والطبري في تاريخيهما وكما فعل ابن قتيبة في كتاب المعارف . . . كذلك كان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الكلامية ، فابن الأثير يروي عند الكلام على أحمد بن أبي داود أنه كان داعية الى القول بخلق القرآن ، وأخذ ذلك عن بشر المرسى وأخذ بشر من الجهم بن صفوان ، وأخذ الجهم من الجعد بن درهم، وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد الأعصم وختنه ، وأخذه طالوت من ختنه لبيد بن الأعصم اليهودي وكان لبيد يقول: بخلق التوراة ، وأول من صنف في ذلك طالوت وكان زنديقاً فأفشى الزندقة [٤] .

وسيوافيك أن القول بقدم القرآن وكونه غير مخلوق، أيضاً تسربت

١ . تفسير مقاتل : ج ١ ص ٢١ – ١٨ ، وتفسير الطبرى : ج ١ ص ١٨٦ وما بعده .

٢ . تفسير الطبرى : ج ٣ ص ١٩٠ .

٣ . تفسير الطبرى : ج ٣ ص ١١٢ .

٤ . الكامل لابن الاثير : ج ٥ ص ٢٩٤ حوادث سنة ٢٤٠ .

من اليهود حين ما قالوا بقدم التوراة ، أو من النصرانية حين ما قالوا بقدم « الكلمة » التي هي المسيح . فللأحبار والرهبان دور راسخ في خلق هـذه العقائد وطرح قدم القرآن وحدوثهـا على بساط البحث مع أنه لم يرد في ذلك نص عن النبي والصحابة .

العامل الرابع : الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري

مضى النبي الأكرم الى جوار ربه وقام المسلمـون بفتح البلاد ومكافحة الامم المخالفة للاسلام ، وكانت تلكم الامم ذات حضـارة وثقافة في المعارف والعلوم والاداب ، وقد كان بين المسلمين رجال ذودراية وعلاقة بكسب العلوم وتعليم الفنون والاداب لتلك الحضارات فأدت العلاقة الى المذاكرة والمحاورة أولا ، ونقل كتبهم الى اللغـة العربية ثانياً .

يقول بعض المؤرخين في هذا الصدد : ولم تليت كتب ارسطو وتاليس ، وابيذ قليس ، وهرقليوس ، وسقراط ، وابيقـور ، وجميع أساتذة مدرسة الاسكندرية من الفلاسفة ، أن ترجمت الى اللغة العربية وحدث ما جعل أمر تلك الترجمة سهلا . فقـد كانت معارف اليونان والرومان منتشرة في بلاد الفرس وسوريا منذ زمن وجد العرب في بلاد فارس وسوريا حينما استولوا عليها خزائن من العلوم اليونانيـة

وأمروا بنقل ما في اللغة السريانية منها الى اللغة العربية [١] .

وأعان على أمر الترجمة أنه نقلت عدة من الأسرى الى العواصم الاسلامية فصار ذلك سبباً لانتقال كثير من آراء الرومان والفرس الى المجتمع الاسلامي وانتشارها بينهم ولا شك أن بين تلك المعارف ما كان يضاد مباديء الاسلام وأسسه وكان بين المسلمين من لم يتدرع في مقابلها ومنهم من لم يتورع في أخذ الفاسد منها .

فأصبحوا مغمورين في هذه التيارات نظراء ابن أبي العوجاء وحماد بن عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن اياس ، وعبدالله بن المقفع ، فهؤلاء وأمثالهم بين غير متدرع وغير متورع ، اهتموا بنشر الالحاد بين المسلمين وترجمة كتب الملاحدة والثنوية من الروم والفرس الى أن عاد بعض المتفكرين غير مسلمين للاسلام الابالقواعد الأساسية كالتوحيد والنبوة والمعاد وكانوا ينشرون آرائهم علناً ويهاجمون بها عقائد المؤمنين [٢] .

نحن نرى في التراث اليوناني بفضل التراجم التي وصلت الينا أبحاثاً حول علمه سبحانه وارادته وقدرته وأفعاله حتى مسألة الجبر والاختيار، وقد كان لتلك الاراء تأثيراً عميقاً على عقول المسلمين وهم بين متدرع بالحضارة الاسلامية يكافح الشبه ويميز الصحيح من الفاسد وبين ضعيف في التعقل والتفكر ليس له من الشأن الا الأخذ ، فصارت

١ . الكامل لابن الاثير : ج ٥ ص ٢٩٤ حوادث سنة ٢٤٠ .

٢ . المصدر السابق : ص ١١٣ .

تلك الاراء من مبادىء تكون الفرق واختلاق النحل .

دور أهل البيت في عصر الترجمة

وفي هـذا الجو المشحون بالاراء والعقائد الصحيحـة وغير الصحيحة، قام أهل البيت بتربية جموع غفيرة من ذوي الاستعداد على المباديء الأصيلة والمفاهيم الاسلامية وتعريفهم بالاصول الدينية المستقاة من الكتاب والسنة والعقل ، وصاروا يناظرون كل فرقة ونحلة بمافيهم الملاحدة والثنوية بأمتن البراهين وأسلمها .

وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة منهم ، كهشام بن الحكم ، وأبي جعفر مؤمـن الطاق ، وجابر بن يزيد ، وأبان بـن تغلب البكري ويونس بن عبدالرحمن ، وفضال بن الحسن بن فضال ، ومحمد بن خليل السكاك ، وأبو مالك الضحاك ، وآل نوبخت جميعاً ، الى غير ذلك ممـن برع في علم الكلام . وناظر الفرق بين مـن تلمذ على على الائمة ، أو من تلمذ على خريجي مذهبهم ، وتواصلت حلقـات مناظراتهم حتى القرون المتـأخرة وألفت كتب في العقائـد والكلام والملل والنحل، يقف القاري على تاريخهم في كتب الرجال والتراجم وقد حفظ الكثير من متون هذه المناظرات والاحتجاجات لحدالان .

كمـا قامت المعتزلة بمقاومة هذه التيارات الالحادية والثنوية وبازالة الشبه بفضل الاصول القرآنية والعقلية ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً وان لم يكونوا ناجحين في كل ما هوالحق من الاصول

والفروع الاسلامية .

وبما أن أهل الحديث لا يحسنون طريقة المعتزلة في الاحتجاج والبرهنة ، لذا كانوا يعادونهم ،كما أن الملاحدة والثنوية كانوا يعادونهم أيضاً، لمايجدون فيهم منقوة التفكيروالقدرة علىالاحتجاج والمناظرة . وعلى ذلك فقد وقعت المعتزلة بين عدوين : أحدهما من الداخل ، وهم أهل الحديث ، والاخر من الخارج ، وهم الملاحدة والثنوية .

نعم كان بين المسلمين من يأبى الخوض في المسائل العقلية ويكتفي بما وصل اليه من الصحابة ، ويقتصر على ما حصل عليه من الدين بالضرورة وهم الحشوية من أهل الحديث وأكثر الحنابلة وقبل الخوض في بيان عقائد تلك الفرقة ، نعطف عنان البحث الى بيان بعض المصطلحات التي تكثردورانها فيالكتب الكلامية والملل والنحل .

الفصل الرابع

معنى القدرية والمعتزلة والرافضة

١ ـ القدرية

قد تداول استعمال لفظ القدرية في علمي الملل والكلام، فأصحاب الحديث كامام الحنابلة ومتكلمي الأشاعرة يطلقونها ويريدون منها « نفاة القدر ومنكريه » بينما تستعملها المعتزلة في مثبتي القدر والمقرين به ، وكل من الطائفتين يفر من الوصمة بها ويتنفر منها نفرة المزكوم من المسك ، وذلك لما روي أبو داود في سننه ، والترمذي في صحيحه ، روايات في ذم القدرية والقدح فيهم . واليك بيانها :

١ ـ عبدالله بن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : القدرية مجوس هذه الأمة ، ان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم .

٢ ـ عبدالله بن عباس : أن النبي قال : لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم .

٣ ـ عبدالله بن عباس : قال رسول الله : صنفان من أمتي ليس

لهم في الاسلام نصيب : المرجئة والقدرية [١] .

ولأجل هذه الروايات يتهم كل من الطائفتين ، الأخرى بالقدرية لينزه نفسه من ذلك العار والشنار .

ولا يخفى أن متن الحديث يعرب عن كونه موضوعاً على النبي الأكرم ، خصوصاً الحديث الأخير فقد جاء فيه : المرجئة والقدرية معاً ، اذ أن هذين المصطلحين برزا بين المسلمين في النصف الثاني من القرن الأول عند ما اتهم معبد الجهني ، وتلميذه غيلان الدمشقي بالقدر والأرجاء ، وذاع هذان الاصطلاحان بين المسلمين الى الان ومن البعيد وجودهما في زمن الرسول الأعظم وشيوعهما في ذلك العصر ، وعند ذلك كيف يتكلم الرسول بكلمات بعيدة عن أذهان أصحابه ، وغريبة على مخاطبيه . كل ذلك يثير الشك أو سوء الظن بوضع هذه الأحاديث ودسها بين المسلمين ، حتى يتسنن لكل من الطائفتين ، التعيير بالأخرى والنيل من كرامتها . وما ذكرناه من التشكيك وان كان لا يخرج عن دائرة الاستحسان ، غير أن وقوع الضعاف في أسنادها يؤيد ذلك التشكيك ويقويه .

أما الحديث الأول فقد أورده في الموضوعات وتعقبه السيوطي وفي سنده جعفر بن الحارث، فقد قال الحافظ أبوحاتم الرازي: ليس

١ . جامع الاصول : ج ١٠ ص ٥٢٦ ، راجع سنن أبي داود : ج ٤ باب في القدر ص ٢٢٢ الحديث ٦٤٩١ و٦٤٩٢ ، وسنن الترمذي : ج ٤ كتاب القدر باب ١٣ الحديث ٢١٤٩ .

حديثه بشيء [١] .

وقال الحافظ سراج الدين القزويني: أنه موضوع وتعقبه الحافظ ابن حجر. وقال المنذري هذا منقطع ، لأن سلمة بن دينار الوارد في سند الحديث ، الراوي عن عبدالله بن عمر ، لم يدرك المروي عنه .

وأما الحديث الثاني ، ففي أسناده حكيم بن شريك الهذلي مجهول . قال أبو حاتم الرازي : حكيم بن شريك الهذلي الصدفي مصري ، روى عن يحيى بن ميمون الحضرمي ، روى عنه عطاء بن دينار ، سمعت أبي يقول ذلك [٢] .

وأما الحديث الثالث ، ففي سنده علي بن نزار وأبوه ، قال أبوحاتم : روى عن أبيه عن عكرمة ، روى عنه محمد بن بشر العبدي ونقل عن يحيى بن معين أنه قال : ليس حديثه بشيء [٣] .

هذا حال رجال الحديث ، ولا يمكن الاحتجاج بأحاديث هذا شأنها، وعلى فرض صحتها فالصحيح تفسير القدرية بمعنى مثبتي القدر والحاكمين به ، لانفاته . فان تلك الكلمة كاشباهها من العدلية وغيرها تطلق ويراد منها مثبت مبادئها ، أعني : العدل ، لانفاته . واطلاق تلك الكلمة وارادة النفي منها ، من غرائب الاستعمالات .

نعم أخرج أبوداود في سننه ، عن حذيفة اليماني قال، قال رسول

١ . الجرح والتعديل : ج ٢ ص ٤٧٦ .
٢ . الجرح والتعديل : ج ٣ ص ٢٠٥ .
٣ . سنن أبي داود : ج ٤ ص ٢٢٢ ح ٤٦٩٢ .

الله : لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لاقدر [١] .

وهذا الحديث على فرض صحته يمكن أن يكون قرينة على تفسير القدرية ويكشف عن أن ذلك الاستعمال البعيد عن الأذهان ؛ كان مقروناً بالقرينة . ولكن الاحتجاج بالحديث غير تام ؛ اذ فى اسناده عمر مولى غفره ، عن رجل من الأنصار ، عن حذيفة ، فالراوي والمروي مجهولان [٢] .

وبعد ذلك كله ، ففقه الحديث يقتضي أن نقول : ان المراد من القدرية هم مثبتوها ، لانفاتها ، بقرينة تشبيههم بالمجوس ، فان المجوس معروفة بالثنوية ، وأن خالق الخير غير خالق الشر ، ومبدع النور غير مبدع الظلمة ، وأن هناك الهين قادرين في أرض واحدة ، يستقل كل فى مجاله الخاص ، حسب ما يناسب ذاته .

والقائل بالقدر يحكم القدر على أفعاله سبحانه وأفعال عباده فكأن التقدير ، الله قادر حاكم على أفعال الله وأفعالهم ، فاذا قدر شيئاً وقضى ، لا يمكن له نقض قضائه وقدره ، بل يجب عليهما أن يصيرا حسب ما قدر ، فالفواعل على هذا المعنى ـ سواء كانت شاعرة عالمة أو غير شاعرة وعالمة بذاتها وأفعالها ، أولا ـ مسيرون لامخيرون ، لأجل حكومة القدر وسيادته وحرية عبيده ، فاي اله أعلى وأسمى من القدر بهذا المعنى . فصح تشبيه القدرية ـ بهذا المعنى ـ

١ . الجرح والتعديل : ج ٦ ص ٢٠٧ .

٢ . الجرح والتعديل : ج ٦ ص ١٤٣ .

بالمجوس القائلين بالثنوية وتعدد الاله .

وأما نفاة القدر الذين يقولون لا قدر ولا قضاء بل لله الحكم في أوله وآخره ، وأن عباده مخيرون في أعمالهم وأفعالهم ، فهم أشبه بالموحدين من القائلين بالقدر بالمعنى السابق الذكر .

نعم يمكن تقريب كون النفاة بحكم المجوس ببيان آخر وهو : أن تلك الفرقة يعتقدون بالتفويض ، وأن الانسان مفوض اليه في فعله مستقل في عمله وكل ما يقوم به . فعند ذلك يكون الانسان فاعلا مستقلا غير محتاج اليه في فعله ، الى خالقه وبارئه . ويصير نداً سبحانه وتعالى فكما هو مستقل في خلقه فذاك أيضاً مستقل في عمله .

وهذا الاعتقاد يشبه قول الثنوية : من الاعتقاد بخالقين مستقلين: خالق النور وخالق الظلمة . وفي مورد البحث تعتقد نفاة القدر بخالقين : الله سبحانه وتعالى بالنسبة الى ما سواه غير أفعال الانسان والانسان في مجال أفعاله وأعماله . فلكل مجال خاص. وهذا الاعتقاد يخالف التوحيد في الخالقية والفاعلية ، وأنه ليس هنا الا خالق واحد ، كما أنه ليس هنا فاعل مستقل . فكل ما في الوجود من الآثار مع استناده الى مبادئها ومؤثراتها، مستند الى الله سبحانه. وسيوافيك توضيحه عند البحث في القضاء والقدر .

ولا يخفى ما في هذا الوجه من الوهن ، لأن الحديث يركز على كونهم بمنزلة المجوس ، لأجل كونهم نافين بالقدر ، لا بملاك كونهم قائلين بالتفويض ، وأن الانسان بعد الوجود ، مفوض اليه

فعله وعمله ، ولا صلة لفعله الى الله سبحانه بوجه من الوجوه. وقولهم بالتفويض وان كان يصحح ذلك ، لكنه ليس مذكوراً في الحديث. فالحق تفسير الحديث: بالقائلين بالقدر والمثبتين له على الوجه الذي عرفت ، لا بنفاته .

وبذلك ظهر فساد تفسير الحديث : بأن المراد من القدرية هم القائلون بالقدرة الانسانية ومشيئتها في مقابل القدرة الالهية ومشيئتها فأشبه القائلون بالقدرتين ، بالمجوس القائلة بالالهين . فمن قال بأن الانسان مختار ومخير اعتماداً على قدرته ومشيئته، فهو مجوس بخلاف من قال بأنه مجبور مسير، اعتماداً على قدرة الله ومشيئته، فهو موحد.

وجه الفساد ـ مضافاً الى فساده جوهراً ـ أن هذا التفسير لا يوافق قوله : الذين قالوا لا قدر ، اذ على ذاك التفسير يجب أن يقول : الذين يقولون بوجود القدر ، أي القدرة والمشيئة الانسانية ، وأنه قادر على أن يفعل وأن لا يفعل .

وهنا نكتة يجب التنبيه عليها وهي أنه لا شك أن لله سبحانه قضاءاً وقدراً ، وأنه لا يمكن للمؤمن العارف بالكتاب والسنة انكار ذلك ، وقد قال سبحانه : « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ـ الحديد: ٣٢» وقال سبحانه: « انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ـ الدخان : ٤ ـ ٢ » .

وهذه الايات والأحاديث المتضافرة التي نقلها أصحاب الحديث

لايترك منتدحاً لمسلم أن ينكر القضاء والقدر. لكن الكلام في تفسيرهما وتحديد معناهما ، بحيث لايضاد ولا يخالف حاكمية الله واختياره أولا، ولايزاحم حرية الانسان وارادته ثانياً. اذ كما أن القدر والقضاء من الامور اليقينية ، فكذا حاكميته سبحانه واختياره ، وحرية العبد وارادته من الأمور اليقينية أيضاً . فسوف يوافيك أن معنى القضاء والقدر الثابتين في الشرع ، ليس كما تصوره أصحاب الحديث والأشاعرة : من تحكيم القدر على اختياره سبحانه ، وارادة عباده . ولأجل كون المقام من مزالى الاقدام ، نهى الامام امير المؤمنين البسطاء عن الخوض في القضاء والقدر فقال: طريق مظلم فلاتسلكوه وبحر عميق فلاتلجوه، وسر الله فلا تتكلفوه .[1] ولكن كلامه عليه السلام متوجه الى البسطاء من الامة الذين لايتحملون المعارف العليا، لاالى أهل المعرفة والنظر. ولاجل ذلك وردت جمل شافية في القضاء والقدر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وسيوافيك شطر منها عند عرض مذهب أهل الحديث في هذا الموقف .

٢ ـ الاعتزال والمعتزلة

المعتزلة : طائفة من العدلية نشأت في أوليات القرن الثاني يرجع أصلها الى واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري، ولهم منهج

١ . نهج البلاغة للشيخ محمد عبده : قسم الحكم ، رقم ٢٨٧ .

كلامي خاص وأصول معينة اتفقوا عليها ، وسوف نرجع الى دراسة مذهبهم بعد الفراغ من دراسة مذهب أهل الحديث أولا ، والأشاعرة ثانياً ، غير أن الذي نركز عليه هنا هو الوقوف على وجه تسميتهم بالمعتزلة تارة ، ووصف مدرستهم بالاعتزال اخرى، وهناك آراء نشير اليها :

الف ـ دخل واحد على الحسن البصري (المتوفى عام ١١٠) فقال : يا امام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لاتضر مع الايمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الايمان ، ولايضر مع الايمان معصية، كما لاينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟

فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب ، قال واصل بن عطاء (تلميذه) : أنا لا أقول ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر .

ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد ، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة [٢] .

وقد كان لمسألة مرتكب الكبائر دوي عظيم في تلك الأعصار

١ . الملل والنحل للشهرستاني : ج ١ ص ٤٨ .

وقد أحدثه الخوارج في البيئات الاسلامية تعييراً بعلي عليه السلام حيث انه بزعمهم ارتكب الكبيرة فحكم الرجال في أمر الدين، وليس للرجال شأن في هذا المجال ، فعادوا يكفرونه حسب معاييرهم الباطلة . ولأجل ذلك انتشر السؤال عن حكم مرتكب الكبيرة ، هل هو كافر أو مؤمن فاسق ؟ فالتجأ واصل بن عطاء الى القول بالمنزلة بين المنزلتين .

وظاهر الرواية ، أن واصل بن عطاء أجاب عن السؤال ارتجالا وبلا ترو ، غير أنا نرى أن المعتزلة اتخذوه أصلا من الأصول الخمسة التي لا يختلف فيها أحد منهم ، فيبدو أنه وصل الى تلك النظرية عن تحقيق وتفكير وتبعه أصحابه طوال قرون من دون أن يكون هناك حافز سياسي أو داع غير ارائة الحق واصابة الواقع .

ومع ذلك كله نرى عبدالرحمن بدوي يعتبر تلك الفكرة منهم فكرة سياسة اتخذوها ذريعة على ألا ينصروا أحد الفريقين المتنازعين (أهل السنة والخوارج) حيث قال: وانما اختار المعتزلة الأولون هذا الاسم ، أو على الأقل تقبلوه ، بمعنى المحايدين أو الذين لاينصرون أحد الفريقين المتنازعين (أهل السنة والخوارج) على الاخر في المسألة السياسية الدينية الخطيرة : مسألة الفاسق ما هو حكمه ؟

هل هو كافر مخلد في النار كما يقول الخوارج ، أو هو مؤمن يعاقب على الكبيرة بقدرها كما يقول أهل السنة ، أو هو في منزلة

بين المنزلتين وهو ما سيقول به المعتزلة [١] .

ب ـ وهناك رأيان في وجه تسميتهم بها، يظهر من أبي الحسين محمد بن أحمد بن عبدالرحمن الملطي الشافعي (المتوفى عام ٣٣٧) حيث يقول : وهم سموا أنفسهم معتزلة وذلك عند ما بايع الحسن ابن علي عليه السلام ، معاوية ، وسلم اليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس، وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي ، ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا : نشتغل بالعلم والعبادة . فسموا بذلك معتزلة [٢] .

وهذا الرأي قريب من جهة ، فلأن المعتزلة أخذوا تعاليمهم في التوحيد والعدل ، عن الامام علي بن أبي طالب عليه السلام لأنهم يقرون بأن مذهبهم يصل الى واصل بن عطاء ، وأن واصلا يستند الى محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام « الحنفية » وابنه أبي هاشم وأن محمداً أخذ عن أبيه ، وأن علياً أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٣] .

وعلى ذلك فليس ببعيد أن يرجع وجه التسمية الى زمن تصالح الامام الحسن عليه السلام مع معاوية .

١ . مذاهب الاسلاميين للدكتور عبدالرحمن بدوى : ج ١ ص ٣٧ .

٢ . التنبيه والرد : ص ٣٦ .

٣ . رسائل الجاحظ تحقيق عمر ابوالنصر : ص ٢٢٨ ، وغيره مما كتب فى تاريخ المعتزلة كطبقات المعتزلة ، والمنية والامل لاحمد بن يحيى بن المرتضى .

ويمكن أن يقال : ان هنا طائفتين سميتا بالمعتزلة ، لاصلة بينهما سوى الاشتراك في الاسم، ظهرت احداهما بعد تصالح الامام الحسن ابن علي عليهما السلام مع معاوية، وهؤلاء طائفة سياسية بحتة. وطلعت الاخرى في زمن الحسن البصري بعد اعتزال واصل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد ، وهؤلاء طائفة كلامية عقائدية .

ج ـ وهناك رأي ثالث وهو أن الرأي السائد حسب ميول الخلفاء بين الناس ، هو العقائد المنسوبة الى أهل الحديث . فلما وجد بين المسلمين أهل الفكر والتحقيق في المسائل العقائدية وكانت نتيجة تفكراتهم مخالفاً للرأي السائد بين حملة الحديث خصوصاً فيما يرجع الى القضاء والقدر وحرية الانسان وغير ذلك ، أخذت تلك الطائفة تعتزل عنهم وصاروا منشقين عن أهل السنة والجماعة . فلأجل ذلك وصفهم خصمائهم بالاعتزال والمعتزلة ، وبقي ذلك الاسم عليهم الى أن انقرضوا ، كما سيوافيك بيانه .

ولو أخذنا بهذا الرأي ، فللاعتزال جذور قبل أن يولد واصل ابن عطاء بكثير فان واصل كان قد ولد عام ٨٠ ، والبحث في مسائل القضاء والقدر وحرية الانسان كان موجوداً في عصر علي عليه السلام وبعده في عصر معاوية . وسيوافيك اختلاف القول في هذه المسائل أيام الخلفاء وبعدهم ان شاء الله تعالى .

٣ ـ الرفض والرافضة ووجه التسمية

الرفض : بمعنى الترك . قال ابن منظور في اللسان : الرفض تركك الشيء ، تقول رفضتني فرفضته ، رفضت الشيء أرفضه رفضاً: تركته وفرقته ، والرفض : الشيء المفترض والجمع : أرفاض .

هذا هو المعنى اللغوي وأما حسب الاصطلاح في الأعصار المتأخرة فهو يطلق على مطلق محبي أهل البيت تارة ، أو على شيعتهم جميعاً اخرى ، أو على طائفة خاصة منهم ثالثة وعلى كل تقدير فهذا الاصطلاح اصطلاح سياسي أطلق على هذه الطائفة . انما الكلام في وجه التسمية ومبدء نشوئها ، نرى ابن منظور يقول في وجه التسمية: الروافض : جنود تركوا قائدهم وانصرفوا ، فكل طائفة منهم رافضة والنسبة اليهم رافضي ، والروافض قوم من الشيعة سموا بذلك لأنهم تركوا زيد بن على، قال الأصمعي : كانوا قد بايعوا زيد بن علي ثم قالوا له : ابرء من الشيخين نقاتل معك فأبى وقال : كانا وزيرى جدي فلا ابرء منهما فرفضوه وارفضوا عنه فسموا رافضة ، وقالوا الروافض ولم يقولوا الرفاض لأنهم عنوا الجماعات [1] .

غير أن ابن منظور، وان اصاب الحق في صدر كلامه وجعل اللفظ معنى وسيعاً يطلق على المسلم والكافر، والمسلم شيعيه وسنيه لكنه استشهد على وجه تسمية شيعة علي عليه السلام بها بقول الأصمعي، وهو منحرف

١ . لسان العرب : ج ٧ ص ١٥٧ مادة رفض .

عن علي وشيعته فكيف يمكن الاعتماد على قوله، خصوصاً اذا تضمن تنقيصاً وازراءاً بهم ، وليس ذلك بدعاً من ابن منظور وأضرابه ، بل هو مطرد في كل مورد يستشهدون بشيء فيه وقيعة للشيعة . فترى هناك أثراً من مطعون الى منحرف الى ناصبي الى خارجي « وفي كل واد أثر من ثعلبة » وعلى أى تقدير هذه الفكرة هي المعروفة بين أرباب الملل في تسمية شيعة الامام بالرافضة ، ونداء محبيه بالرفضة .

يقول البغدادي في الفرق عند البحث عن الزيدية : وكان زيد ابن علي قد بايعه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة وخرج بهم على والي العراق وهو يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام بن عبدالملك فلما استمر القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفي قالوا له : انا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر ، بعد أن ظلما جدك علي بن أبي طالب . فقال زيد بن علي : لا أقول فيهم الا خيراً وما سمعت من أبي فيهم الا خيراً . وانما خرجت على بني أمية الذين قتلوا جدي الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم وقعة الحرة ، ثم رموا بيت الله بالمنجنيق والنار . ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم : رفضتموني ومن يومئذ سموا رافضة .

قال القاضي البزودي أحد علماء الكلام في الفرق عند البحث عن مذهب الروافض : وانما سموا روافض ، لأنهم وقعوا في أبي بكر وعمر فزجرهم زيد فرفضوه وتركوه فسموا روافض .

هذا ما لدى القوم من أولهم وآخرهم ، فقد أخذوا بقول الأصمعي

الناصبي في وجه التسمية ومن كف كفه .

نظرنا فى الموضوع

لا أظن الأصمعي وهو خبير في اللغة يجهل بحقيقة الحال ولكن عدائه جره الى هذا التفسير ، فان الحق أن الرافضة كلمة سياسية كانت تستعمل قبل أن يولد زيد بن على ومن بايعه من أهل الكوفة ، فالكلمة يطلق على كل جماعة لم تقبل الحكومة القائمة ، سواء أكانت حقاً أو باطلا . هذا هو معاوية بن أبي سفيان يصف شيعة عثمان ـ الذين لم يخضعوا لحكومة علي بن أبي طالب عليه السلام وسلطته ـ بالرافضة ويكتب فى كتابه الى عمرو بن العاص وهو في البيع في فلسطين : أما بعد فانه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك ، وقد سقط الينا [١] مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبدالله في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني أقبل اذا كرك أمراً [٢] .

ترى أن معاوية يصف من جاء مع مروان بن الحكم بالرافضة وهؤلاء كانوا أعداء علي ومخالفيه ، وما هذا الا لأن هؤلاء الجماعة كانوا غير خاضعين للحكومة القائمة آنذاك . وعلى ذلك فتلك لفظة سياسية تطلق على القاعدين عن نصرة الحكومة ، والالتفاف حولها

١ . سقط الينا : نزل الينا .

٢ . وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقرى المتوفى سنة ٢١٢ : ص ٢٩ .

وبما أنه كان من واجب هذه الجماعة، البيعة للحكومة والمعاملة معها معاملة الحكومة الحقة ، ولكنهم لم يقوموا بواجبهم فتركوه فتفرقوا عنها ، فسموا رافضة .

فقد خرجنا بهذه النتيجة أن كلمة الرفض والرافضة ليستا من خصائص الشيعة ، بل هي لغة عامة تستعمل في كل جماعة غير خاضعة للحكومة القائمة ، وبما أن الشيعة منذ تكونها لم تخضع للحكومات القائمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت رافضة حسب الاصطلاح الذي عرفت ، ولم يكن ذلك الاصطلاح موهوباً من زيد ابن على لشيعة جده كيف وقد كان ذلك المصطلح موجوداً في لسان أخيه محمد الباقر عليه السلام الذي توفى قبل زيد بن علي وثورته بست سنوات .

روى ابو الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام : أن رجلا يقول ان فلاناً سمانا باسم ، قال وما ذاك الاسم؟ قال: سمانا الرافضة فقال أبو جعفر ـ مشيراً بيده الى صدره ـ وأنا من الرافضة وهومني . قالها ثلاثاً [1] .

روى أبو بصير فقال قلت لأبي جعفر عليه السلام جعلت فداك اسم سمينا به استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا ، قال وما هو؟ قال الرافضة ، فقال أبو جعفر عليه السلام ان سبعين رجلا من عسكر

١ . بحار الانوار : ج ٦٥ ص ٩٧ الحديث ٢ نقلا عن المحاسن للبرقي ، المتوفى عام ٢٧٤ .

فرعون رفضوا فرعون فأتوا موسى عليه السلام فلم يكن في قوم موسى أحد أشد اجتهاداً وأشد حباً لهارون منهم ، فسماهم قوم موسى الرافضة [١] .

وهذه التعابير عن أبي جعفر باقر العلوم عليه السلام أصدق شاهد على أن مصطلح الرفض ليس وليد فكرة زيد « وأجله عن هذه النسبة والفكرة » بل هو كان مصطلحاً سائداً في أقوام ، فكل من لم يخضع للحاكم القائم ، والحكومة السائدة وصار يعيش بلا امام ولا حاكم سمي رافضياً والجماعة رافضة أو « رفضة » .

وعن معاذ بن سعيد الحميري قال: شهد السيد اسماعيل بن محمد الحميرى رحمه الله ، عند سوار القاضي بشهادة فقال له : ألست اسماعيل بن محمد الذي يعرف بالسيد ؟ فقال : نعم . فقال له : كيف اقدمت على الشهادة عندي ، وأنا اعرف عداوتك للسلف ؟ فقال السيد: قد أعاذني الله من عداوة أولياء الله ، وانما هو شيء لزمني . ثم نهض فقال له : قم يا رافضي فوالله ما شهدت بحق فخرج السيد رحمه الله وهو يقول :

ابوك ابن سارق عنز النبي وأنت ابن بنت أبي جحدر
ونحن رغمك الرافضو ن لاهل الضلالة والمنكر [٢]

١ . بحار الانوار : ج ٦٥ ص ٩٧ الحديث ٣ .
٢ . الغدير : ج ٢ ص ٢٥٦ طبع بيروت .

وروى أنه كان عبدالملك بن مروان لما سمع هذا من الفرزدق قال له : أورافضي أيضاً أنت ؟ فقال الفرزدق : انكان حب آل محمد رفضاً فأنا هذاك [١] .

١ . أمالي السيد المرتضى : ج ١ ص ٦٨ في التعليق .

الفصل الخامس

أهل الحديث والحنابلة

١ ـ نظرة الى كتابين لأهل الحديث « التوحيد » و « السنة »

٢ ـ أصول عقائد أهل الحديث

١ ـ نظرة الى كتابين لاهل الحديث « التوحيد » و« السنة »

* التجسيم والتشبيه
* الجبر والقدر
* محاولتهم لتصحيح هذه الاحاديث

الحديث النبوي حجة الهية كالقرآن الكريم ولا يعدل المسلم المؤمن عنهما الى غيرهما ، فالكتاب معجزة خالدة واللفظ والمعنى منه سبحانه . وأما السنة فلفظها للنبي صلي الله عليه وآله والمفاد والمضمون منه سبحانه ، فلا فرق بين قوله تعالى : « فأصلحوا بين أخويكم ـ الحجرات : ١٠ » وقوله صلى الله عليه وآله : « الصلح جائز بين المسلمين » [١] كما لا فرق بين قوله سبحانه : « فتيمموا صعيداً طيباً ـ المائدة : ٦ » وقوله صلى الله عليه وآله : « التراب أحد الطهورين يكفيك عشر سنين » [٢] .

فالمسلم المؤمن بالله وكتابه ورسالة نبيه لايفرق بين كتابه تعالى وكلامه صلى الله عليه وآله ، بين قوله وفعله ، بين اشارته وتقريره فالكل حجة الهية يجب العمل على وفقه ولا يكون المسلم مسلماً الا اذا استسلم في هذه المجالات كلها. قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم ـ

١ . التاج الجامع للاصول: ج ٢ ص ٢٠٢، رواه الترمذى وأبوداود والبخارى.
٢ . سنن الترمذى : ج ١ ص ٢١٢ باب ما جاء فى التيمم للجنب .

الحجرات : ١ » .

ان للحديث النبوي من جلال الشأن وعلو القدر ما لا يختلف فيه اثنان ، ولا يحتاج في اثباته الى برهان ، اذ هي الدعامة الثانية ـ بعد الذكر الحكيم ـ للدين والأخلاق ، والحكم والاداب ، مما يتمتع به المسلمون في دينهم ودنياهم .

وهذه المكانة الجليلة والمنزلة الرفيعة ، تقتضي مزيد العناية بها ودراستها بأحسن الأساليب العلمية والمنطقية، حتى يتميز الصحيح من الزائف ولا ينسب اليه كل ما يحمل اسم الحديث والسنة ، أو كل ما يوجد في بطون الكتب وضمائر الأسفار ، معقولا كان أو غير معقول ، مخالفاً كان للقرآن أولا .

ان قوله صلى الله عليه وآله : من كذب علي متعمداً فليتبوء مقعده من النار . اخطار أكيد للواعين بأن أعداء الدين لبالمرصاد وسوف ينسبون اليه كل مغسول من البلاغة ، وعار عن الفصاحة وينقلون منه كل معنى سقيم على الفطرة أو مضاد للعقل السليم ، الذي به عرفناه سبحانه وعرفنا براهين رسالة رسوله . وقد دق رسول الله صلى الله عليه وآله بكلامه هذا ناقوس الخطر للأمة لا سيما للوعاة منهم وحفاظ أحاديثه حتى لايتخيلوا أن كل ما يصل اليهم باسم الحديث على حقيقته ، بألفاظه ومعانيه وليس قبول كل حديث ـ ولو كان فيه ما فيه ـ بشارة التسليم لله وللرسول ، وآية عدم التقدم عنهما في ميادين الأصول والفروع .

ويتضح ذلك أشد الوضوح اذا وقفت على ما تلوناه عليك من أن الحديث النبوي رزء بالموضوعات التي تولى كبرها أعداء الدين والاسلام أولا ، وتجرة الحديث ثانياً ، يضعون الأحاديث تزلفاً الى الحكام وتقرباً منهم .

هذا أبو هريرة أكثر الصحابة رواية عن رسول الله مع أنه لم يصاحب النبى صلى الله عليه وآله الا سنتين أوأقل منهما جاء بروايات فيها طامات وغرائب بقيت على مرالدهر، وقد اتعب شراح الصحاح والمسانيد انفسهم الزكية لحلها وتوجيهها . غير أن المتحري للحقيقة ومن يرى أن الحق أولى من الصحابة والصحابي، يرى في أحاديثه آثار الوضع والدس والاختلاق بما لا مجال في المقام لذكرها [1] .

وقد أتينا في بعض الفصول السابقة بالمامة توقفك على مأساة نقل الحديث والتحدث به وكتابته ونشره بين الأمة ، وتعرفت على أن ترك الكتابة بل ترك كثرة التحدث كان فضيلة ، وخلافه بدعة . ولكن الظروف والأحوال ألجأت المسلمين االى الكتابة والتدوين ونشره في أواخر النصف الأول من القرن الثاني .

ولأجل ذلك صار العثور على الحديث الصحيح الذي حدث به رسول الله صلى الله عليه وآله أمراً صعباً لما مرمن دس الدساسين ووضع الوضاعين تزلفاً الى أصحاب السلطة والعروش وغيرذلك من

١ . لاحظ فى الوقوف على قيمة أحاديث أبى هريرة كتاب « أبو هريرة شيخ المضيرة » للعلامة المصرى الشيخ محمود أبورية .

دواعي الجعل .

غير أن الأحاديث والمأثورات المروية في كتب الحديث، أخذت لنفسها بعد التدوين مقاماً عالياً ، وأضيفت اليها آراء الصحابة وأقوال التابعين فصار الجميع هو الأصل الأصيل في تنظيم العقائد وتشريع الأحكام سواء أكان موافقاً للقرآن أم مخالفاً، كان موافقاً للعقل السليم أم مخالفاً له وقد بلغ التحجر بهم الى حد قالوا :

١ ـ ان السنة لا تنسخ بالقرآن ، ولكن السنة تنسخ القرآن وتقضي عليه ، والقرآن لا ينسخ السنة ولا يقضي عليها [١] .

٢ ـ ان القرآن أحوج الى السنة من السنة الى القرآن [٢] .

٣ ـ ان القول بعرض الأحاديث على الكتاب قول وضعه الزنادقة [٣]

فبلغ بهم التقليد الى حد يأخذون بظواهر كل ما رواه الرواة من الأخبار والاثار الموقوفة والمرفوعة ، والموضوعة والمصنوعة وان كانت شاذة أو منكرة أو غريبة المتن أو من الاسرائيليات مثل ما روي عن كعب ووهب و . . . أو معارضة بالقطعيات التي تعد من نصوص الشرع ومدركات الحس ويقينيات العقل ويكفرون من أنكرها ويفسقون من خالفها . . . [٤] .

١ . مقالات الاسلاميين : ج ٢ ص ٢٥١ .
٢ . جامع بيان العلم : ج ٢ ص ٢٣٤ .
٣ . عون المعبود فى شرح سنن أبى داود : ج ٤ ص ٤٢٩ .
٤ . من كلام السيد رشيد رضا تلميذ الامام عبده ، لاحظ الاضواء : ص ٢٣ .

فاذا كان هذا مصير الحديث مع كونه مصدراً للعقائد والأصول فلا محالة ينجم عنه مناهج ومذاهب لا تفترق عن معتقدات اليهودية والنصرانيـة والمجوسية بكثير . فظهرت بينهم مذاهـب التجسيم والتشبيه والرؤيـة والجبر وقدم كلام الله وغيره مما سبقتهم اليه أهـل الكتاب في عهودهم القديمة والحديثه . وما هذا الا لأجل أن الأحاديث المروية صارت حجة في مفادها ودليلا في مضامينها على اطلاقها من دون نظر في اسنادها ، أودقة في معانيها من دون عرضها على الكتاب والعقل .

فاذا كان الحديث بهذا المعنى مصدراً للأصول والعقائـد ، فلا محالة تكون العقيدة الاسلامية أسيرة ما حدث عنه أصحاب الحديث في القرون الثلاثـة الأولى ، فيوجد فيها ما أوعزنا اليه من مسألـة التجسيم وأخواتها .

ويكفيك في ذلك أن تلاحظ الكتب التالية التي دونت في تلك الظروف :

١ ـ التوحيد لابن خزيمة ٢ ـ السنة لأثرم ٣ ـ النقض لعثمان ابن سعيد الدارمي ٤ ـ السنة للخلال ٥ ـ السنة أيضاً لامام الحنابلة.

فهذه الكتب مشحونه بهذه الأحاديث التي تخالف الذكر الحكيم والعقل والفطرة السليمين .

فلأجل أن يقف القاريء على بعض ما في هذه الكتب من الأحاديث المزورة التي تخالف الذكر الحكيم والعقل والفطرة نأتي بنماذج

مما ورد في الكتابين التاليين :

١ ـ السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (المتوفى عام ٢٤١) .

٢ ـ التوحيد لابن خزيمة (المولود عام ٢٢٣ والمتوفى عام ٣١١) .

وهؤلاء وان كانوا يتلون قوله سبحانه : « ليس كمثله شيء » ولكنهم يروون احاديث تثبت للرب سبحانه آلاف المثل .

نعم ، يقول ابن خزيمة : « انا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه ونقر بذلك بألسنتنا ونصدق بذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد المخلوقين . وعز ربنا عن أن نشبهه بالمخلوقين »[1].

لكن هذه العبارة اتخذها واجهة لتبرير نقل الروايات الصريحة في التجسيم والجهة . ولا تتحمل تلك الروايات هذا التأويل الذي لهج به ابن خزيمة وأبناء جلدته .

وهذا كتاب السنة لامام الحنابلة رواه عنه ابنه تجد فيه أحاديث تعرب عن أن لله سبحانه ضحكاً واصبعاً ويداً وذراعين ووجهاً، التي يتبادر منها البدع اليهودية والمسيحية .

ما نذكره ، انما هو نماذج مما ورد في الكتابين والسابر فيهما يجد أضعاف أمثاله وأكثر هذه الأحاديث اخرجت في الصحاح والسنن.

ان كتاب التوحيد لابن خزيمة قد وقع مورد القبول عند اهل

١ . التوحيد لابن خزيمة : ص ١١ .

الحديث والحنابلة . كيف ، وقد جمع الاحاديث من هنا وهناك وحشاها في كتابه من فحص ولا تنقيب ، وهذه كانت المنية الكبرى للحنابلة في تلك العصور. ولاجل ذلك صار الكتاب يقرء على العلماء والفضلاء حتى يتخذوه ميزانا لتمييز الحق عن الباطل ، ولا يتخلف احد عن الاعتراف بما جاء فيه .

قال ابن كثير في حوادث سنة ٤٦٠ هـ : « وفي يوم النصف من جمادي الاخرة قرء « الاعتقاد القادري » الذي فيه مذهب اهل السنة والانكار على اهل البدع . وقرأ ابومسلم الكجي البخاري المحدث كتاب « التوحيد » لابن خزيمة على الجماعة الحاضرين ، وذكر بمحضر من الوزير ابن جهير وجماعة الفقهاء واهل الكلام، واعترفوا بالموافقة »[١] .

هذا ، وبمرور الزمن وتفتح العقول أفلت شمس كتاب التوحيد وشطب المفكرون من الاشاعرة على ما فيه . يقول الرازي في تفسير قوله سبحانه : « ليس كمثله شيء » : « واعلم أن محمد بن اسحاق ابن خزيمة اورد استدلال اصحابنا بهذه الاية في الكتاب الذي سماه بـ « التوحيد » . وهو في الحقيقة كتاب الشرك ، واعترض عليها . وأنا اذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات لأنه كان رجلا مضطرب الكلام ، قليل الفهم ، ناقص العقل »[٢].

١ . البداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ٩٦ ، حوادث عام ٤٦٠ هـ .

٢ . تفسير الامام الرازى : ج ٢٧ ، ص ١٥٠ .

هذا، ولو أن الرازي وقف على ما في تعاليم الأشاعرة من الجبر الملتوى في مقابل الجبـر الصريح كما سيبين ، والتجسيم والتشبيه الخفيين، لما اتخذ المذهب الاشعري ـ الذي هو أحد وجهي العملة والوجه الاخر هو عقيدة اهل الحديث ـ شعارا، ولما حماهم بحماس .

يقول الدكتور احمد أمين: «وفي رأيي لو سادت تعاليم المعتزلة الى اليوم لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالي وقد أعجزهم التسليم وشلهم الجبر ، وحقد بهم التواكل »[١].

والصحيح ان يقـال لو سادتهم الحـرية في البحث والاستماع واتباع الأحسن لكان موقفهم غير هذا .

فى أن الله يضحك

١ ـ روى ابن حنبل: قال : حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد ابن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حدس، عن عمه أبي رزين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره قال : قلت : يا رسول الله أو يضحك الرب ؟ قال : نعم . قلت : لن نعدم من رب يضحك خيراً[٢].

رواه ابن خزيمة لكن بدل قوله نعم ، قال : « اي والذي نفسي بيده انه ليضحك »[٣].

١ . ضحى الاسلام : ج ٣ ، ص ٧٠ .

٢ . السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل : ص ٥٤ .

٣ . التوحيد واثبات صفات الرب، لمحمد بن اسحاق بن خزيمة : ص ٢٣٥.

٢ ـ روى عبدالله بن أحمد بن حنبل ، عن اسماعيل أبي معمر ، حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الاعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ضحك ربنا من رجلين يقتل أحدهما صاحبه ثم يصيران الى الجنة [١].

ورواه ابن خزيمة بأسانيد مختلفة [٢].

٣ ـ وجاء في خبر طويل رواه عن اسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة الحراني أبو أحمد قال : أملاه علينا املاء في دار كعب : قال حدثني محمد بن سلمة ، عن أبي عبدالرحمن خالد بن أبي يزيد ، حدثني زيد بن أبي أنيسة ، عن المنهال بن عمرو ، عن أبي عبيدة بن عبدالله ، عن مسروق بن الأجدع ، حدثنا عبدالله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وآله قال : . . . فيقول الله له ـ أي لمن أدخله الجنة ثم لم يزل يطلب منزلة أرفع من أخرى ـ : لن ترضى أن أعطيك مثل الدنيا مذ يوم خلقتها الى يوم أفنيتها وعشرة أضعافها ؟ فيقول : أتستهزىء بي وأنت رب العالمين ؟ .

قال : فضحك الرب من قوله . قال : فرأيت ابن مسعود اذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك ، فقال له رجل : يا أبا عبدالرحمن قد سمعتك تحدث هذا الحديث مراراً كلما بلغت هذا المكان من الحديث ضحكت . فقال ابن مسعود : اني سمعت رسول

١ . السنة : ص ١٦٦ .

٢ . التوحيد : ص ٢٣٤ .

الله صلى الله عليه وآله يحدث بهذا الحديث مراراً ، كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو آخر أضراسه، الحديث[١].

ورواه ابن خزيمة عن ابن مسعود [٢] وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

٤ ـ وروى ابن خزيمة بأسانيد متعددة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : يتجلى لنا ربنا عزوجل يوم القيامة ضاحكاً [٣].

قال ابن خزيمة : باب ذكر اثبات ضحك ربنا عز وجل : بلا صفة تصف ضحكه ـ جل ثناؤه ـ لا ولايشبه ضحكه بضحك المخلوقين وضحكهم كذلك . بل نؤمن بأنه يضحك كما أعلم النبي صلى الله عليه وآله ونسكت عن صفة ضحكه جل وعلا، اذ الله عزوجل استأثر بصفة ضحكه لم يطلعنا على ذلك . فنحن قائلون بما قال النبي صلى الله عليه وآله مصدقون بذلك بقلوبنا منصتون عما لم يبين لنا ، مما استأثر الله تعالى بعلمه [٤] .

وقد عرفت ما في تأويله من الوهن وأن هذه الأحاديث لو صحت لوجب حملها على ظواهرها من الضحك الملازم لبدو الأسنان والفم والقول بأنه يضحك ولا نعلم حقيقته تأويل بارد ، بل الامر دائر بين القبول تماماً أو الرد كذلك .

١ . السنة : ص ٢٠٨ ـ ٢٠٦ .

٢ . التوحيد : ص ٢٣١ .

٣ . التوحيد : ص ٢٣٦ .

٤ . التوحيد : ص ٢٣١ ـ ٢٣٠ .

في أن لله يداً

١ ـ قال عبدالله بن أحمد بن حنبل : قرأت على أبي ابراهيم ابن الحكم بن أبان ، حدثني أبي، عن عكرمة قال : ان الله لم يمس بيده شيئاً الا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس الجنة بيده، وكتب التوراة بيده [١] .

٢ ـ وقال : قرأت على أبي، حدثنا اسحاق بن سليمان، حدثنا أبو الجنيد ـ شيخ كان عندنا ـ عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد ابن جبير : انهم يقولون ان الألواح من ياقوتة لا أدري قال حمراء أو لا ؟ وأنا أقول سعيد بن جبير يقول : انها كانت من زمردة وكتابتها الذهب وكتبها الرحمن بيده ويسمع أهل السموات صرير القلم[٢].

٣ ـ وقال: حدثني أبي، حدثنا يزيد بن هارون الجريري ، عن أبي عطاف قال : كتب الله التوراة لموسى بيده وهو مسند ظهره الى الصخرة في الألواح من در يسمع صريف القلم ، ليس بينه وبينه الا الحجاب [٣] .

٤ ـ وقد أفرد ابن خزيمة لاثبات اليد لله صفحات كثيرة ومما رواه عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لما

١ . السنة : ص ٢٠٩ .
٢ . السنة : ص ٧٦ .
٣ . السنة : ص ٧٦ .

خلق الله الخلق كتب كتاباً وجعله تحت العرش : ان رحمتي تغلب غضبي [١] .

٥ ـ ومنها عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ان الله تعالى يفتح أبواب السماء في ثلث الليل فيبسط يديه فيقول : الا عبد يسألني فأعطيه [٢] .

٦ ـ ومنها: عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ما تصدق أحد بصدقة من طيب ـ ولا يقبل الله الا الطيب ـ الا أخذها الله بيمينه ، وان كانت مثل تمرة ، فتربوله من كف الرحمن ـ الحديث [٣] .

في أن لله عينين

استدل ابن خزيمة بما ورد من أن الله بصير، على أن له عينين . قال: نحن نقول لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى وما في السموات العلى وما بينهما من صغير وكبير . . . الى أن قال : كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه . وبنو

١ . التوحيد : ص ٥٨ .

٢ . التوحيد : ص ٥٨ . وروى ابن خزيمة أحاديث كثيرة جداً في نزول الله الى السماء الدنيا كل ليلة ص ١٣٦ ـ ١٢٥ ووصفها بأنها أخبار ثابت السند صحيح القوام .

٣ ؛ التوحيد : ص ٦١ .

آدم وان كانت لهم عيون يبصرون بها فانهم انما يرون ما قرب من أبصارهم مما لا حجاب ولا ستر بين المرئي وبين أبصارهم . . . واستطرد في ذكر نواقص عيون بني آدم ثم قال : فما الذي يشبه ـ يا ذوي الحجا ـ عين الله الموصوفة بما ذكرنا، عيون بني آدم التي وصفناها بعد [١] .

في أن لله اصبعاً

١ ـ روى عبدالله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يقول حدثنا يحيى بن سعيد بحديث سفيان ، عن الأعمش ومنصور ، عن ابراهيم ، عن عبيدة ، عن عبدالله ، عن النبي صلى الله عليه وآله : ان الله يمسك السموات على اصبع . قال أبي : وجعل يحيى يشير بأصابعه ، وأراني أبي كيف جعل يحيى يشير بأصابعه يضع اصبعاً حتى أتى على آخرها [٢] .

٢ ـ أما حديث سفيان المشار اليه فهو ما رواه باسناده عن عبدالله: أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد ان الله يمسك السموات على اصبع والأرضين على اصبع والثرى على اصبع والجبال على اصبع والخلائق على اصبع ثم يقول : أنا الملك .

١ . التوحيد : ص ٥١ .

٢ . السنة : ص ٦٣ .

فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله حتى بدت نواجذه . ثم قال : وما قدروا الله حق قدره .

ثم أضاف عبدالله بن أحمد ، قال أبي ، قال يحيى ، قال فضيل ابن عياض: فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله تعجباً وتصديقاً له .

وروى هذا الخبر وما في معناه بأسانيد مختلفة عن ابن مسعود تارة وعن ابن عباس اخرى [١] .

٣ ـ وقال حدثني أحمد بن ابراهيم سمعت وكيعاً يقول : نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول كيف كذا ، ولا لم كذا ، يعني مثل حديث ابن مسعود « ان الله يحمل السموات على اصبع والجبال على اصبع » وحديث أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « قلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن » ونحوها من الأحاديث [٢] .

وأورد أخباراً مفادها ان الله تعالى حيث تجلى للجبل فجعله دكاً انما تجلى باصبعه ، ضربه على رأس الجبل فاندك .

٤ ـ منها حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا هريم حدثنا محمد بن سواء ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وآله : « فلما تجلى ربه للجبل » قال هكذا، وأشار بطرف الخنصر يحكيه [٣] .

١ . السنة : ص ٦٤ ـ ٦٢ .

٢ . السنة : ص ٦٤ .

٣ . السنة : ص ٦٥ .

٥ ـ ومنها مـا ذكره ابن خزيمة قال : حدثنا عبد الوارث بـن عبدالصمد ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، قال : حدثنا ثابت ، عـن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لما تجلى ربه للجبل » رفع خنصره وقبض على مفصل منهـا ، فانساخ الجبل . فقال له حميد : أتحدث بهذا ؟ فقال : حدثنا أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وتقول : لا تحدث به [١] .

في أن لله كلاماً وصوتاً

١ ـ قال عبدالله بن أحمد ، حدثني أبو معمر ، حدثنا جرير ، عن الأعمش . قال : وحدثنا ابن نمير وأبو معاوية كلهم عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبدالله قال : اذا تكلم الله بالوحي ، سمع أهل السماء صلصلة كصلصلة الحديدة على الصفا [٢] .

وأخرج ابن خزيمة أخباراً كثيرة في ذلك [٣] .

في أن لله ذراعين وصدراً

١ ـ قال عبدالله بن أحمد ، حدثني سريج بن يونس ، حدثنـا سليمان بن حيـان أبو خالد الأحمر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيـه

١ . التوحيد : ص ١١٤ .
٢ . السنة : ص ٧١ .
٣ . التوحيد : ص ١٤٧ ـ ١٤٥ .

عن عبدالله بن عمرو قال: ليس شيء أكثر من الملائكة ، ان الله خلق الملائكة من نور . فذكره وأشار سريج بيده الى صدره . قال : وأشار خالد الى صدره فيقول : كن ألف ألف ألفين فيكونون [١] .

٢ ـ وقال : حدثني أبي ، حدثنا أبو أسامة حماد بن اسامة ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عبدالله بن عمرو قال : خلقت الملائكة من نور الذراعين والصدر [٢] .

٣ ـ وقال : حدثنيه أبو خيثمة زهير بن حرب ، حدثنا عبيدالله ابن موسى، حدثنا شيبان ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « ان غلظ جلد الكافر اثنان وسبعون ذراعاً بذراع الجبار وضرسه مثل ذلك » [٣] .

في أن لله نفسا

١ ـ قال عبدالله بن أحمد ، حدثني أبو معمر ، حدثنا جرير عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت ، عن ذر ، عن سعيد بن عبدالرحمن بن بزي ، عن أبيه ، عن أبي بن كعب قال : « لا تسبوا الريح فانها من نفس الرحمن » [٤] .

١ ، ٢ و٣ . السنة : ص ١٩٠ .

٤ . السنة : ص ١٩٠ .

في أن لله رجلا

١ ـ قال عبدالله بن أحمد بن حنبل ، حدثني عبيدالله بن عمر القواريري ، حدثني حرمي بن عمارة ، حدثنا شعبة عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه أو رجله عليها فتقول قط قط [١].

وبهذا فسروا آية « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ـ ص : ١٦ » .

وأخرج ابن خزيمة نحوه ، عن أبي هريرة [٢] .

٢ ـ وروى ابن خزيمة ، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : . . . وأما النار فلا تمتليء حتى يضع الله رجله فيها فتقول قط قط ، فهنالك تمتليء ـ الحديث .

وهو حديث اختصام الجنة والنار وأشار الى أنه مستفيض [٣] والاخبار في وضع الله رجله في النار كثيرة جداً .

٣ ـ روى عبدالله بن أحمد في حديث طويل تقدمت الاشارة اليه في مسألة الضحك ، عن النبي صلى الله عليه وآله قال : فيتمثل

١ . السنة : ص ١٨٤ .

٢ . التوحيد : ص ٩٢ .

٣ . التوحيد : ص ٩٥ ـ ٩٣ .

الرب فيأتيهم، فيقول لهم مالكم لاتنطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون: ان لنا الهاً ما رأيناه ، فيقول : وهل تعرفونه ان رأيتموه ؟ فيقولون : بيننا وبينه علامة اذا رأيناها عرفناه ، فيقول: ما هي؟ فيقولون: يكشف عن ساقه . قال فعند ذاك يكشف الله عن ساقه . قال فيخر كل من كان نظره ، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يدعون الى السجود فلا يستطيعون ، وقدكانوا يدعون الى السجود وهم سالمون[١] .

وأما موضع الرجلين فقداستفاضت الأخبار في أنه على الكرسي.

٤ ـ فمن ذلك ما رواه عبدالله بن أحمد ، باسناده عن عمر قال: اذا جلس على الكرسي سمع له أطيط [٢] كأطيط الرحل الجديد [٣].

٥ ـ وباسناده الى ابن عباس قال : الكرسي موضع قدميه والعرش لا يقدر أحد قدره [٤].

٦ ـ وقال :كتب الى عباس بن عبدالعظيم ، حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا اسرائيل ، عن أبي اسحاق ، عن عبدالله بن خليفة قال : جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه وآله فقالت : أدع الله أن يدخلني الجنة قال : فعظم الرب وقال وسع كرسيه السموات والأرض . انه ليقعد عليه فما يفضل منه الا قيد اربع أصابع وأن له أطيطاً كأطيط الرحل اذا ركب [٥] .

١ . السنة : ص ٢٠٦ .

٢ . أى ليصوت بالله كصوت الرحل ـ وهو كور الناقة ـ بالراكب الثقيل .

٣ ، ٤ . السنة : ص ٧٩ .

٥ . السنة : ص ٨٠ .

ورواه ابن خزيمة بزيادة « من ثقله » في آخره [١] وقال المعلق في ذلك الحديث : مسألة أطيط العرش به سبحانه كأطيط الرحل وردت في عدة أحاديث، فمن العلماء من ينكر ذلك ويقول ان الأطيط صفة للعرش لا مدخل له في الصفات ، كالحافظ الذهبي والحق الذي يجب اتباعه في ذلك أن نؤمن بما ورد به النص من غير تشبيه ولا تكييف ، وأن نعتقد أن ربنا ليس محمولا على العرش ولا محتاجاً اليه بل العرش وما تحته كله محمول بقدرته [٢] .

وذكر في الكتابين أن العرش حملته أربعة ملائكة، أحدهم على على صورة انسان، والثاني على صورة ثور، والثالث على صورة نسر والرابع على صورة أسد[٣]. وعلق عليه في الحاشية بأن هذا لم يرد في حديث صحيح ولعل الراوي أخذه من كعب الأحبار أو غيره من مسلمة أهل الكتاب [٤] .

ومع ذلك ورد في الكتابين وأخرجه ابن حنبل في مسنده [٥] بالاسناد الى عكرمة مولى ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه

١ . التوحيد : ص ١٠٦ .

٢ . التوحيد : ص ١٠٦ لاحظ التناقض في كلامه ولاحظ أن الاخبار تارة فصلت بين العرش والكرسي فجعلته جالساً على العرش واضعاً قدميه على الكرسي وأخرى جعلت جلوسه على الكرسي .

٣ . السنة : ص ١٦١ والتوحيد : ص ٩٢ .

٤ . التوحيد : ص ٩٢ .

٥ : مسند أحمد : ج ١ ص ٢٥٦ .

وآله أنشد قول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد[١]

ورواه في كتاب السنة [٢] بزيادة : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : صدق صدق .

في أن لله وجهاً

١ ـ روى عبدالله بن أحمد قال : حدثني أبي ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا ابن عجلان ، حدثني سعيد ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ولا يقل قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فان الله خلق آدم على صورته [٣] .

٢ ـ وقال : حدثني أبومعمر ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن عطاء ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تقبحوا الوجه فان الله خلق آدم على صورة الرحمن [٤] .

١ . التوحيد : ص ٩٠ مع أبيات أخر . قالوا أن أمية تنصر في الجاهلية هو وورقة بن نوفل وكان ينشد الاشعار في تمجيد الله ونسبوا الى الرسول صلى الله عليه وآله انه قال في حقه آمن شعره وكفر قلبه .

٢ . السنة : ص ١٨٧ .

٣ . السنة : ص ١٦٩ ورواه أيضاً بسند آخر في ص ٦٤ .

٤ . السنة : ص ٦٤ .

٣ ـ نقل ابن خزيمة أخباراً كثيرة في ذلك [١] ثم قال هذا باب طويل لو استخرج في هذا الكتاب أخبار النبي صلى الله عليه وآله التي فيها ذكر وجه ربنا ـ عزوجل ـ لطال الكتاب وقد خرجنا كل صنف من هذه الأخبار في مواضعها في كتب مصنفة [٢] ثم استطرد في كلام طويل محاولا من جهة اثبات ما تقدم لله تعالى ومن جهة اخرى نفي التشبيه [٣].

في أن الله يرى

تواترت الأخبار في الكتابين على أن الله يرى يوم القيامة كالبدر المنير . وأنه تعالى لا يرى في الدنيا ، غير أن النبي صلى الله عليه وآله رآه عند ما عرج به الى السماء [٤] ونحن نكتفي بنقل هذين الخبرين :

١ ـ روى ابن خزيمة ، عن معاذ بن هشام ، قال : حدثني أبي عن قتادة ، عن أبي قلابة ، عن خالد بن اللجلاج ، عن عبدالله بن عباس : أن النبي صلى الله عليه وآله قال : رأيت ربي في أحسن صورة ، فقال : يا محمد ! قلت : لبيك وسعديك ، قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : يا رب لا أدري . قال : فوضع يده بين كتفي

١ . التوحيد : ص ١٨ ـ ١٠ .
٢ . التوحيد : ص ١٨ .
٣ . التوحيد : ص ٢٤ ـ ٢١ .
٤ . راجع التوحيد : ص ٢٣٠ ـ ١٦٧ .

فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما بين المشرق والمغرب . الحديث[١] وقد رواه بأسانيد وطرق مختلفة .

٢ ـ وقال : حدثنا محمد بن عيسى ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل، قال: حدثني محمد بن اسحاق، عن عبدالرحمن بن الحرث بن عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، عن عبدالله بن أبي سلمة، أن عبدالله بن عمر بن الخطاب بعث الى عبدالله بن عباس يسأله هل رأى محمد صلى الله عليه وآله ربه ؟ فأرسل اليه عبدالله بن عباس أن نعم . فرد عليه عبدالله ابن عمر رسوله أن كيف رآه ؟ قال: فأرسل أنه رآه في روضة خضراء دونه فراش من ذهب على كرسي من ذهب يحمله أربعة من الملائكة ملك في صورة رجل وملك في صورة ثور وملك في صورة نسر وملك في صورة أسد[٢].

ونختم المقال بما ذكره ابن خزيمة قال : انا لا نصف معبودنا الا بما وصف به نفسه ، اما في كتاب الله أو على لسان نبيه صلى الله عليه وآله بنقل العدل موصولا اليه ، لا نحتج بالمراسيل ولا بالأخبار الواهية ولا نحتج أيضاً في صفات معبودنا بالاراء والمقاييس[٣].

في الجبر والقدر

روى عبدالله بن أحمد ، عن أبيه أحمد بن حنبل ، في كتاب السنة

١ . التوحيد : ص ٢١٧ .
٢ . التوحيد : ص ١٩٨ .
٣ . التوحيد : ص ٥٩ .

الروايات التالية :

١ ـ روى عبدالله بن أحمد قال : حدثني أبي ، حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي ، حدثنا خالد بن صبيح المري ، حدثنا اسماعيل بن عبيدالله أنه سمع أم الدرداء تحدث عن أبي الدرداء ، أنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه يقول : فرغ الله الى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ، وشقي أم سعيد [١] .

٢ ـ حدثني أبي ، حدثنا هشيم ، حدثنا علي بن زيد ، سمعت أبا عبيدة بن عبدالله يحدث قال : قال عبدالله : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ان النطفة تكون في الرحم أربعين يوماً على حالها لا تغير ، فاذا مضت الأربعون صار علقة ، ومضغة كذلك ، ثم عظاماً كذلك، فاذا أرادالله أن يسوي خلقه بعث اليها ملكاً فيقول الملك الذي يليه : أي رب أذكر أم انثى ؟ ، أشقي أم سعيد ؟ ، قصير أم طويل ؟ أناقص أم زائد ؟، قوته وأجله، أصحيح أم سقيم؟ . قال فيكتب ذلك كله . فقال رجل من القوم : فيم العمل اذاً وقد فرغ من هذا كله ؟ فقال: اعملو فكل سيوخذ لما خلق له [٢].

٣ ـ حدثني أبي ، حدثنا بهز بن أسد ، حدثنا بشر بن المفضل حدثنا داود ، عن أبي نضرة ، عن أسير بن جابر ، قال : طلبت علياً في منزله فلم أجده ، فنظرت فاذا هو في ناحية المسجد . قال : فقلت

١ . السنة : ص ١٢٥ .

٢ . السنة : ص ١٢٦ .

له : كأنه خوفه قال فقال ايه ليس أحد الا ومعه ملك يدفع عنه ما لم ينزل القدر فاذا نزل القدر لم يغن شيئاً [١] .

٤ ـ حدثني أبي ، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون ، قال: حدث رجل محمداً عن رجلين اختصما في القدر فقال أحدهما لصاحبه: أرأيت الزنا بقدر هو ؟ قال الاخر نعم ، قال محمد : آي وافق رجل حياً [٢] .

٥ ـ حدثني أبي : قال عبدالله بن الحارث المخزومي ، حدثنا شبل بن عباد ـ مولى لعبدالله بن عامر ـ ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قول الله : « اني أعلم مالا تعلمون ـ البقرة : ٣٠ » قال علم من ابليس المعصية وخلقه لها [٣] .

٦ ـ حدثني أبي ، حدثنا عصام بن خالد الحضرمي ، حدثنا العطاف بن خلد ، عن شيخ من أهل البصرة ، حدثني طلحة بن عبدالله ابن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق ، حدثني أبي ، عن جدي أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : يا رسول الله العمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف ؟ قال : بل على أمر قد فرغ منه . قال : قلت يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال ان كلا ميسر لما خلق له [٤] .

٧ ـ حدثني أبي ، حدثنا وكيع ، حدثنا ابن أبي ليلى ، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: « يمحوا الله ما يشاء ويثبت ـ الرعد : ٣٩ » قال الا الشقاء والسعادة

١ . السنة : ص ١٣٢ .

٢ و٣ و٤ . السنة : ص ١٣٥ ـ ١٣٤ .

والحياة والموت [١] .

٨ ـ حدثني أبي ، حدثنا اسحاق بن عيسى ، أخبرني مالك عن زياد بن سعد ، عن عمرو بن مسلم ، عن طاوس اليماني ، قال : أدركت ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يقولون كل شيء بقدر ، قال : وسمعت عبدالله بن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : كل شيء بقدر حتى العجز والكيس [٢] .

٩ ـ حدثني أبي، حدثنا عبدالرزاق ، حدثنا معمر، عن سعيد بن حيان ، عن يحيى بن يعمر ، قال : قلت لابن عمر ان ناساً عندنا يقولون : الخير والشر بقدر ، وناس عندنا يقولون الخير بقدر والشر ليس بقدر . فقال ابن عمر اذا رجعت اليهم فقل لهم : ان ابن عمر يقول انه منكم بريء وأنتم منه براء [٣] .

١٠ ـ حدثني أبي ، حدثنا عبدالرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان عن عمرو بن محمد ، قال كنت عند سالم بن عبدالله فجاءه رجل فقال: الزنا بقدر ؟ فقال : نعم . قال : كتبه علي قال : نعم ، ويعذبني عليه ؟ قال : فأخذ له الحصا [٤] .

١١ ـ حدثني أبي ، حدثنا عبدالرزاق ، حدثنا معمر، قال : كتب عمر بن عبدالعزيز الى عدي بن أرطاة : أما بعد ، فان استعمالك سعد ابن مسعود على عمان كان من الخطايا التي قدر الله عليك ، وقدر أن

١ . السنة : ص ١٣٥ ـ ١٣٤ .
٢ و٣ . السنة : ص ١٣٩ و١٤١ .
٤ . السنة : ص ١٤٤ ـ ١٤٣ .

تبتلي بها [١] .

١٢ ـ حدثني أبي ، حدثنا وكيع ، حدثنا العلاء بن عبدالكريم سمعت مجاهداً يقول : لهم أعمال من دون ذلك ، هم لها عاملون . قال أعمال لابد لهم من أن يعملوها [٢] .

١٣ ـ حدثني أبي ، حدثنا وكيع ، وابن بشر قالا : حدثنا اسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ـ النساء : ٧٩ » وأنا قدرتها عليك [٣] .

١٤ ـ حدثني أبي ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، حدثنا حميد ، قال قدم الحسن مكة ، فقال لي : فقهاء مكة الحسن بن مسلم وعبدالله بن عبيد لو كلمت الحسن فاخلانا يوماً. فكلمت الحسن فقلت يا أبا سعيد اخوانك يحبون أن تجلس لهم يوماً ، قال نعم ونعمة عين فواعدهم يوماً فجاؤوا فاجتمعوا وتكلم الحسن وما رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم ، فسألوه عن صحيفة طويلة فلم يخطيء فيها شيئاً الا في مسألة واحدة فقال له رجل يا أبا سعيد من خلق الشيطان؟ قال سبحان الله سبحان الله وهل من خالق غيرالله! ثم قال: ان الله خلق الشيطان وخلق الشر وخلق الخير، فقال رجل منهم : قاتلهم الله يكذبون على الشيخ [٤] .

١ و٢ . السنة : ص ١٤٤ ـ ١٤٣ .

٣ . السنة : ص ١٤٤ .

٤ . السنة : ص ١٤٤ .

١٥ ـ حدثني أبي حدثنا اسماعيل ـ يعني ابن علية ـ ، حدثنا خالد الحذاء قال: قلت للحسن : أرأيت آدم ، أللجنة خلق أم للأرض؟ قال : للأرض . قال قلت : أرأيت لو اعتصم ؟ قال : لم يكن بد من أن يأتي على الخطيئة [١] .

التدرع باللاكيفية

ان دلالة هذه الأحاديث على التشبيه والتجسيم مما لا كلام فيه غير أن عدة منهم ـ لأجل الفرار عنهما ـ يتدرعون بلفظة « بلاكيف ولا تشبيه » . فيقولون تارة : أن لله يداً ورجلا ووجهاً وقدماً بلاكيف ولا تشبيه ، وأخرى : أن لله يداً لا كالأيدى ، ووجهاً لا كالوجوه وقدماً لاكالأقدام ، وثالثة: أن له يداً تناسب ذاته وهكذا سائر الأعضاء.

يقول الامام الخطابي: وليست اليد عندنا الجارحة وانما هي صفة جاء بها التوقيف ، فنحن نطلقها على ما جاء ولا نكيفها وهذا مذهب أهل السنة والجماعة [٢] .

ويقول ابن عبدالبر: أهل السنة مجمعون على الاقرار بهذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة ولم يكيفوا شيئاً فيها [٣] .

١ . السنة : ص ١٤٥ .
٢ . فتح البارى : ج ١٣ ص ٤١٧ .
٣ . فتح الباري : ج ١٣ ص ٤٠٧ .

الى غير ذلك من الكلمات التي اتخذتها الحنابلة ـ ومن لف لفهم ـ درعاً يتقون به عار التشبيه والتمثيل . وسيوافيك عند البحث عن عقائد الأشاعرة أن هذه الألفاظ لا تفيد شيئاً ، واليك اجمال ذلك:

أولا : اذا كان المصدر للاعتقاد بأن لله سبحانه أعضاء هي هذه الأحاديث ـ أو بعض الايات على ما زعموا ـ فليس فيهما شيء يدل على هذه الكلمة « بلا كيف » بل هي اضافة منهم بلا دليل . فليس لأهل الحديث الذين يفرون من التأويل، وحتى يسمون المجاز والكناية تأويلا ، الا الأخذ بحرفية هذه الأحاديث بتمامها ، لا التصرف فيها .

وثانياً : ان اليد وأضرابها ، موضوعة حسب اللغة ، للأعضاء المحسوسة التي يعرفها كل من عرف اللغة فاجراء هذه الصفات عليه سبحانه يمكن باحدى صورتين :

١ ـ أن يجرى عليه بما هو المتبادر عند أهل اللغة بلا تصرف فيه. وهذا ما عليه المشبهة والمجسمة .

٢ ـ أن يجرى عليه بما أنها كناية عن معان كالبخل في قول اليهود « يدالله مغلولة ـ المائدة : ٦٤ » والاحسان والجود في قوله سبحانه : « بل يداه مبسوطتان ـ المائدة : ٦٤ » وهذا ما عليه أهل التنزيه ، وليس ذلك تأويلا للقرآن أبداً ولا اتباعاً لخلاف الظاهر، اذ لهذه الألفاظ عند الافراد ظهور تصوري ويراد منها الأعضاء ، وعند التركيب مع سائرها والوقوع في طي الجمل ظهور آخر ، فربما يتحد الظهوران ، مثل قولك لولدك : اغسل يدك من القذر . وربما

يختلفان كما في الجملتين المتقدمتين . وليس هنا وجه ثالث حتى يتدرع به أهل الحديث والحنابلة دعاة التنزيه لفظاً لامعنى . ومايتفوه به هؤلاء من أن لله يداً لا كألايدى فان رجع الى أحد هذين المعنيين فنعم الوفاق اما مع أهل التشبيه أو مع أهل التنزيه والا فيكون أشبه بلقلقة اللسان .

وباختصار : ان القائل بأن له يداً لا يخلو في اجراء اللفظ عليه سبحانه من وجهين: اما أن يريد المعنى الحقيقي وهو العضو المحسوس فيكون مجسماً ومشبهاً، أو يريد المعنى المجازي وهو البخل أو الجور فيكون مسؤولا . وهو يتحرز عن كلتا الطائفتين ، فليس هنا وجه ثالث يلتجأ اليه أهل الحديث والحنابلة .

فظهر ان قولهم بأن لله يداً لا كالأيدى ، لا مفاد صحيح له .

وبعبارة ثانية : ان لفظ اليد اما مشترك معنوي يطلق علي جميع مصاديقه وأفراده من الواجب والممكن بوضع ومعنى واحد ، أو مشترك لفظي يجرى على كل من الواجب والممكن بمعنى وضع خاص.

فعلى الأول يجب أن يكون بين يد الانسان ويد الواجب وجهاً مشتركاً وهو عين القول بالتشبيه .

وعلى الثاني يجب أن يكون المعنى الذي يجري على الانسان مبائناً لما يجري على الله سبحانه فهل هو البخل والجود ، فهذا هو التأويل بزعمكم ، أو غيره فبينوه لنا .

٢ ـ اصول عقائد أهل الحديث

* كليات
* اطاعة السلطان الجائر
* عدالة جميع الصحابة
* الايمان بالقدر خيره وشره
* الايمان بخلافة الخلفاء

حصيلة البحث

ان هذه الروايات التي هي النزر اليسير من الكثير كانت تمثل عقائد أهـل الحديث في العصور الاولى الاسلاميـة حيث نسجت العقائد عليها وحيكت على نولها، وقد بلغت بشاعة الأمر أن قد أوجبت سقوط عقيدة أهل الحديث عن مقامها في نفوس الناس بعد ما انتشرت في أرجاء البلاد ، ولولا ثورة الامام الأشعري على عقيدة أهل الحديث لكانت البشاعة أكثر .

تصدير فى تحليل عقائد اهل الحديث

ان امام الحنابلة والمحدثين كتب رسالة صغيرة حول عقيدة أهل الحديث والسنة وهي أخف وطأة مما ورد في كتب الحديث ، واليك نقل ذلك :

هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة ، المتمسكين بعروتها . المعروفين بها ، المقتدى بهم فيها ، من لدن أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا . وأدركت من أدركت ـ من علماء الحجاز والشام وغيرهما ـ عليها .

فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب ، أو طعن فيها ، أو عاب قائلها ، فهو مخالف مبتدع ، وخارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنة ، وسبيل الحق .

فكان قولهم : ان الايمان قول وعمل ونية ، وتمسك بالسنة . والايمان يزيد وينقص . ويستثنى في الايمان ، من غير أن يكون لشك انما هو سنة ماضية عن العلماء .

فاذا سئل الرجل : مؤمن أنت ؟ فانه يقول : أنا مؤمن ان شاء الله . ومؤمن أرجو ، أو يقول : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله .

ومن زعم أن الايمان قول بلا عمل . فهو مرجىء .

ومن زعم أن الايمان هو القول، والأعمال فشرائع: فهو مرجىء .

ومن زعم أن الايمان لا يزيد ولاينقص : فقد قال بقول المرجئة .

ومن أنكر الاستثناء في الايمان : فهو مرجىء . ومن زعم أن ايمانه كايمان جبريل والملائكة فهو جهمي .

والقدر خيره وشره ، وقليله وكثيره ، وظاهره وباطنه ، وحلوه ومره ، ومحبوبه ومكروهه ، وحسنه وسيئه ، وأوله وآخره .

والله عز وجل قضى قضاءه على عباده . لا يجاوزون قضاءه ، بل هم كلهم صائرون الى ما خلقهم له ، واقعون فيما قدر عليهم لامحالة.

وهو عدل منه عز وجل .

والزنا والسرقة ، وشرب الخمر ، وقتل النفس ، وأكل المال الحرام ، والشرك بالله عز وجل ، والذنوب والمعاصي : كلها بقضاء وقدر من الله عز وجل ، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة . بل لله عز وجل الحجة البالغة على خلقه . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وعلم الله عز وجل ماض في خلقه بمشيئة منه . قد علم من ابليس ومن غيره ممن عصاه ـ من لدن عصاه ابليس الى أن تقوم الساعة ـ المعصية . وخلقهم لها وعلم الطاعة من أهل الطاعة وخلقهم لها . فكل يعمل بما خلق له ، وصائر الى ما قضى الله عليه منه . لم يعد أحد منهم قدر الله عز وجل ومشيئته . والله الفعال لما يريد .

ومن زعم أن الله عز وجل شاء لعباده الذين عصوا الخير والطاعة وأن العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية . يعملون على مشيئتهم . فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئة الله عز وجل. فأي افتراء على الله أكبر من هذا ؟

ومن زعم أن الزنا ليس بقدر، قيل له : أرأيت هذه المرأة حملت من الزنا ، وجاءت بولد . هل شاء الله عز وجل أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى هذا في سابق علمه ، فان قال : لا . فقد زعم أن مع الله تعالى خالقاً وهذا هو الشرك صريحاً .

ومن زعم أن السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام : ليس

بقضاء فقد زعم : أن هذا الانسان قادر على أن يأكل رزق غيره . وهذا يضارع قول المجوسية . بل كل رزقه الله . وقضى الله عز وجل أن يأكله من الوجه الذي أكله .

ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عزوجل : فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله . وأي كفر أوضح من هذا ؟ بل كان ذلك بقضاء الله عز وجل وقدره . وكل ذلك بمشيئته في خلقه ، وتدبيره فيهم ، وما جرى من سابق علمه فيهم . وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد .

ومن أقر بالعلم لزمه الاقرار بالقدر والمشيئة .

ولا نشهد على أحد من أهل القبلة : أنه في النار لذنب عمله ولا بكبيرة أتاها، الا أن يكون في ذلك حديث . فنروي الحديث كما جاء على ما روي نصدق به ، ونعلم أنه كما جاء ولا تنقض الشهادة .

والخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان ، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها . ولا يخرج عليهم ، ولا نقر لغيرهم بها الى قيام الساعة .

والجهاد ماض ، قائم مع الامام ، براً أو فاجراً . ولا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل .

والجمعة والحج والعيدان مع الأئمة ، وان لم يكونوا بررة عدولا أتقياء .

ودفع الصدقات والأعشار والخراج والفيء، والغنائم: الى الأمراء

عدلوا فيها أو جاروا . والانقياد لمن ولاه الله عز وجل أمركم لاتنزع يداً من طاعته . ولا تخرج عليه بسيفك . يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً ولا تخرج على السلطان ، بل تسمع وتطيع فان أمرك السلطان بأمر ـ هولله عز وجل معصية ـ فليس لك أن تطيعه . وليس لك أن تخرج عليه . ولا تمنعه حقه ، ولا تعن على فتنة بيد ولا لسان ، بل كفف يدك ولسانك ، وهواك . والله عز وجل المعين .

والكف عن أهل القبلة . ولا نكفر أحداً منهم بذنب . ولانخرجهم عن الاسلام بعمل الا أن يكون في ذلك حديث فيروى كما جاء . وكما روى . ونصدقه ونقبله . ونعلم أنه كما روى نحو: ترك الصلاة وشرب الخمر . ومـا أشبه ذلك أو يبتدع بدعـة ينسب صاحبها الى الكفر والخروج عن الاسلام فاتبع الأثر في ذلك ولا تجاوزه .

ولا أحب الصلاة خلف أهل البدع . ولا الصلاة على من مات منهم .

والأعور الدجال خارج لا شك في ذلك ولا ارتياب . وهو أكذب الكذابين وعذاب القبر حق . يسأل العبد عن دينه ، وعن ربه ؟ ويرى مقعده من النار والجنة . ومنكر ونكير حق [1] وهما فتانا القبور . نسأل الله عز وجل الثبات .

وحوض النبي صلى الله عليه وسلم حق ، ترده أمته . ولـه آنية

١ . هل فى اسميهما حديث صحيح .

يشربون بها منه . والصراط حق يوضع على شفير جهنم . ويمر الناس عليه . والجنة من وراء ذلك نسأل الله عز وجل السلامة في الجواز .

والميزان حق . توزن به الحسنات والسيئات . كما شاء أن توزن.

والصور حق . ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام فيموت الخلق . ثم ينفخ فيه أخرى فيقومون لرب العالمين عز وجل للحساب والقصاص والثواب والعقاب .

والجنة والنار واللوح المحفوظ حق . تستنسخ منه أعمال العباد مما سبقت فيه من المقادير والقضاء .

والقلم حق . كتب الله به مقادير كل شيء وأحصاه في الذكر تبارك وتعالى .

والشفاعة حق يوم القيامة . يشفع قوم في قوم فلا يصيرون الى النار ويخرج قوم من النار بعد ما دخلوها بشفاعة الشافعين . ويخرج قوم من النار برحمة الله عز وجل بعد ما لبثوا فيها ماشاء الله عز وجل وقوم يخلدون فيها أبداً . وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود والكفر بالله عز وجل .

ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنة والنار .

وقد خلقت النار وما فيها . وخلقت الجنة وما فيها . خلقهما الله عز وجل . ثم خلق الخلق لهما . لا يفنيان ، ولا يفني ما فيهما أبدا .

فان احتج مبتدع بقوله تعالى « كل شيء هالك الا وجهه ـ القصص : ٨٨ » ونحو هذا من متشابه القرآن .

قيل لـه : كل شيء مما كتب الله عز وجل عليـه الفناء والهلاك هالك . والجنة والنار خلقهما الله عز وجل للبقاء لا للفناء ولا للهلاك وهما من الاخرة لا من الدنيا .

والحور العين : لا يمتن عند قيام الساعة ، ولا عند النفخـة أبداً لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء . لا للفناء ولم يكتب عليهن الفناء ولا الموت . فمن قال خلاف ذلك : فهو مبتدع .

وخلق الله سبع سموات ، بعضها فـوق بعض ، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض . وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمس مئة عام . وبين كل سماءين مسيرة خمس مئة عام . والمـاء فوق السماء السابعة . وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق الماء . والله عز وجـل على العرش . وهو يعلم ما في السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى ، وما في قعر البحار ومنبت كل شعرة ، وكل شجرة ، وكـل زرعة ، وكل نبت ، ومسقط كل ورقة ، وعـدد ذلك وعدد الحصا والرمـل والتراب ، ومثاقيل الجبال ، وأعمال العبـاد وآثارهم ، وكلامهم وأنفاسهم . ويعلم كـل شيء لا يخفى عليه شيء من ذلك . وهو على العرش . فوق السماء السابعة . وعنده حجب من نار ونور وظلمة وماء وهو أعلم بها .

فان احتج مبتدع أو مخالف بقوله تعالى : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ـ ق : ١٦ » أو بقوله عز وجل : « وهـو معكم أينما كنتم ـ الحديد : ٤ » أو بقولـه تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثـة

الا هو رابعهم ـ المجادلة : ٧ » ونحو هذا من متشابه القرآن .

قيل : انما يعنى بذلك العلم . لأن الله تبارك وتعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا . يعلم ذلك كله . وهو تعالى بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان ، والله تعالى على العرش . وللعرش حملة يحملونه . والله عز وجل على عرشه .

والله تعالى سميع لا يشك ، بصير لا يرتاب ، عليم لا يجهل جواد لا يبخل ، حليم لا يعجل ، حفيظ لا ينسى ، يقظان [1] لا يسهو قريب لا يغفل . يتكلم ويسمع وينظر ، ويبصر ويضحك ، ويفرح ويحب ، ويكره ويبغض ، ويرضى ويغضب ويسخط ، ويرحم ويعفو ويعطي ويمنع ، وينزل تبارك وتعالى كل ليلة الى السماء الدنيا كيف يشاء « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ـ الشورى : ١١ » وقلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرب عزوجل ، يقلبها كيف يشاء ويوعيها ما أراد .

وخلق الله عزوجل آدم عليه السلام بيده ، والسماوات والأرض يوم القيامة في كفه . ويخرج قوماً من النار بيده . وينظر أهل الجنة الى وجهه . ويرونه فيكرمهم ويتجلى لهم فيعطيهم . ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين . ويتولى حسابهم بنفسه ، لا يولى ذلك غيره عزوجل .

١ . لم ترد هذه الكلمة في الكتاب ولا السنة . ولعل الاولى أن يقال « لا تأخذه سنة ولا نوم » .

والقرآن كلام الله، ليس بمخلوق . فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر .

ومن زعم أن القرآن كلام الله عزوجل ووقف، ولم يقل: مخلوق ولا غير مخلوق : فهو أخبث من الأول. ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة ، والقرآن كلام الله : فهو جهمي . ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم .

وكلم الله موسى تكليماً ، من الله سمع موسى يقيناً . وناوله التوراة من يده. ولم يزل الله متكلماً عالماً. تبارك الله أحسن الخالقين

والرؤيا من الله عزوجل حق . اذا رأى صاحبها شيئاً في منامه يقصها على عالم . وقد كانت الرؤيا من الأنبياء وحياً .

ومن السنة : ذكر محاسن أصحاب رسول الله عليه وسلم كلهم أجمعين والكف عن الذي شجر بينهم. فمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو واحد منهم ، فهو مبتدع رافضي . حبهم سنة. والدعاء لهم قربة . والاقتداء بهم وسيلة . والأخذ بآثارهم فضيلة .

وخير هذه الأمة ـ بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ـ : أبو بكر . وخيرهم ـ بعد أبي بكر ـ عمر . وخيرهم ـ بعد عمر ـ عثمان . وخيرهم ـ بعد عثمان ـ علي . رضوان الله عليهم . خلفاء راشدون مهديون . ثم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد هؤلاء الأربعة لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم . ولا يطعن على أحد منهم. فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته . ليس له أن

يعفو عنه ، بل يعاقبه ثم يستتيبه . فان تاب قبل منه . وان لم يتب أعاد عليه العقوبة . وجلده في المجلس حتى يتوب ، ويراجع [١].

ثم ان الشيخ أبا جعفر المعروف بالطحاوي المصري (المتوفى عام ٣٢١ هـ) كتب رسالة حول عقيدة اهل السنة، تشتمل على مئة وخمسة أصول ، زعم أنهـا عقيدة الجماعة والسنة على مذهب فقهاء الملة : أبي حنيفة ، النعمان بـن ثابت الكوفي ، وأبي يوسف يعقوب بـن ابراهيم الأنصاري، وأبي عبدالله محمد بن الحسن الشيباني. والرسالة صغيرة كتب عليها تعاليق وشروح كثيرة .

ولما ثار الامام الأشعري على المعتزلة وانخرط في سلك أهـل الحديث ، جاء في الباب الثاني من كتاب الابانة بعقيدة أهل السنة والجماعة في واحد وخمسين أصلا [٢] .

ولـم يكتف بذلك فكتب في آخر الجزء الأول مـن مقالات الاسلاميين ، عقائد أهل السنة مـع اختلاف يسير بيـن ما ذكره في الابانة وما أتى به في مقالات الاسلاميين [٣] .

ثم تتابع بعده تبيين عقيدة أهل السنة ، فكتب أبو الحسين محمد ابن احمد عبدالرحمن الملطي الشافعي (المتوفى عام ٣٧٧) كتابه المعروف «التنبيه والرد» وذكر عقيدة أهل السنة تحت أصول نذكرها:

١ . السنة لاحمد بن حنبل : ص ٥٠ ـ ٤٤ .

٢ . الابانة . ص ٢٩ ـ ١٧ .

٣ . مقالات الاسلاميين : ص ٣٢٥ ـ ٣٢٠ .

والذي ثبت عن محمد بن عكاشة ان أصول السنة ممـا اجتمع عليه الفقهاء والعلماء منهم: علي بن عاصم، وسفيان بن عيينه، وسفيان ابن يوسف الفريابي ، وشعيب ، ومحمد بن عمر الواقدي ، وشابة ابن ثوار ، والفضل بن دكين الكوفي ، وعبدالعزيز بن أبانالكوفي وعبدالله بـن داود ، ويعلى بن قبيصة ، وسعيد بـن عثمان ، وأزهر، وأبـو عبد الرحمان المقري ، وزهير بن نعيم ، والنضر بن شميل وأحمد بن خالد الدمشقي ، والوليد بن مسلم القرشي والرواد بـن الجراح العسقلاني، ويحيى بن يحيى، واسحاق بنراهويه، ويحيى ابن سعيد القطان ، وعبد الرحمان بن مهدي ، وأبـو معاوية الضرير كلهم يقولون : رأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم كانوا يقولون :

١ ـ الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله والصبر على حكمالله.

٢ ـ الأخذ بما أمر الله ، والنهي عما نهى الله عنه .

٣ ـ الاخلاص بالعمل لله .

٤ ـ الايمان بالقدر ، خيره وشره من الله .

٥ ـ ترك المراء والجدال والخصومات في الدين .

٦ ـ المسح على الخفين .

٧ ـ الجهاد مع أهل القبلة .

٨ ـ الصلاة على من مات من أهل القبلة سنة .

٩ ـ الايمان يزيد وينقص قول وعمل .

١٠ ـ القرآن كلام الله .

١١ ـ الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منهم ، من عدل أو جور ، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وان جاروا .

١٢ ـ لا ينزل أحد من أهل التوحيد جنة ولا ناراً .

١٣ ـ لا يكفر أحد من أهل التوحيد بذنب، وان عملوا الكبائر.

١٤ ـ الكف عن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

١٥ ـ أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبوبكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ثم علي [١] .

وهذا النص يجمع أصول السنة التي يدين بها أهل الحديث وقد اقتدى بهم الأشعري في أكثرها ، وسنوافيك الأصول التي نسبها الأشعري الى أهل السنة عند البحث عن مذهب الأشاعرة . وهذه الأصول التي جاء بها محمد بن عكاشة ملفقة من أصول اتفق على صحتها أهل القبلة، الى أصول مختلف فيها الى أصول مزورة ومختلفة ومكذوبة على الاسلام .

١ . التنبيه والرد لابى الحسين الملطى : ص ١٥ ـ ١٤ ومما يجب التعليق عليه : أن محمد بن عكاشة مرمى بالكذب ووضع الحديث ، فقد قال الرازى فى كتاب « الجرح والتعديل » : محمد بن عكاشة الكرمانى، روى عبدالرزاق : حدثنا عبدالرحمان قال: سئل أبو زرعه عنه؟ فقال : قد رأيته وكتبت عنه وكان كذاباً ، قدم علينا مع محمد بن رافع النيسابورى وكان رفيقه ، فأول ما أملى حديث كذب على الله عزوجل وعلى رسوله (لاحظ الجرح والتعديل للحافظ أبى حاتم الرازى) .

غير أنـا نبحث عن بعض الأصول التي زعمها أهـل الحديث أصولا صحيحة وهي عندنا مفتعلة على الاسلام ومختلفة . ونختار منها المواضع التالية :

١ ـ اطاعة السلطان الجائر والصبر تحت لوائه .

٢ ـ عدالة الصحابة .

٣ ـ الايمان بالقدر خيره وشره .

٤ ـ الايمان بخلافة الخلفاء .

ومما يعجب القاريء في مثل هذه الكلمة قوله : ان هؤلاء كلهم يقولون : رأينا أصحاب رسول الله كانوا يقولون : مع أنـه ليس بين هؤلاء العلماء تابعي واحد حتى تصح منهم رؤية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله .

(١)

اطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

اطاعة الحاكم العادل من صميم الدين ، قال سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ـ النساء : ٥٩ » ، وليس المراد منه اطاعة مطلق ولاة الأمر بل المراد خصوص العدول منهم بقرينة النهي عن اطاعة المسرفين والغافلين عن ذكر الله سبحانه والمكذبين والاثمين وغيرهم ، قال سبحانه : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ـ الكهف : ٢٨ » ، وقال سبحانه : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ـ الأحزاب : ١ » ، وقال سبحانه : « ولا تطع المكذبين ـ القلم : ٨ » وقال تعالى: « ولا تطع كل حلاف مهين ـ القلم : ١٠ »، وقال سبحانه: « فاصبر لحكم ربك ولا تطع آثماً او كفورا ـ الانسان : ٢٤ » ، وقال تعالى : « ولا تطيعوا أمر المسرفين ـ الشعراء : ١٥١ »، الى غير ذلك

من الايات الناهية عن طاعة الطغاة العصاة . فبقرينة هذه الايات الناهية يصح أن يقال ان المراد من الأمر باطاعة اولي الأمر، هو اطاعة العدول منهم .

وقد تضافرت الروايات على وجوب اطاعة السلطان العادل المعربة عن عدم وجوب اطاعة السلطان الجائر أو حرمتها ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : السلطان العادل المتواضع ، ظل الله ورمحه في الارض ويرفع له عمل سبعين صديقاً [١] .

وقال صلى الله عليه وآله : ما من أحد أفضل منزلة من امام ان قال صدق ، وان حكم عدل وان استرحم رحم [٢] .

وقال صلى الله عليه وآله: أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم مجلساً ، امام عادل ، وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه ، امام جائر [٣] .

وقال صلى الله عليه وآله : السلطان ظل الله في الأرض ، يأوي اليه الضعيف ، وبه ينصر المظلوم ، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة [٤] .

وقال صلى الله عليه وآله : ثلاثة من كن فيه من الأئمة صلح أن يكون اماماً اضطلع بامانته : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون رعيته ، وأقام كتاب الله تعالى في القريب والبعيد [٥] ... الى غير ذلك

١ . كنز العمال : ج ٦ ، ص ٦ الحديث ١٤٥٨٩ .
٢ ، ٣ ، ٤ . المصدر السابق : الحديث ١٤٥٩٣ ، ١٤٦٠٤ ، ١٤٥٧٢ .
٥ : المصدر السابق : ج ٥ الحديث ١٤٣١٥ .

من الروايات التي يقف عليها المتتبع في الجوامع الحديثية .

هذا من طريق أهل السنة وأما من طريق الشيعة فحدث عنه . ولا حرج .

روى عمر بن حنظلة عن الصادق عليه السلام في لزوم طاعة الحاكم العادل : من روى حديثنا ، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً، فاني جعلته عليكم حاكماً فاذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه ، فانما استخف بحكم الله وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله وهو على حد الشرك بالله [١] .

ونكتفي بقول الامام الحسين بن علي عليهما السلام في كتابه الى أهل الكوفه حيث قال عليه السلام : فلعمري ما الامام الا الحاكم بالكتاب ، القائم بالقسط ، الدائن بدين الحق . الحابس نفسه على ذات الله [٢] .

اذاً فوجوب اطاعة السلطان العادل مما لاشك فيه ولا يحتاج الى اسهاب الكلام فيه .

اطاعة السلطان الجائر :

اتفقت كلمة الحنابلة ومن لف لفهم على وجوب اطاعة السلطان

١ . الوسائل : الجزء ١٨ الباب ١١ من أبواب صفات القاضي الحديث ١ .

٢ . بحار الانوار : ج ١٥ ص ١١٦ ، والطبري : ج ٤ أحداث سنة ٦٠ ص ٢٦٢ .

الجائر واليك نصوصهم .

قال أحمد بن حنبل في احدى رسائله : « السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين ، البر والفاجر ، ومن ولى الخلافة فأجمع الناس ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف وسمى أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء الى يوم القيامة ، البر والفاجر، واقامة الحدود الى الأئمة وليس لأحد أن يطعن عليهم وينازعهم ، ودفع الصدقات اليهم جائز من دفعها اليهم أجزأت عنهم ، براً كان أوفاجراً ، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولى ، جائزة اقامته ، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للأوثار ، مخالف للسنة »[1] .

ومن خرج على امام من أئمة المسلمين وقدكان الناس قداجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه ، كان بالرضا أو بالغلبة فقد شق الخارج عصا المسلمين وخالف الاثار عن رسول الله ، فان مات الخارج عليه ، مات ميتة جاهلية .

هذا الرأى المنقول عن امام الحنابلة لا يمكن انكار صحة نسبته اليه ، ولأجل ذلك قال الأستاذ أبو زهرة : ولأحمد رأي يتلاقى فيه مع سائر الفقهاء وهو جواز امامة من تغلب ورضيه الناس وأقام الحكم الصالح بينهم ، بل انه يرى أكثر من ذلك ، ان من تغلب وان كان فاجراً تجب اطاعته حتى لا تكون الفتن[2] .

١ . تاريخ المذاهب الاسلامية لابى زهرة : ج ٢ ص ٣٢٢ .

٢ . المصدر السابق : ص ٣٢١ .

والعبارة التي نقلناها عن امام الحنابلة تعرب عن وجوب اطاعة الجائر ولو أمر بمعصية الخالق وهوأمر عجيب منه جداً مع أن أكثر الأشاعرة الذين يحرمون الخروج عليه ، لايوجبون طاعته كما سترى عند ما نوافيك بنصوصهم ولغرابة رأى ابن حنبل هذا ، ذيله أبو زهرة بقوله : ولكنه ينظر في هذه القضية الى مصلحة المسلمين وأنه لابد من نظام مستقر ثابت وان الخروج على هذا النظام يحل قوة الأمة ويفك عراها ، ولأنه رأي من أخبار الخوارج وفتنتهم ما جعله يقرر أن النظام الثابت أولى وان الخروج عليه يرتكب فيه من المظالم أضعاف ما يرتكبه الحاكم الظالم .

ثم انه ينظر في القضية نظرة أتباع فان التابعين عاشوا في العصر الأموي الى أكثر من ثلثي زمانه قد رأوا مظالم كثيرة ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين ، وكانوا ينصحون الخلفاء والولاة ان وجدوا آذاناً تسمع، وقلوباً تفقه، وفي كل حال لايخرجون ولا يؤيدون خارجه [١] .

وهذا التوجيه من الأستاذ غريب جداً :

أما أولا : فلأن الخروج على النظام الظالم اذا كان موجباً لحل قوة الأمة وفك عراها ، يكون الصبر علية تشويقاً لتماديه في الظلم واكثار الضغط على الأمة وبالنتيجة : تحويل الدين وتحريفه عما هو عليه من الحق . . . فأي فائدة تكمن في حفظ قوة أمة ، انحرف عن

١ . تاريخ المذاهب الاسلامية لابى زهرة : ج ٢ ص ٣٢٢ .

صراطها وتبدلت سننها وتغيرت أصولها . فان الظالم لا يرى لظلمه حداً ولتعديه ضوابط، فلو رأى أن الاسلام بواقعه يضاد آرائه الشخصية وميوله الخبيثة ، عمد الى تغييره وتحويره فليس يقتصر ظلم الظالم على التعدي على النفوس والأموال ، بل الراكب على أعناق الناس يغير كل شيء كيفما يريد ، وحيثما يرى أنه لصالح شخصه ، والتاريخ شاهدنا الأصدق على ذلك .

وأما ثانياً : فان الأستاذ أبا زهرة نسب الى التابعين الذين عاشوا في العصر الأموي الى أكثر من ثلثي زمانه بأنهم رأوا مظالم كثيرة ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين . . . ولكنه كيف غفل عن قضية الحرة الدامية حيث كان الخارجون فيها على الحكومة الغاشمة هم الصحابة والتابعون . . .

وهذا المسعودي صاحب « مروج الذهب » ينقل الينا لمحة عما جرى هناك ويقول :

ولما انتهى الجيش من المدينة الى الموضع المعروف بالحرة وعليهم «مسرف» خرج الى حربه أهلها . عليهم عبدالله بن مطيع العروي وعبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري ، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من بني هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس ، فقد قتل من آل أبي طالب اثنان : عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب ، الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن

عبدالمطلب ، وحمزة بن عبدالله بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبدالمطلب ، وبضع وتسعون رجلا من سائر قريش ومثلهم من الأنصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الاحصاء دون من لم يعرف [١] .

كيف نسي أبوزهرة أو لعله تناسى قضية دير الجماجم حيث قام ابن الأشعث التابعي في وجه الحجاج السفاك بالموضع المعروف بدير الجماجم فكان بينهم نيف وثمانون وقعة تفانى فيها خلق وذلك في سنة اثنين وثمانين [٢] .

وعلى كل تقدير فقد اختفى أثر أحمد بن حنبل جماعة من متكلمي الأشاعرة وادعوا بأن هذه عقيدة اسلامية كانت الصحابة والتابعون يدينون بها وأنه يجب الصبر على الطغاة الظلمة اذا تصدروا منصة الحكم ، نعم غاية ما يقولون انه لا يجب اطاعتهم اذا أمروا بالحرام والفساد جاعلين قولهم هذا منعطفهم الوحيد عن قول ابن حنبل وبقية أهل الحديث ، واليك نبذة من أقوال القوم :

١ ـ قال الامام الشيخ أبو جعفر الطحاوي الحنفي (المتوفى عام ـ ٣٢١) في رسالته المسماة بـ « بيان السنة والجماعة » المشهور بـ « العقيدة الطحاوية » : ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد الا على من وجب عليه

١ . مروج الذهب للمسعودي : ج ٣ ص ٧٠ ـ ٦٩ طبع بيروت .
٢ . نفس المصدر السابق : ج ٣ ص ١٣٢ .

السيف (أى سفك الدم بالنص القاطع كالقاتل والزاني المحصن والمرتد) ولا نرى الخروج على أئمتنا ولا ولاة أمرنا وان جاروا ولا ندعوا على أحد منهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعات الله عز وجل فريضة علينا ما لم يأمروا بمعصية [١] .

٢ ـ قال الامام الأشعري من جملة ما عليه أهل الحديث والسنة : ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كل امام بر وفاجر . . . الى أن قال : ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف ، وأن لا يقاتلوا في الفتن [٢] .

٣ ـ وقال الامام أبو اليسر محمد بن عبدالكريم البزودي : الامام اذا جار أوفسق لا ينعزل عند أصحاب أبي حنيفة بأجمعهم وهو المذهب المرضى . . . ثم قال : وجه قول عامة أهل السنة والجماعة اجماع الامة ، فانهم رأوا الفساق أئمة ، فان أكثر الصحابة كانوا يرون بني أمية وهم بنو مروان حتى كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلفهم ويرون قضاياهم نافذة ، وكذا الصحابة والتابعون وكذا من بعدهم يرون خلافة بني عباس وأكثرهم كانوا فساقاً . ولأن القول بانعزال الأئمة بالفسق ، ايقاع الفساد في العالم ، واثبات المنازعات وقتل الأنفس ، فانه اذا انعزل يجب على الناس تقليد غيره ، وفيه فساد كثير ثم قال : اذا فسق الامام يجب الدعاء له بالتوبة ولا يجوز الخروج عليه وهذا مروي عن أبي حنيفة لأن في الخروج اثارة الفتن والفساد

١ . شرح العقيدة الطحاوية لابى جعفر الطحاوى طبع دمشق: ص ١١١و١١٠.
٢ . مقالات الاسلاميين : ص ٣٢٣ .

في العالم [١] .

٤ ـ وقال الامام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (المتوفى عام ٤٠٣ هـ ق) في التهميد: ان قال قائل: ما الذي يوجب خلع الامام عندكم ؟ قيل له : يوجب ذلك أمور: منها كفر بعد ايمان ، ومنها تركه الصلاة والدعاء الى ذلك ومنها عند كثير من الناس فسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الابشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود وقال الجمهور من أهل الاثبات وأصحاب الحديث: لاينخلع بهذه الأمور ولايجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء مما يدعوا اليه من معاصي الله اذ احتجوا في ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الصحابة في وجوب طاعة الأئمة وان جاروا واستأثروا بالأموال وأنه قال عليه السلام : واسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع ، ولو لعبد حبشي، وصلوا وراء كل بر وفاجر . وروي أنه قال : وان أكلوا مالك وضربوا ظهرك وأطيعوهم ما أقاموا الصلاة [٢] .

٥ ـ وقال الشيخ نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي (المتوفى عام ٥٣٧) في العقائد النسفية : ولا ينزل الامام بالفسق والجور . . . ويجوز الصلاة خلف كل بر وفاجر وعلله الشارح التفتازاني بقوله : لأنه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمة والأمراء

١ . أصول الدين للامام البزودى طبع القاهرة : ص ١٩٢ ـ ١٩٠ .
٢ . التمهيد طبع القاهرة : ص ١٨٦ .

بعد الخلفاء الراشدين ، والسلف كانوا ينقادون لهم ويقيمون الجمع والأعياد باذنهم ولا يرون الخروج عليهم [١] .

وقد أيدت تلك العقائد بروايات ربما يتصور القاريء أن لها مسحة من الحق أولمسة من الصدق لكن الحق أن أكثرها مفتعلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أفرغها في قالب الحديث جمع من وعاظ السلاطين ومرتزقتهم تحفظاً على عروشهم وحفظاً لمناصبهم واليك بعض تلك الروايات التي رواها مسلم في صحيحه :

١ ـ روى مسلم ، عن حذيفة بن اليمان ، قلت يا رسول الله ... الى أن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يتسنون بسنتي ، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان انس. قال: قلت كيف أصنع يارسول الله ان أدركت ذلك قال: تسمع وتطيع للأمير وان ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع .

٢ ـ وروى عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة الجاهلية . . . الى أن قال : ومن خرج على امتي يضرب برها وفاجرها، ولايتحاشى من مومنها ولا يفي لذى عهد عهده فليس مني ولست منه .

٣ ـ روى عن ابن عباس أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فانه من فارق الجماعة شبراً

١ . شرح العقائد النسفية .

فمات ، فميتته جاهلية .

٤ – روي عنه أيضاً ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : من رأى من أميره شيئاً فليصبر فانه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه الا مات ميتة جاهلية .

٥ – روي عن عبدالله بن عمر ، أنه جاء الى عبدالله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال : اخرجوا لأبي عبدالرحمان وسادة فقال: اني لم أتيتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقوله : من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية .

وقد فسر قول رسول الله صلى الله عليه وآله ابن عمر بلزوم بيعة يزيد واطاعته حتى في مسألة الحرة .

٦ – روي عن أم سلمة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برء ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع قالوا يا رسول الله : ألا نقاتلهم قال : لا ما صلوا .

٧ – وروى عن عوف بن مالك في حديث : قيل يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف ؟ فقال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة واذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعته [1] .

١ . صحيح مسلم : باب الامر بلزوم الجماعة ، ج ٦ ، وباب حكم من فرق أمر المسلمين : ص ٢٤ – ٢٠ .

وقد أورد ابن الأثير الجزري قسماً من هذه الأحاديث في جامع الاصول [١] .

٨ ـ روى البيهقي في سننه عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : سيكون بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون بما يؤمرون وسيكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون ويفعلون ما لايؤمرون ، فمن أنكر عليهم برء ومن أمسك يده سلم ولكن من رضى وتابع [٢] .

٩ ـ وروى ابن عبد ربه ، عن عبدالله بن عمر : اذا كان الامام عادلا فله الأجر وعليك الشكر ، واذا كان الامام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر [٣] .

وفي مقدم المحدثين أحمد بن حنبل فقد جاء في احدى رسائله ما هذا نصها : السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن ولى الخلافة فاجمع عليه الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف وسمى أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء الى يوم القيامة [٤].

وقبل كل شيء يجب علينا أن نعرض تلك الروايات على كتاب

١ . لاحظ جامع الاصول: ج ٤ الكتاب الرابع فى الخلافة والامارة ، الفصل الخامس ص ٤٥١ . . . الخ .

٢ . السنن الكبرى : ج ٨ ، ص ١٥٨ .

٣ . العقد الفريد : ج ١ ص ٨ .

٤ . تاريخ المذاهب الاسلامية : ج ٢ ص ٣٢٢ .

الله سبحانه فانه المحك الأول لتشخيص الجديث الصحيح من السقيم، قال سبحانه حاكياً عن العصاة والكفار: « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالو ربنا انـا أطعنا سادتنا وكبرائنا ، فاضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين مـن العذاب والعنهم لعناً كبيراً ـ الأحزاب : ٦٨ ـ ٦٦ » .

فهذا القسم من الايات يندد بقول من يرى وجوب طاعة السلطان الظالم التي توجب ضلالة المطيع لهم عن السبيل السوى، وثمة آيات تندد بعمل من يصبر على عمل الطاغية من دون أن يأمره بالمعروف أو ينهاه عن المنكر وترى نفس السكوت والصبر على طغيان الطاغية جرماً واثماً موجباً للهلاك وهـذه الايات هى الواردة حول قوم مـن بني اسرائيل الذيـن كانوا يعيشون قرب ساحل من سواحـل البحر فتقسمهم الى أصناف ثلاثة :

الأول : الجماعة المعتدية العادية التي رفضت حكم الله سبحانه حيث حرم عليهم صيد البحر يوم السبت قال سبحانه : « اذ يعـدون في السبت اذتأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم .. ـ الأعراف : ١٦٣ » .

الثاني : الجماعة الساكتة التي أهمتهم أنفسهم لا يرتكبون مـا حرم الله وفي الوقت نفسه لاينهون الجماعة العادية عن عدوانها ، بل كانوا يعترضون على الجماعة الثالثة التي كانت تقوم بواجبها الديني

من ارشاد الجاهل والقيام في وجه العاصي والطاغي ، بقولهم : « لم تعظون قوماً الله مهلكهم أومعذبهم عذاباً شديداً ـ الأعراف : ١٦٤ ».

الثالث: الجماعة الامرة بالمعروف والناهية عن المنكر محتسبين ذلك وظيفة دينية عريقة ونصيحة لازمة للاخوان وقد حكى الله سبحانه على لسانهم في محكم كتابه العزيز حيث قال : « معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون ـ الأعراف : ١٦٤ ».

نرى أن الله سبحانه أباد الطائفتين الأوليين وأنجى الثالثة قال سبحانه : « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ـ الأعراف : ١٦٥ ».

فالاية الأخيرة صريحة في حصر النجاة في الناهين عن السوء فقط دون العادين والساكتين على عدوانهم . فلوكان السكوت والصبر على عدوان العادين أمراً جائزاً لماذا عم العذاب كلتا الطائفتين ؟ أو ما كان في وسع هؤلاء أن يعتذروا للقائمين بالأمر بالمعروف ، بأن في القيام والخروج وحتى في النصيحة بالقول تضعيفاً لقوة الأمة وفكاً لعراها ؟

فلو دلت الاية الأولى على حرمة طاعة الظالم ودلت الاية الثانية على حرمة السكوت في مقابل طغيان العادين فهناك آية ثالثة تدل على حرمة الركون الى الظالم يقول سبحانه : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ـ هود : ١١٣ ».

أو ليس تأييد الحاكم الجائر والدعاء له في الجمعة والجماعات واقامة الصلاة بأمره ، وادارة كل شأن حول منه اليه ، يعد ركوناً الى الظالم ؟ فما هو جواب هؤلاء المرتزقة في الدول الاسلامية اصطلاحاً الذين يعترفون بجور حكامهم وانحرافهم عن الصراط السوي ، فمع ذلك يدعون لهم عقب خطب الجمعات بطول العمر ودوام السلامة ويديرون الشؤون الدينية حسب الخطط التي يرسمها ويصورها لهم أولئك الحكام، الذين تعدهم أولئك المرتزقة محاور ومراكز، وأنفسهم أقماراً تدور في أفلاكها ، أللهم الا أن يعتذر هؤلاء بعدم التمكن مما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مراتبها المختلفة ولكنه عذر لا يقبل في كثير من الأحيان وعلى ذلك الأساس فما قيمة تلك الروايات المعارضة لنصوص الكتاب وصريح الذكر الحكيم ؟

أضف الى ذلك أن هناك روايات تنفي صحة الروايات السابقة وتجعلها في مدحرة البطلان وقد نقلها أصحاب الصحاح والسنن أيضاً وعند المعارضة يؤخذ من السنة الشريفة ما يوافق كتاب الله الحكيم. واليك نزراً من تلك الروايات .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اسمعوا : سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض [١] .

١ . جامع الاصول : ج ٤ ص ٧٥ نقلا عن الترمذى والنسائى .

هذا بعض ما لدى السنة من الروايات وأما ما لدى الشيعة فنأتي ببعضها : عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : ألا ومن علق سوطاً بين يدي سلطان ، جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعباناً من النار طوله سبعون ذراعاً يسلطه الله عليه في نار جهنم وبئس المصير.

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال : اذا كان يوم القيامة نادى منـاد : أين أعوان الظلمة ، ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً ، أو مدلهم مدة قلم ، فاحشروهم معهم .

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال : من خف لسلطان جائر في حاجة كان قرينه في النار .

وقال صلى الله عليه وآله : ما اقترب عبد من سلطان جائر الا تباعد من الله .

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال : من أحب بقاء الظالمين ، فقد أحب أن يعصي الله .

وعنه عليه السلام أنه قال : من سود اسمه في ديوان الجبارين... حشره الله يوم القيامة حيراناً .

وعنه عليه السلام أنه قال : من مشى الى ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج عن الاسلام .

وعن الامام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال : ما أحسب أني عقدت لهم عقدة أو وكيت لهم وكاء وأن لي ما بين لابتيها لا ولا مدة بقلم ، ان أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من

نار حتى يفرغ الله من الحساب [١] .

وغيرها من عشرات الأحاديث والروايات الواردة من النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام الناهية عن السكوت على الحاكم الجائر ، والحاثة على زجره ودفعه ، والانكار عليه بكل الوسائل الممكنة فهذه الأحاديث تدل على أن ما مر من الروايات الحاثة على السكوت عن الحاكم الظالم ، والانصياع لحكمه والتسليم لظلمه ، والرضا بجوره ، جميعها مما لفقه رواة السوء والجور بايعاز من السلطات الحاكمة في تلك العصور المظلمة ، فنسبوها الى النبي صلى الله عليه وآله وهو صلى الله عليه وآله منها برأء لمعارضتها الصريحة لمباديء الكتاب والسنة .

ولو لم يكن في المقام الا قول على عليه السلام في خطبته : ... وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ... الخ [٢] لكفى في وهن تلك الروايات المفتعلة على لسان النبي صلى الله عليه وآله وفي ختام الكلام نلفت نظر القاريء الكريم الى ما قاله الامام أبو الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام الى أهالى الكوفة حيث خطب أصحابه وأصحاب الحر (قائد جيش عبيدالله بن زياد آنذاك) فحمدالله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ان

١ . راجع لمعرفة هذه الاحاديث وسائل الشيعة : ج ١٢ الباب ٤٢ ، الاحاديث ١٥ ، ١٤ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٦ ، والباب ٤٤ الحديث ٦ و ٥ .

٢ . نهج البلاغة : الخطبة ٣ .

رسول الله صلى الله عليه وآله قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلا لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله . ألا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمان وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من غيره [١] .

وهذه النصوص الرائعة المؤيدة بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين قاموا في وجه الطغاة من بني أمية وبني العباس، تشهد بأن ما نسب الى الصحابة والتابعين من الاستسلام والسكوت على ظلم الظالمين لكون ذلك من عقيدتهم الاسلاميه ما هو الا بعض مفتعلات أصحاب العروش وقد وضعها وعاظهم ومرتزقتهم والا فالطيبون من الصحابة والتابعون بريئون من هذه النسبة .

صراع بين العقيدة والوجدان

نرى أن بعض الشباب المسلم في البلاد الاسلامية ، قد انخرطوا في الأحزاب السياسية ، ورفضوا الدين من أساسه ، ولعل بعض السبب هو أنهم وجدوا في أنفسهم صراعاً عنيفاً بين العقيدة والوجدان . فمن جانب توحى اليهم فطرتهم وعقيدتهم الانسانية السليمة ، الى أنه

١ . تاريخ الطبرى : ج ٤ حوادث سنة ٦١ ص ٣٠٤ .

تجب مكافحة الظالمين، والخروج عليهم ، ونصرة المظلومين ، وأخذ حقوقهم من أيدي الظالمين ، ومن جانب آخر يسمعون من علماء الدين أو المتزين بلباسه ، أنه لا يجوز الخروج على السلطان ، بل تجب طاعته . وان أمر بالظلم والعدوان ، فحينئذ يقع الشاب في حيرة من أمره بين اتباع الفطرة والعقل السليم . واتباع كلام هؤلاء العلماء الذين ينطقون باسم الدين خصوصاً اذا كان المتكلم رجلا يكيل المجتمع له الاحترام والاكبار ، ويعرفه التاريخ بالخطيب الزاهد كالحسن البصري فانه عند ما سئل عن مقاتلة الحجاج ذلك السيف المشهور على الأمة والاسلام فأجاب : أرى أن لا تقاتلوه فانها ان تكن عقوبة من الله ، فما أنتم براديها ، وان يكن بلاءً فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . فخرج السائلون من عنده وهم يقولون مستنكرين ما سمعوا منه : انطيع هذا العلج ثم خرجوا مع ابن الأشعث على قتال الحجاج [١] .

فاذا سمع الشاب الثوري هذه الكلمة من عميد الدين وخطيبه ـ كما يقال ـ عاد يصف جميع رجال الدين بما وصف به الحسن البصري وبالتالي يخرج من الدين ويتركه ويصف الدين سناداً للظالم وملجأله .

وفي الختام نوجه نظر الأعلام من السنة الى خطورة الموقف في هذه الأيام، وأن أعداء الاسلام لبالمرصاد يصطادون الشباب بسهام

١ . الطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٧ ص ١٦٤ .

الدعاية الكاذبة ، ويعرفون الاسلام بأنه سند الظالمين، وركن الجائرين بحجة أنه ينهى عن الخروج على السلطان الجائر .

والمسلم غير العارف بالدين وما ألصق به ، لايميز بين الحقيقة الناصعة وبين ما ألبس عليها من ثوب رديء قاتم .

وليس هذا أول ولا آخر مورد يجد الشاب الثوري صراعاً في نفسه بين العقلية الانسانية وبين الدعاية الكاذبة عن الاسلام ، فيختار وحي الفطرة ويصبح ثائراً على القوى الطاغية ، ويظن أنه ترك الاسلام باعتقاد أن المتروك هو الدين الحقيقي الذي أنزله الله تعالى على النبي محمد صلى الله عليه وآله وهذه الجريمة متوجهة بالدرجة الأولى على هذا النمط من العلماء .

فواجب على علماء الدين أن يرجعوا الى المصادر الاسلامية الصحيحة في تشخيص ما هو من صميم الدين عما ألصق به ، ولا يقتنعوا بما كتب باسم الدين عن السلف الصالح ، وليس كل ما نسب الى السلف الصالح ، أوقالوا به صميم الدين ، كما أنه ليس كل سلف صالحاً بل هم بين صالح وطالح، وسعيد وشقي، وعالم وجاهل وليس كل سلف أفضل وأتقى وأعلم من كل خلف ، فليدرسوا الأصول المسلمة من رأس ، نعم لا أكتم أن هناك اناساً واقفين على الحقيقة ولكن لا تقتضي مصالحهم الشخصية اظهارها وقد نزل فيهم قوله سبحانه : «ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ـ البقرة :

١٥٩ » كما أن بينهم شخصيات لامعة جاهروا بالحقيقة وأصهروا بها واشتروا رضا الرب بأثمان غالية وتضحيات ثمينة .

هذا امام الحرمين يقول : ان الامام اذا جاء وظهر ظلمه وغيه ولم يرعوا لزاجر عن سوء صنيعه ، فلأهل الحل والعقد التواطؤ على ردعه ، ولو بشهر السلاح ونصب الحروب [١] .

١ . شرح المقاصد : ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢)

عدالة الصحابه بين العاطفة والبرهان

عدالة الصحابة كلهم بلا استثناء ، ونزاهتهم من كل سوء هي احدى الأصول التى يتدين بها أهل السنة وقد راجت تلك العقيدة بينهم حتى اتخذها الامام الأشعري احدى الأصول التي يبتني عليها مذهب أهل السنة جميعاً [١] ونحن نعرض هذه العقيدة على الكتاب أولا وعلى السنة النبوية الصحيحة ثانياً والتاريخ ثالثاً حتى يتجلى الحق باجلى مظاهره ان شاء الله تعالى ، وقبل أن ندخل في صلب المسألة نقدم تعريف الصحابي فنقول :

١ . مقالة الاسلاميين : ج ١ ص ٣٢٣ يقول : ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله سبحانه بصحبة نبيه صلى الله عليه وآله ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم .

من هو الصحابى ؟

انهناك تعاريف مختلفة للصحابي نأتي ببعضها على وجه الاجمال:

١ ـ قال سعيد بن المسيب : الصحابى لا نعده الا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وآله سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أوغزوتين.

٢ ـ قال الواقدي : رأينا أهل العلم يقولون كل من رأى رسول الله وقد أدرك فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب رسول الله، ولو ساعة من نهار ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الاسلام .

٣ ـ قال أحمد بن حنبل : أصحاب رسول الله كل من صحبه شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه .

٤ ـ قال البخاري : من صحب رسول الله أو رآه من المسلمين فهو أصحابه .

٥ ـ وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب : لا خلاف بين أهل اللغة في أن الصحابي مشتق من الصحبة ، قليلا كان أو كثيراً ثم قال : ومع هذا فقد تقرر للأمة عرف فانهم لايستعملون هذا التسمية الا في من كثرت صحبته ولا يجيزون ذلك الا فيمن كثرت صحبته لا على من لقيه ساعة أو مشى معه خطى ، أو سمع منه حديثاً فوجب ذلك أن لا يجري هذا الاسم الا على من هذه حاله ، ومع هذا فان خبر الثقة الأمين عنه مقبول ومعمول به وان لم تطل صحبته ولاسمع

عنه حديثاً واحداً .

٦ ـ وقال صاحب الغوالى : لايطلق اسم الصحبة الا على من صحبته ثم يكفي في الاسم من حيث الوضع ، الصحبة ولو ساعة ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته .

قال الجزري بعد ذكرهذه النقول، قلت : وأصحاب رسول الله على ما شرطوه كثيرون فان رسول الله شهد حنيناً ومعه اثنا عشر ألف سوى الأتباع والنساء، وجاءاليه « هواذن» مسلمين فاستنقذوا حريمهم وأولادهم . وترك مكة مملوءة ناساً وكذلك المدينة أيضاً وكل من اجتازبه من قبائل العرب كانوا مسلمين فهؤلاء كلهم لهم صحبة وقد شهد مع تبوك من الخلق الكثير مالا يحصيهم ديوان وكذلك حجة الوداع وكلهم له صحبة[1] .

ولا يخفى أن التوسع في مفهوم الصحابي على الوجه الذي عرفته في كلماتهم ممالاتساعده اللغة والعرف العام فان صحابة الرجل عبارة عن جماعة تكون لهم خلطة ومعاشرة معه مدة مديدة فلاتصدق على من ليس له حظ الا الرؤية عن بعيد أوسماع الكلام أو المكالمة أوالمحادثة فترة يسيرة أوالاقامة معه زمناً قليلا .

وأظن أن في هذا التبسيط والتوسع غاية سياسيةلما سيوافيك من أنالنبي قدتنبأ بارتداد ثلة من أصحابه بعد رحلته فأرادوا بهذا التبسيط صرف هذه النصوص الى الأعراب وأهل البوادي ، الذين لم يكن

١ . اسدالغابة : ج ١ ص ١٢ ـ ١١ طبع مصر .

لهم حظ من الصحبة الا اللقاء القصير وسيأتي أن هذه النصوص راجعة الى الملتفين حوله الذين كانوا مع النبي ليلا ونهاراً ، صباحاً ومساء الى حد كان النبي يعرفهم بأعيانهم وأشخاصهم وأسمائهم فكيف يصح صرفها الى أهل البوادي والصحاري من الأعراب فتربص حتى تأتيك النصوص .

وعلى كل تقدير فلسنا في هذا البحث بصدد تعريف الصحابة وتحقيق الحق بين هذه التعاريف غير أنا نركز الكلام في أن أهل السنة يقولون بعدالة هذا الجم الغفير المدعوين باسم الصحابة واليك كلماتهم :

عدالة الصحابة جميعهم

قال ابن عبدالبر : تثبت عدالة جميعهم [١].

وقال ابن الاثير: ان السنن التي عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال والحرام الى غير ذلك من أمور الدين، انما تثبت بعد معرفة رجال أسانيدها ورواتها وأولهم والمقدم عليهم أصحاب رسول الله فاذا جهلهم الانسان كان بغيرهم أشد جهلا وأعظم انكاراً ، فينبغي أن يعرفوا بأنسابهم وأحوالهم، هم وغيرهم من الرواة حتى يصح العمل بما رواه الثقات منهم وتقوم به الحجة، فان المجهول لاتصح روايته

١ . الاستيعاب في أسماء الاصحاب : ج ١ ص ٢ في هامش « الاصابة » .

ولاينبغي العمل بما رواه . والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك الا في الجرح والتعديل فانهم كلهم عدول لايتطرق اليهم الجرح لأن الله عزوجل ورسوله زكياهم وعدلاهم وذلك مشهور لانحتاج لذكره [١] .

وقال الحافظ ابن حجر في الفصل الثالث من الاصابة : اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك الاشذوذ من المبتدعة . وقد ذكر الخطيب في الكفاية فصلا نفيساً في ذلك فقال: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم واخباره عن طهارتهم واختياره لهم ثم نقل عدة آيات حاول بها اثبات عدالتهم وطهارتهم جميعاً الى أن قال: روى الخطيب بسنده الى أبي زرعة الرازي قال: اذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله فاعلم أنه زنديق وذلك أن الرسول حق ، والقرآن حق، وما جاء به حق ، وانما أدى الينا ذلك كله الصحابة وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة [٢] . هذه كلمات القوم وكم لها من نظائر نتركها طلباً للاختصار .

تقييم نظرية عدالة الصحابة كلهم :

تقييم هذه النظرية يتم بتبيين أمور :

١ . أسد الغابة : ج ١ ص ٣ .
٢ . الاصابة : ج ١ ص ١٧ .

١ ـ ان البحث عن عدالة الصحابي أو جرحه ليس لغاية ابطال الكتاب والسنة ، ولا لابطال شهود المسلمين ، لما سيوافيك من أن الكتاب شهد على فضل عدة منهم، وزيغ آخرين وهكذا السنة، والغاية في هذا البحث هى الغاية في البحث عن عدالة التابعين ومن تلاهم من رواة القرون المختلفة ، فالغاية في الجميع هي التعرف على الصالحين والطالحين ، حتى يتسنى لنا أخذ الدين عن الصلحاء والتنزه عن أخذه عن غيرهم ، فلو قام الرجل بهذا العمل وتحمل العباء الثقيل ، لما كان عليه لوم فلو قال أبو زرعة مكان قوله الانف ، هذا القول : اذا رأيت الرجل يتفحص عن أحد من أصحاب الرسول لغاية العلم بصدقه أو كذبه ، أو خيره أو شره ، حتى يأخذ دينه عن الخيرة الصادقين ، ويحترز عن الاخرين ، فاعلم أنه من جملة المحققين في الدين والمتبحرين للحقيقة ، لكان أحسن وأولى بل هو الحسن والمتعين .

ومن غير الصحيح أن يتهم العالم أحداً ، يريد التثبت في أمور الدين والتحقيق في مطالب الشريعة (بالزندقة وأنه يريد جرح شهود المسلمين لابطال الكتاب والسنة) وما شهود المسلمين الا آلاف المكتظة من أصحابه صلى الله عليه وآله فلا يضر بالكتاب والسنة جرح لفيف منهم وتعديل قسم منهم . وليس الدين القيم قائماً بهذا الصنف من المجروحين « ما هكذا تورد يا سعد الابل » .

٢ ـ ان هذه النظرية تكونت من العاطفة الدينية التي حملها

المسلمون تجاه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وجرتهم الى تبني تلك الفكرة وقد قيل : من عشق شيئاً عشق لوازمه وآثاره .

ان صحبة الصحابة لم تكن بأكثر ولا أقوى من صحبة امرأة نوح وامرأة لوط فما أغنتهما عن الله شيئاً قال سبحانه : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتا هما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ـ التحريم : ١٠ » .

ان التشرف بصحبة النبي لم يكن أكثر امتيازاً وتأثيراً من التشرف بالزواج من النبي وقد قال سبحانه في شأن أزواجه : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ـ الأحزاب : ٣٠ » .

٣ـ ان أساتذة العلوم التربوية كشفوا عن قانون مجرب وهو أن الانسان الواقع في اطار التربية ، انما يتأثر بعواملها اذا لم تكمل شخصيته الروحية والفكرية لأن النفوذ في النفوس المكتملة شخصية والتأثير عليها والثورة على أفكارها وروحياتها ، يكون صعباً جداً (لا أقول أمراً محالا) بخلاف ما اذا كان الواقع في اطارها صبياً يافعاً ، أو شاباً في عنفوان السن ، اذ عندئذ يكون قلبه وروحه كالأرض الخالية ينبت فيها ما ألقى بها ، وعلى هذا الأساس لا يصح لنا أن نقول : أن الصحبة والمجالسة وسماع بعض الايات والأحاديث ، أوجدت ثورة عارمة في صحابة النبي صلى الله عليه وآله وأزالت شخصياتهم

المكونه طيلة سنين في العصر الجاهلي ، وكونت منهم شخصيات عالية تعد مثلا للفضل والفضيلة .

مع أنهم متفاوتين في السن ومقدار الصحبة ، مختلفين في الاستعداد والتأثر ، وحسبك أن بعضهم أسلم وهو صبي لم يبلغ الحلم وبعضهم اسلم وهوفي أوليات شبابه ،كما أسلم بعضهم في الأربعينات والخمسينات من أعمارهم الى أن أسلم بعضهم وهو شيخ طاعن في السن يناهز الثمانين والتسعين .

فكما أنهم كانوا مختلفين في السن عند الانقياد للاسلام ،كذلك كانوا مختلفين أيضا في مقدار الصحبة فبعضهم صحب النبي صلى الله عليه وآله من بدء البعثة الى لحظة الرحلة ، وبعضهم أسلم بعد البعثة وقبل الهجرة ، وكثير منهم أسلموا بعد الهجرة وربما أدركوا من الصحبة سنة أو شهراً أو أياماً أو ساعة فهل يصح أن نقول: ان صحبة ما قلعت ما في نفوسهم جميعاً من جذور غير صالحة وملكات ردية وكونت منهم شخصيات ممتازة أعلى وأجل من أن يقعوا في اطار التعديل والجرح .

ان تأثير الصحبة عند من يعتقد بعدالة الصحابة كلهم أشبه شيء بمادة كيمياوية تستعمل في تحليل عنصر كالنحاس الى عنصر آخر كالذهب ، فكأن الصحبة قلبت كل مصاحب الى انسان مثالي يتحلى بالعدالة ، وهذا مما يرده المنطق والبرهان السليم وذلك لأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لم يقم بتربية الناس وتعليمهم عن طريق

الاعجاز « فلو شاء لهداكم أجمعين ـ الأنعام : ١٤٩ » بل قام بارشاد الناس ودعوتهم الحق وصبهم في بوتقات الكمال مستعيناً بالأساليب الطبيعية والامكانيات الموجودة كتلاوة القرآن الكريم ، والنصيحة بكلماته النافذة ، وسلوكه القويم وبعث رسله ، ودعاة دينه الى الأقطار ونحو ذلك . والدعوة القائمة على هذا الأساس ، يختلف أثرها في النفوس حسب اختلاف استعدادها وقابلياتها فلا يصح لنا أن نرمي الجميع بسهم واحد .

الى هنا خرجنا بهذه النتيجة : أن الأصول التربوية تقضي بأن بعض الصحابة يمكن أن يصل في قوة الايمان ورسوخ العقيدة الى درجات عالية ، كما يمكن أن يصل بعضهم في الكمال والفضيلة الى درجات متوسطة ، ومن الممكن أن لا يتاثر بعضهم بالصحبة وسائر العوامل المؤثرة الا شيئاً طفيفاً لا يجعله في صفوف العدول وزمرة الصالحين .

هذا هو مقتضى التحليل حسب الأصول النفسية والتربوية غير أن البحث لا يكتمل ، ولا يصح القضاء البات الا بالرجوع الى القرآن الكريم حتى نقف على نظره فيهم كما تجب علينا النظرة العابرة الى كلمات الرسول في حقهم ، وملاحظة سلوكهم وحياتهم في زمنه صلى الله عليه وآله وبعده .

الصحابة في الذكر الحكيم :

نرى أن الذكر الحكيم يصنف صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويمدحهم في ضمن أصناف نأتي ببعضها :

١ ـ السابقون الاولون :

يصف الذكر الحكيم السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بأن الله رضى عنهم وهم رضوا عنه، قال عز من قائل: « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ـ التوبة : ١٠٠ » .

٢ ـ المبايعون تحت الشجرة

يصف سبحانه جماعة من الصحابة الذين بايعوه تحت الشجرة بنزول السكينة عليهم ويقول في محكم كتابه : « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ـ الفتح : ١٨ » .

٣ ـ المهاجرون

وهؤلاء هم الذين يصفهم تعالى ذكره بقوله: « للفقراء المهاجرين

الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون ـ الحشر : ٨ » .

٤ ـ أصحاب الفتح :

هـؤلاء هم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى في آخر سـورة الفتح بقولـه : « محمد رسول الله والذين معه أشـداء على الكفار رحماء بينهم ، تريهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانـاً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل، كزرع أخرج شطأه فآزره، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الـزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمـنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما ـ الفتح : ٢٩ » .

الاصناف الاخرى للصحابة :

فالناظر المخلص المتجرد عـن كل رأى مسبق ، يجـد في نفسه تكريماً لهـؤلاء الصحابة غير أن القضاء البات في عامة الصحابـة يستوجب النظر الى كل الايات القرآنية الواردة في حقهم فعندئذ يتبين لنا أن هناك أصنافاً أخرى من الصحابة غير ما سبق ذكرها ، تمنعنا من أن نضرب الكـل بسهم واحد ، ونصف الكل بالرضا والرضـوان . وهذا الصنف مـن الايات يدل بوضوح على وجود مجموعات مـن

الصحابة تضاد الأصناف السابقة في الخلقيات والملكات والسلوك والعمل واليك قسطاً منهم :

١ ـ المنافقون المعروفون :

المنافقون المعروفون بالنفاق الذين نزلت في حقهم سورة المنافقين ، قال سبحانه : « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله . والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون... الى آخر سورة المنافقين » .

فهذه الايات تعرب بوضوح عن وجود كتلة قوية من المنافقين بين الصحابة آنذاك وكان لهم شأن فنزلت سورة قرآنية كاملة في حقهم.

٢ ـ المنافقون المختفون :

تدل بعض الايات على أنه كانت بين الأعراب القاطنين خارج المدينة ومن نفس أهل المدينة ، جماعة مردوا على النفاق وكان النبي الأعظم لا يعرف بعضهم ، ومن تلك الايات قوله سبحانه : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق[1] لا تعلمهم نحن نعلمهم ـ التوبة : ١٠١ » .

لقد أعطى القرآن الكريم عناية خاصة بعصبة المنافقين وأعرب

١ . مردوا على النفاق : تمرنوا عليه وتمارسوا عليه .

عن نواياهم وندد بهم في السور التالية : البقرة ،آل عمران ، المائدة التوبة ، العنكبوت ، الأحزاب ، محمد ، الفتح ، الحديد ، المجادلة الحشر ، والمنافقين .

وهـذا ان دل على شيء فانما يـدل على أن المنافقين كانوا جماعة هائلـة في المجتمع الاسلامي بين معروف ، عرف بسمـة النفاق ووصمـة الكذب ، وغير معروف بذلك مقنع بقنـاع التظاهر بالايمان والحب للنبي ، فلو كان المنافقون جماعة قليلة غير مؤثرة لما رأيت هذه العناية البالغة في القرآن الكريم وهناك ثلة من المحققين كتبوا حول النفاق والمنافقين رسائل وكتابات وقد قام بعضهم باحصاء ما يرجع اليهم فبلغ مقداراً يقرب من عشر القرآن الكريم ،[1] وهذا ان دل على شيء فانما يدل على كثرة أصحاب النفاق وتأثيرهم يـوم ذاك في المجتمع الاسلامي وعلى ذلك لا يصح لنا الحكم بعدالة كل مـن صحب مع غض النظر عن تلك العصابة المجرمـة ، المتظاهرة بالنفاق أو المختفية في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله .

٣ ـ مرضى القلوب :

وهذه المجموعة من الصحابة لم يكونوا من زمرة المنافقين بل كانوا يتلونهم في الروحيات والملكات مع ضعف في الايمان والثقـة بالله ورسولـه صلى الله عليه وآله قال سبحانه بحقهم : « واذ يقـول

١ . النفاق والمنافقون : تأليف الاستاذ : ابراهيم على سالم المصرى .

المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ـ الأحزاب : ١١ » .

فانى لنـا أن نصف مرضى القلوب الذين ينسبون خلف الوعد الى الله سبحانه والى رسوله صلى الله عليه وآله بالتقوى والعدالة ؟

٤ ـ السماعون :

تلك المجموعة كانت قلوبهـم كالريشة في مهب الريح تتمايل تارة الى هؤلاء وأخرى الى أولئك بسبب ضعف ايمانهم وقـد حذر الباري عزوجل المسلمين منهم حيث قال عز من قائل ، واصفاً اياهم بالسماعون لأهل الريب : « انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الاخروارتابت قلوبهم، فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لوخرجوا فيكم مـا زادوكم الاخبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ـ التوبة : ٤٧ ـ ٤٥» وذيل الاية دليل على كون السماعين من الظالمين لامن العدول .

٥ ـ خالطوا العمل الصالح بالسيء :

وهؤلاء هم الذين يقومون بالصلاح والفلاح تـارة ، والفساد والعبث مرة أخرى ، فلأجل ذلك خلطوا عملا صالحاً بعمـل سيء

قال سبحانه : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاصالحاً وآخر سيئاً ـ التوبة : ١٠٢ » .

٦ ـ المشرفون على الارتداد :

ان بعض الايات تـدل على أن مجموعة من الصحابة كانت قـد أشرفت على الارتداد يوم دارت عليهم الدوائر، وكانت الحرب بينهم وبين قريش طاحنة فأحسوا بعضهم، وقد أشرفوا على الارتداد عرفهم الحق سبحانه بقوله : « وطائفة قـد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل ان الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالايبدون لك ، يقولون لوكان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هيهنا ـ آل عمران : ١٥٤ » .

٧ ـ الفاسق :

ان القرآن الكريم يحث المؤمنين وفي مقدمتهـم الصحابـة الحضور، على التحرز من خبر الفاسق حتى يتبين ، فمن هذا الفاسق الذي أمر القرآن في التحرزمنه ؟ اقرأ أنت ما نزل حول الاية مـن شأن النزول واحكم بما هوالحق . قال سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ـ الحجرات : ٦ » .

فان من المجمع عليه بين أهل العلم أنه نزل في حق الوليد بن عقبة بن أبي معيط وذكره المفسرون في تفسير الاية فلانحتاج الى ذكر المصادر .

كما نزل في حقه قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون ـ السجدة : ١٨ » نقل الطبري في تفسيره باسناده انه كان بين الوليد وعلي ، كلام ، فقال الوليد : أنا أبسط منك لساناً وأحد منك سناناً وأرد منك للكتيبة . فقال علي : اسكت فانك فاسق فأنزل الله فيهما : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون »[١] .

وقد نظم الحديث حسان بن ثابت (شاعر عصر الرسالة) وقال:

أنزل الله والكتاب عزيز ... في علي وفي الوليد قرآنا
فتبوء الوليد اذ ذاك فسقاً ... وعلي مبوء ايمانا
ليس من كان مؤمناً عرف ... الله كمن كان فاسقاً خوانا
سوف يدعى الوليد بعد قليل ... وعلي الى الحساب عيانا
فعلي يجزى بذاك جناناً ... ووليد يجزى بذاك هوانا[٢]

أفهل يمكن لباحث حر ، التصديق بما ذكره ابن عبد البر وابن

١ . تفسير الطبرى : ج ٢١ ص ٦٢ ، وتفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٦٢ .
٢ . تذكرة الخواص سبط ابن الجوزى : ص ١١٥ ، و« كفاية » الگنجى : ص ٥٥ ، و« مطالب السؤول » لابن طلحة : ص ٢٠ ، وشرح النهج ، الطبعة القديمة : ج ٢ ص ١٠٣ ، وجمهرة الخطب لاحمد زكى : ج ٢ ص ٢٣ ، لاحظ الغدير : ج ٢ ص ٤٢ .

الأثيروابن حجر وفي مقدمتهم أبو زرعة الرازي الذى هاجم المتفحصين المحققين في أحوال الصحابة واتهمهم بالزندقة .

٨ ـ المسلمون غير المؤمنين :

ان القرآن يعد جماعة من الأعراب الذين رأوا النبي وشاهدوه وتكلموا معه ، مسلمين غير مؤمنين وانهم بعد لم يدخل الايمان في قلوبهم قال سبحانه : «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً . ان الله غفور رحيم ـ الحجرات : ١٤» .

أفهل يصح عد عصابة غير مؤمنين من العدول الأتقياء ؟ !

٩ ـ المؤلفة قلوبهم .

اتفق الفقهاء على أن المؤلفة قلوبهم ممن تصرف عليهم الصدقات قال سبحانه : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ـ التوبة : ٦٠ » .

والمراد من « المؤلفة قلوبهم » : الذين كانوا في صدر الاسلام ممن يظهرون الاسلام، ـ يتألفون بدفع سهم من الصدقة اليهم لضعف يقينهم ـ وهناك أقوال آخر فيهم متقاربة والكل يهدف الى الاعطاء

لمن لا يتمكن اسلامه حقيقة الا بالعطاء [٣] .

١٠ ـ المولون أمام الكفار :

ان التولي عن الجهاد والفرار منه ، من الكبائر الموبقة التي نددبها سبحانه بقوله: «يا أيها الذين آمنوا اذ القيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ـ الأنفال : ١٦ ـ ١٥ » .

ان التحذير من التولي والفرار من الزحف، والحث على الصمود أمام العدو، لم يصدر من القرآن الابعد فرار مجموعة كبيرة من صحابة النبي في غزوة « احد » و « حنين » أما الأول : فيكفيك قول ابن هشام في تفسير الآيات النازلة في احد ، قال : ثم انبهم بالفرار عن بينهم وهم يدعون ، لا يعطفون عليه لدعائه اياهم فقال : « اذ تصعدون ولاتلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ـ آل عمران:١٥٣» وأما الثاني : فقد قال ابن هشام فيه ايضاً: فلما انهزم الناس وراى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله من جفاة أهل مكة ، الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن فقال أبوسفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وصرخ جبلة بن حنبل ألا بطل السحر

١ ، تفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٨٧ ، لاحظ: المغني لابن قدامة: ج ٢ ص ٥٥٦.

اليوم . . . [١] .

أبعـد هذا يصح أن يعد جميع الصحابة بحجة أنهم رأوا نور النبوة عدولا أتقياء .

قال القرطبي في تفسيره قد فر الناس يوم « احد » وعفى الله عنهم وقال الله فيهم يوم حنين : « ثم وليتم مدبرين » ثم ذكر فرار عدة من أصحاب النبي من بعض السرايا [٢] .

هذا الامام الواقدي يرسم لنا تولي الصحابة منهزمين ويقول : فقالت أم الحارث فمر بي عمر بن الخطاب فقالت أم الحارث يا عمر ما هذا ؟ فقال عمر : « أمر الله » وجعلت ام الحارث تقول يا رسول الله من جاوز بعيرى فاقتله [٣] .

هذه هي الاصناف العشرة من صحابة النبي ممن لا يمكن توصيفهم بالعدالـة والتقوى ، أتينا بها في هذه العجالة مضافـاً الى الأصناف المضـادة لها ولكن نلفت نظر القاريء الكريم الى الايـات الواردة في أوائل سورة البقـرة وسورة النساء وغيرها مـن الايات القرآنية

١ . سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ١١٤ ، وج ٤ ص ٤٤٤ ، ولاحظ التفاسير .

٢ . تفسير القرطبى : ج ٧ ص ٣٨٣ .

٣ . مغازى الواقدى : ج ٣ ص ٩٠٤ . ان تعليل الفرار عـن الزحف بقضاء الله كتعليل عباد الاوثان شركهم به كما فى قوله سبحانه حاكياً عن المشركين « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ـ الانعام : ١٤٨ » وتلزم من ذلك تبرئة العصاة والكفار لان أعمالهم كلها بقضاء منه .

فترى فيهـا أن الايمان بعدالة الصحابة مطلقاً خطأ في القول وزلة في الرأي ، يضاد نصوص الذكر الحكيم ولـم يكن الصحابة الا كسائر الناس فيهم صالح تقي ، بلغ القمة في التقى والنزاهة ، وفيهم طالح شقي ، سقط الى هوة الشقاء والدناءة .

ولكن الـذي يميز الصحابة عن غيرهم أنهم رأوا نـور النبوة وتشرفوا بصحبـة النبي صلى الله عليه وآله وشاهدوا معجزاتـه في حلبة المباراة بأم أعينهم ولأجل ذلك تحملوا مسؤلية كبيرة أمـام الله وأمام رسوله وأمام الأجيال المعاصرة لهم اللاحقة بهم ، فانهم ليسوا كسائر الناس ، فزيغهم وميلهم عن الحق أشد لا يعـادل زيغ أكثر الناس وانحرافهم وقد قال سبحانه فيحق أزواج النبي صلى الله عليه وآله بقوله : «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء» ، لاحظ «سورة الأحزاب ، الاية : ٣١ ـ ٣٠ » فلو انحرف هؤلاء فقد انحرفوا في حال شهدوا النور، ولمسوا الحقيقة ، وشتان الفرق بينهم وبين غيرهم.

ألصحابة فى السنة النبوية :

اذا راجعنا الصحاح والمسانيد نجد أن أصحابهم أفردوا باباً بشأن فضائل الصحابة الا أنه لم يفردوا باباً في مثالبهم بل أقحموا ما يرجع الى هذه الناحية في أبواب اخر ، ستراً لمثالبهم وقد ذكرها البخاري في الجزء التاسع من صحاحه في باب الفتن ، وأدرجها ابن الأثير في جامعه في أبواب القيامة عند البحث عن الحوض والوضع

الطبيعى لجمع الأحاديث وترتيبها ، كان يقتضي عقد باب مستقل للمثالب في جنب الفضائل حتى يطلع القاريء على قضاء السنة حول صحابة النبي الأكرم .

روى أبو حازم عن سهل بن سعد قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : اني أفرطكم على الحوض من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم ... قال ابو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم بهذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلا يقول ، فقلت : نعم قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول : انهم مني فقال : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي . أخرجه البخاري ومسلم [١] .

وظاهر الحديث أن المراد بقرينة « بدل بعدي » أصحابه الذين عاصروه وصحبوه وكانوا معه مدة ثم مضوا . روى البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي ـ أو قال من أمتي ـ فيحلؤون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول . انه لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى [٢] .

١ . جامع الاصول لابن الاثير : ج ١١ كتاب الحوض فى ورود الناس عليه ص ١٢٠ رقم الحديث ٧٩٧٢ و« الفرط » : المتقدم قومه الى الماء ويستوى فيه الواحد والجمع ، يقال رجل فرط وقوم فرط .

٢ . جامع الاصول : ج ١١ رقم الحديث ٧٩٧٣ ص ١٢٠ .

ثم قال وللبخاري : ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال بينما أنا قائم على الحوض اذاً زمرة حتى اذا عرفتهم خرج بيني وبينهم فقال : هلم ، فقلت أين ؟ فقال : الى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ قال: انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ثم اذاً زمرة، حتى اذا عرفتهم خرج رجل بيني وبينهم فقال لهم : هلم فقلت الى أين ؟ قال : الى النار والله قلت : ما شأنهم ؟ قال انهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم الا همل النعم [1] .

وظاهر الحديث بقرينة «حتى اذا عرفتهم» وقوله «ارتدوا على أدبارهم القهقرى» أن الذين أدركوا عصره وكانوا معه هم الذين يرتدون بعده .

الصحابة والتاريخ المتواتر :

كيف يمكن عد الصحابة جميعاً عدولا والتاريخ بين أيدينا نرى أن بعضهم ظهرعليه الفسق في حياة النبي وبعده ، كوليد بن عقبة ، أما الاول فقد عرفت نزول الاية فى حقه وأما الثاني فروىأصحاب السير والتاريخ أنالوليد بن عقبه أيام ولايته بكوفة شرب الخمروقام ليصلي بالناس صلاة الفجر فصلى أربع ركعات ، وكان يقول في ركوعه

١ . جامع الاصول : ج ١١ ص ١٢١ ، و« همل النعم »كناية عن أن الناجى عدد قليل ، وقد اكتفينا من الكثير بالقليل ومن أراد الوقوف على مالم نذكره فليرجع الى « جامع الاصول » .

وسجوده : اشربي واسقني ثم قام في المحراب ثم سلم وقال هل أزيدكم . . . الى آخر ما ذكروه [١] .

وبعضهم ظهرت عليه سمة الارتداد عند ما بدت علائم الهزيمة عند المسلمين فقال : لاتنتهي هزيمتهم دون البحر[٢] وقال الاخر أما بطل السحر [٣] .

وهذا رسول الله يخاطب ذي الخويصرة عند ما قال للنبي في تقسيم غنائم حنين اعدل بقوله : ويحك ان لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ ثم قال : فانه يكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية[٤] .

وهذا أبوسفيان يضرب برجله قبر حمزة عليه السلام ويقول : ذق عقق ان الملك الذي كنا نتنازع عليه أصبح اليوم بيد صبياننا[٥] .

وهذا أبوسفيان عند ما بويع عثمان، دخل اليه بنو أبيه حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم فقال أبوسفيان: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا : لا . قال : يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة فوالذي يحلف به

١ . الكامل لابن الاثير : ج ٢ ص ٤٢ . أسدالغابة : ج ٥ ص ٩١ وغيرهما . وقد أقام الامام أمير المؤمنين على عليه السلام عليه الحد في خلافة عثمان باصرار من الناس والحاح منهم لئلا تتعطل الحدود .

٢ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٤٤٣ والقائل أبوسفيان .

٣ . سيرة ابن هشام: ج ٤ ص ٤٤٤ والقائل كلدة ابن الحنبل فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك .

٤ . سيرة ابن هشام : ج ٤ ص ٤٩٦ .

٥ . قاموس الرجال : ج ١٠ ص ٨٩ نقلا عن الشرح الحديدى .

أبوسفيان ما من عذاب ولاجنة ولانار ولابعث ولاقيامة[١] .

أفهل بعدهذه الكلمات الردة الخبيثة يصح لمسلم أن يعد هؤلاء وأمثالهم من صنف العدول وطبقة الصالحين ويعدهم جرحهم أبطالا للكتاب والسنة وتضعيفاً لشهود المسلمين .

آراء الصحابة بعضهم حول البعض :

النظرة العابرة لتاريخ الصحابة تقتضي بأن بعضهم كان يتهم الاخر بالنفاق والكذب، كما أن بعضهم يقاتل بعضاً ، ويقود جيشاً لمحاربته فقتل بين ذلك جماعة كثيرة ، أفهل يمكن تبرير أعمالهم من الشاتم والمشتوم ، والقاتل والمقتول ، عدولا ومثلا للفضل والفضيلة واليك نزراً يسيراً من تاريخهم مما حفظته يدالنقل غفلة عن المبادي العامة لأصحاب الحديث .

١ ـ روى البخاري مشاجرة سعد بن معاذ مع سعد بن عبادة ـ سيد الخزرج ـ في قضية الافك قال : قام رسول الله صلى الله عليه وآله فاستعدا يومئذ من عبدالله بن أبي وهو على المنبر فقال : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، والله ما علمت على أهلي الاخيراً ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الاخيراً وما يدخل على أهلي الامعي فقام سعد بن معاذ، أخوبني عبدالأشهل

١ . الشرح الحديدى : ج ٩ ص ٥٣ نقلا عن كتاب السقيفة للجوهرى .

فقال : أنا رسول الله اعذرك فان كان مـن الأوس ضربت عنقه ، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ، ففعلنا أمرك ، فقـام رجل من الخزرج : وهوسعد بن عبادة وهوسيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحاً ، ولكن احتملته الحمية فقـال لسعد : كذبت لعمر الله لاتقتلـه ولاتقدر على قتله ولوكان من رهطك ما أحببت أن يقتل . فقام أسيدبن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين . فثـار الحيـان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله قائم على المنبرفلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت[1] .

اقرأ فاقض فان هؤلاء يتهم بعضه بعضاً بالكذب والنفاق ، ونحن نعتبرهم عدولا صلحاء . والانسان على نفسه بصيرة .

٢ ـ ان الحروب الدائرة بيـن الصحابـة أنفسهم وحتى الثورة التي أقامها أصحاب النبي ومن أتبعهم على عثمان بن عفان حتى جرت الى قتله ، أفضل دليل على أنـه لا يصح تعريف الصحابة وتوصيفهم بالعدالة والتقوى اذكيف يصح أن يكون القاتل والمقتول على الحق والعدالة .

وهذا هو طلحة وهذا الزبير قد جهزا جيشاً جراراً لحرب الامام علي عليه السلام واعانتهما أم المؤمنين فقتلت جماعة كثيرة بين ذلك

١ . صحيح البخاري : ج ٥ ص ١١٩ ـ ١١٨ في تفسير سورة النور .

فهل يمكن تعديل كل هذه الجماعة حتى الباغين على الامام المفترض الطاعة بالنص أولا، وبيعة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان ثانياً ؟ !

وهذا معاوية بن أبي سفيان يعد من الصحابة وقد صنع بالاسلام والمسلمين ما قد صنع مما هو مشهور في التاريخ ومن ذلك أنه حارب الامام علي عليه الصلاة والسلام في حرب صفين وكان مع علي كل من بقي من البدريين وهم قريب من مئة شخص ، فهل من حارب هؤلاء الصحابة جميعاً بما فيهم سيد الصحابة على عليه السلام يعد من أهل الفضل والصلاح والعدالة ؟ ! فاقض ما أنت قاض .

نقل صاحب المنار : أنه قال أحد علماء الالمان في « الاستانة » لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : انه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا « برلين » قيل له لماذا ؟ قال لأنه هو الذي حول نظام الحكم الاسلامي عن قاعدته الدميقراطية الى عصبية الغلب (الملك لمن غلب) ولولا ذلك لعم الاسلام العالم كله ولكنا نحن الالمان وسائر شعوب اوربة عرباً مسلمين [1] .

هذا حال المؤمنين ومن يترحم عليه خطباء الجمعة والجماعة فكيف حال غيره، أضف اليه ماله من الموبقات والمهلكات مما لا يمكن لأحد انكاره . والاعتذار منه في تبرير أعماله القاسية باجتهاده في ما

١ . المنار : ج ١١ ص ٢٦٩ في تفسير سورة يونس .

ناءبه وباء باثمه من حروب دامية وازهاق نفوس بريئة تعد بالالاف المؤلفة ليس الا ضلالة وخداعاً للعقل فانه اجتهاد على خلاف الله وضد رسوله والايصح أن يعد جميع المناوئين للاسلام مجتهدين في صدر الاسلام ومؤخره .

هذا مجمل القول في هذا الأصل الذي اتخذه أصحاب الحديث أصلا من أصول الاسلام ثم أدخله الأشعرى في الأصول الذي يتبناها أكثر أهل السنة والجماعة .

التعذير التافه أو أسطورة الاجتهاد :

وما أتفه قول من يريد تبرير عمل هؤلاء بالاجتهاد ، وأنهم كانوا كانوا مجتهدين في أعمالهم وأفعالهم أهل يصح تبرير عمل القتل والفتك والخروج على الامام المفترضة طاعته ، بالاجتهاد . ولو صح هذا الاجتهاد (ولن يصح أبداً) لصح عن كل من خالف الحق وحالف الباطل من اليهود والنصارى وغيرهم من الطغام اللئام .

أي قيمة للاجتهاد في قبال النص وصريح السنة النبوية واجماع الامة ؟ أي قيمة للاجتهاد الذي أباح دماء المسلمين ودمر كيانهم وشق عصاهم وفكك عرى وحدتهم . أي ، أي ، أي ؟

ان القائلين بعدالة الصحابة يتمسكون بما يروون عن النبي أنه قال : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهديتم [1] غير أن متن الحديث

١ . جامع الاصول : ج ٩ كتاب الفضائل ص ٤١٠ رقم الحديث ٦٣٥٩ .

يكذب صدوره عن النبي اذ ليس كل نجم هادياً للانسان في البر والبحر بل هناك نجوم خاصة موجبة للاهتداء ولأجل ذلك قال سبحانه: « وعلامات وبالنجم يهتدون ـ النحل : ١٦ » .

ولم يقل « وبالنجوم يهتدون » ولو كان كل نجم هادياً للضال لكان الأنسب الاتيان بصيغة الجمع . ولو افترضنا صحة الاهتداء بكل نجم في السماء ، أهل يمكن أن يكون كل صحابي نجماً لامعاً في سماء الحياة ، هادياً للأمة..

هذا قدامة بن مظعون صحابي بدري يعد من السابقين الأولين ومن المهاجرين هجرتين روي أنه شرب الخمر وأقام عليه عمر الحد [١] كما أن المشهور أن عبدالرحمان الأصغر بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر [٢] .

وقد ارتد طلحة بن خويلد عن الاسلام وادعى النبوة ومثله مسيلمة ابن العنسي الكذاب وأمرهما أشهر من أن يذكر .

ان بعض الصحابة خضب وجه الأرض بالدماء فاقرأ تاريخ بسر ابن أرطاة حتى أمه قتل طفلين لعبيد الله بن عباس . وكم وكم بين الصحابة لدة هؤلاء من رجال العبث والفساد قد احتفل التاريخ بضبط مساويهم أفبعد هذه البينات يصح لأي ابن أنثى أن يتقول بعدالة الصحابة مطلقاً ويتخذها مذهباً ويرمي المخالف له ، بما هو بريء منه.

١ . أسد الغابة : ج ٤ ص ١٩٩ وسائر الكتب الرجالية .

٢ . أسد الغابة : ج ٣ ص ٣١٢ .

والنظرية القويمة المستقيمة هي نظرية الشيعة المنعكسة في الدعاء المروي عن الامام الطاهر علي بن الحسين عليهما السلام ترى أنه يدعو الله سبحانه في حق أصحاب محمد صلى الله عليه وآله لا لكلهم بل الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره والذين عاضدوه وأسرعوا الى وفادته واليك تلك الكلمة المباركة من الصحيفة السجادية :

« اللهم وأصحاب محمد صلى الله عليه وآله خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا الى وفادته، وسابقوا الى دعوته ، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في اظهار كلمته ، وقاتلوا الاباء والأبناء في تثبيت نبوته وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر اذا تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القربات ، اذ سكنوا في ظل قرابته ، فلا تنس اللهم ما تركوا لك وفيك ، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك ، وكانوا مع رسولك ، دعاة لك اليك واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش الى ضيقه ، ومن كثرت في اعزاز دينك من مظلومهم اللهم وأوصل الى التابعين لهم باحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا . . . »[1] .

١ : الصحيفة السجادية : الدعاء الرابع مع شرحه: في ظلال الصحيفة السجادية ص ٥٦ ـ ٥٥ :

خاتمة المطاف :

ان لابي المعالي الجويني كلاماً حول الصحابة دعافيه الى أن الواجب، الكف والامساك عن الصحابة وعما شجر بينهم، نقله الشارح الحديدي في شرحه على نهج البلاغة كما نقل نقد بعض الزيدية له الذي سمعه من أستاذه النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي البصري في سنة احدى وعشرة وستمائة ببغداد وعنده جماعة وما نقله عن استاذه رسالة مبسوطة في الموضوع فيها نكات بديعة لايسعنا ايرادها في المقام ولذلك نقتبس بعضها وقد نقل فيها قضايا تعرب عن جريان السيرة على النقد والرد والمشاجرة واليك بعضها :

١ ـ هذه عائشة أم المؤمنين خرجت بقميص رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت للناس : هذا قميص رسول الله لم يبل ، وعثمان قد أبلى سنته ثم تقول: أقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا ثم لم ترض بذلك حتى قالت : أشهد أن عثمان جيفة على الصراط غداً .

٢ ـ هذا المغيرة بن شعبة وهو من الصحابة ، ادعى عليه الزنا وشهد عليه قوم بذلك ، فلم ينكر ذلك عمر ، ولا قال : هذا محال وباطل لأن هذا صحابي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجوز عليه الزنا وهلا أنكر عمر على الشهود وقال لهم: ويحكم هلا تغافلتم عنه لما رأيتموه يفعل ذلك ، فان الله تعالى قد أوجب الامساك عن مساوي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأوجب الستر

عليهم ، وهلا تركتموه لرسول الله في قوله دعوالي أصحابي ، ما رأينا عمر الا قد انتصب لسماع الدعوى واقامة الشهادة وأقبل يقول للمغيرة : يا مغيرة ذهب ربعك، يا مغيرة ذهب نصفك، يا مغيرة ذهب ثلاثة أرباعك حتى اضطرب الرابع فجلد الثلاثة وهلا قال المغيرة لعمر: كيف تسمع في قول هؤلاء وليسوا من الصحابة وأنا من الصحابة ورسول الله صلى الله عليه وآله قد قال : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ؟ ما رأيناه قال ذلك بل استسلم لحكم الله تعالى .

٣ ـ وها هنا ، من هو أمثل من المغيرة وأفضل ، كقدامة بن مظعون ، لما شرب الخمر في أيام عمر فأقام عليه الحد وهو رجل من علية الصحابة ومن أهل بدر المشهود لهم بالجنة فلم يرد عمر الشهادة ولادرء عنه الحد لعلة أنه بدري ولا قال قد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذكر مساوي الصحابة وقد ضرب عمر أيضاً ابنه حداً فمات وكان ممن عاصر رسول الله صلى عليه وآله ولم تمنعه معاصرته له من اقامة الحد عليه .

٤ـ كيف يصح أن يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . لأن هذا يوجب أن يكون أهل الشام في صفين على هدى ، وأن يكون أهل العراق أيضاً على هدى ، وأن يكون قاتل عمار بن ياسر مهتدياً ، وقد صح الخبر الصحيح أنه صلى الله عليه وآله قال له : تقتلك الفئة الباغية ، وقال في القرآن : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيىء الى أمر الله ـ الحجرات : ٩ » فدل على أنها

مادامت موصوفة بالمقام على البغي مفارقة لأمر الله ، ومن يفارق أمر الله لا يكون مهتدياً وكان يجب أن يكون بسر بن أبي أرطاة الذي ذبح ولدي عبيدالله بن عباس الصغيرين ، مهتدياً ، لأن بسراً من الصحابة أيضاً وكان يجب أن يكون عمرو بن العاص ومعاوية اللذان كانا يلعنان علياً أدبار الصلاة وولديه ، مهتدين ، وقد كان في الصحابة من يزني ، ومن يشرب الخمر ، كأبي محجن الثقفي ، ومن يرتد عن الاسلام، كطليحة بن خويلد فيجب أن يكون كل من اقتدى بهؤلاء في أفعالهم مهتدياً .

٥ ـ هذا الحديث (أصحابي كالنجوم) من موضوعات متعصبة الأموية فان لهم من ينصرهم بلسانه وبوضعه الأحاديث اذا عجز عن نصرهم بالسيف وكذا القول في الحديث الاخر وهو قوله : القرن الذي أنا فيه ، ومما يدل على بطلانه أن القرن الذي جاء بعده بخمسين سنة ، شر قرون الدنيا وهو أحد القرون التي ذكرها في النص وكان ذلك القرن هو القرن الذي قتل فيه الحسين . وأوقع بالمدينة ، وحوصرت مكة ، ونقضت الكعبة وشربت خلفاؤه والقائمون مقامه المنتصبون في منصب النبوة ، الخمور ، وارتكبوا الفجور ، كما جرى ليزيد بن معاوية وليزيد بن عاتكة ولوليد بن يزيد واريقت الدماء الحرام ، وقتل المسلمون وسبي الحريم ، واستعبد أبناء المهاجرين والانصار ونقش على أيديهم كما ينقش على أيدي الروم ، وذلك في خلافة عبدالملك ، وأمرة الحجاج ، واذا تأملت

كتب التواريخ وجدت الخمسين الثانية ، شراً كلهـا ، لا خير فيها ولا فى رؤسائهـا وامرائها ، والنـاس برؤسائهم وأمرائهم . والقرن خمسون سنة فكيف يصح هذا الخبر ؟

٦ ـ فأما ما ورد في القرآن من قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين ـ الفتح : ١٨ » وقوله : « محمد رسول الله والذين معـه ـ الفتح : ٢٩ » وقول النبي صلى الله عليه وآله : « ان الله اطلع على أهل بدر » ان كان الخبر صحيحاً فكله مشروط بسلامة العاقبة ، ولا يجوز أن يخبر الحكيم مكلفاً غير معصوم ، بأنه لا عقاب فيـه فليفعل ما شاء .

٧ ـ من الذي يجترء على القول بأن أصحاب محمـد صلى الله عليه وآله لا تجوز البراءة من أحد منهم وان أساء وعصى بعد قول الله تعالى المذي شرفوا برؤيته : « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونـن من الخاسرين ـ الزمر : ٦٥ » وبعد قوله : « قل انى أخاف ان عصيت ربي عـذاب يوم عظيم ـ الأنعام : ١٥ » وبعد قولـه : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ـ ص : ٢٦ » الا من لا فهم له ولا نظر معه ولا تمييز عنده .

٨ ـ والعجب من الحشوية وأصحاب الحديث اذ يجادلون على معاصي الأنبيـاء ويثبتون أنهم عصوا الله تعالى ، وينكرون على مـن ينكر ذلك ويطعنون فيـه ويقولون : قدري ، معتزلي ، وربمـا قالوا

ملحد مخالف لنص الكتاب ، وقد رأينا منهم الواحد والمأة والالف يجادل في هذا الباب ، فتارة يقولون: ان يوسف قعد من امرأة العزيز مقعد الرجل من المرأة ، وتارة يقولون : ان داود قتل اوريا لينكح امرأته ، وتارة يقولون ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان كافراً ضالا قبل النبوة وربما ذكروا زينب بنت جحش وقصة الفداء يوم البدر ، فأما قدحهم في آدم عليه السلام واثباتهم معصيته ومناظرتهم من ينكر ذلك ، فهو رأيهم وديدنهم ، فاذا تكلم واحد في عمرو بن العاص وفي معاوية ، وأمثالهما ونسبهم الى المعصية وفعل القبيح احمرت وجوههم ، وطالت أعناقهم وتخازرت أعينهم ، وقالوا مبتدع رافضي، يسب الصحابة ويشتم السلف . فان قالوا انما اتبعنا في ذكر معاصي الأنبياء نصوص الكتاب قيل لهم : فاتبعوا في البرائة عن جميع العصاة نصوص الكتاب فانه تعالى قال: « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوا دون من حاد الله ورسوله ـ المجادله : ٢٢ » وقال : « فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيىء الى أمر الله ـ الحجرات : ٩ » وقال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ـ النساء : ٥٩ »[1] .

قتل الخليفة المفترض الطاعة :

قد تصافق أهل السير والتاريخ أن عثمان بن عفان قد حوصر

١ . الشرح الحديدى : ج ٢٠ ص ٣٠ ـ ١٢ والرسالة مبسوطة مفصلة ـ أخذنا المهم منها .

ثم هوجم وقتل في عاصمة الاسلام ، وقد قتلته الصحابة والتابعون لهم باحسان ، حتى منعوا عن تجهيزه وتغسيله ودفنه والصلاة عليه ، وهذا امام المؤرخين يتلو علينا كيفية الاجهاز عليه والهجوم على داره بعد محاصرته قرابة أربعين يوماً :

يقول الطبري : « دخل محمد بن أبي بكر على عثمان فأخذ بلحيته . . . ثم دخل الناس فمنهم من يجأه بنعل سيفه ، وآخر يلكزه وجاءه رجل بمشاقص معه فوجأه في ترقوته ودخل آخرون فلما رأوه مغشياً عليه جروا برجله ، وجاء التجيبي مخترطاً سيفه ليضعه في بطنه فوقته نائلة فقطع يدها ، واتكأ بالسيف عليه في صدره وقتل عثمان رضي الله عنه قبل غروب الشمس .

وفي نص آخر يقول : طعن محمد بن أبي بكر جنبيه بمشقص في يده وضرب كنانة بن بشر مقدم رأسه بعمود ، وضربه سودان بن حمران المرادي بعد ما خرلجبينه ، ووثب عمرو بن الحمق فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات الى آخر ما ذكره [1] .

وقد وقعت الواقعة بمرأى ومسمع من معظم الصحابة وليس لأحد أن يتفوه انهم لم يكونوا عالمين بها فانها ما كانت مباغتة ولا غيلة حتى يكونوا في غفلة عنها وقد استدام الحوار أكثر من شهرين والحصر حوالى أربعين يوماً كل ذلك يعرب عن أنهم كانوا راضين بهاتيك الاحدوثة ، لو لم نقل انهم كانوا بين مباشرلها الى خاذل

١ . تاريخ الطبرى : ج ٣ ص ٤٢٣ .

للمودى به الى مؤلب عليه ، الى مثبط عنه ، الى راض بما فعلوا، الى محبذ لتلك الاحوال كما هو واضح لمن قرأ تاريخ الدار وقتل الخليفة متجرداً عن أهواء وميول أموية .

فعندئذ يدور الأمربين أمرين، بأيهما أخذنا يبطل الأصل المزعوم من عدالة الصحابة أجمع .

فان كان الخليفة ، قائماً على جادة الحق غير مائل عن الطريقة المثلى فالمجهزون على قتله والناصرون له مساق ان لم نقل انهم مراق عن الدين لخروجهم على الامام المفترضة طاعته .

وان كان مائلا عن الحق، منحرفاً عن الطريقة ، مستحقاً للقتل فما معنى القول بعدالة الصحابة كلهم من امامهم الى مأمومهم .

وأما تبرير عمل المجهزين عليه ، المهاجمين على داره بأنهم كانوا عدولا خاطئين في اجتهادهم ، فهو خداع وضلال وتمهل لايصار اليه ، ولا يركن اليه أي ذو مسكة من العقل اذ أي قيمة لاجتهادهم تجاه نصوص الكتاب العزيز قال عز من قائل : « من قتل نفساً بغير نفس أوفساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ـ المائدة : ٣٢ » .

كلمة قيمة للامام أمير المؤمنين عليه السلام

وهناك كلمة قيمة للامام أمير المؤمنين عليه السلام تمثل نظريته في حق الصحابة ، رواها نصر بن مزاحم المنقري (المتوفى عام ٢١٢ هـ) في حديث عمر بن سعد :

دخل عبدالله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، والمغيرة بن شعبة مع أناس معهم وكانوا قد تخلفوا عن علي . فدخلوا عليه فسألوه أن يعطيهم عطاء هم ـ وقد كانوا تخلفوا عن علي حين خرج الى صفين والجمل ـ فقال لهم على : ما خلفكم عني ؟ قالوا : قتل عثمان ولا ندري أحل دمه أم لا ؟ وقدكان أحدث أحداثا ثم استتبتموه فتاب ، ثم دخلتم في قتله حين قتل، فلسنا ندري أصبتم أم أخطأتم؟ مع أنا عارفون بفضلك ياأمير المؤمنين وسابقتك وهجرتك . فقال علي: ألستم تعلمون أن الله عزوجل قد امركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر فقال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ـ الحجرات: ٩» . قال سعد: يا علي أعطني سيفاً يعرف الكافر من المؤمن أخاف أن اقتل مؤمناً فأدخل النار. فقال لهم علي : ألستم تعلمون أن عثمان كان اماماً بايعتموه على السمع والطاعة فعلام خذلتموه ان كان محسناً، وكيف لم تقاتلوه اذكان مسيئاً. فانكان عثمان أصاب بما صنع فقد ظلمتم ، اذ لم تنصروا امامكم ، وان كان مسيئاً فقد ظلمتم ، اذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . وقد ظلمتم اذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به فانه قال : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » . فردهم ولم يعطهم شيئاً .

وكان علي عليه السلام اذا صلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة

يقول اللهم العن معاوية وعمرواً وأبا موسى وحبيب بن مسلمة والضحاك ابن قيس والوليد بن عقبة وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد . فبلغ ذلك معاوية فكان اذا قنت لعن علياً وابن عباس وقيس بن سعد والحسن والحسين[1] .

وفي كلامه هذا دليل قاطع على أن هؤلاء الجائين الى علي لأخذ عطائهم ، خونة ظلمة لا يمكن الحكم بعدالتهم ، لأنهم اما ظلموا امامهم العادل اذ لم ينصروه ، واما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم يعينوا الامام القائم بالعدل .

أضف الى ذلك أن الملاعنة من الطرفين أقوى شاهد على فساد احدى الطائفتين ، وليس الحق خافياً على مبتغيه ، كما أن الصبح لايخفى على ذي عينين .

هذا غيض من فيض . وقليل من كثير من تاريخ الصحابة وأحوالهم وهي مشحونة بالصواب والخطاء والهدى والضلال . ضعه أمام عقلك وفكرك فاقض ما أنت قاض ولاتتبع الهوى .

« وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين ـ المائدة : ٤٢ » .

١ . وقعة صفين : طبعة مصر . ص ٥٥٢ ـ ٥٥١ .

(٣)

٣ ـ الايمان بالقدر خيره وشره

هذا هو الأصل الثالث الذي اتفقت عليه كلمات أهل الحديث .

القدر كما ذكره بعض أئمة اللغة حد كل شيء ومقداره ، والقضاء بمعنى الحكم البات ، قال سبحانه : « انا كل شيء خلقناه بقدر ـ القمر : ٤٩ » وقال تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه ـ الاسراء : ٢٣ » .

وعلى ذلك فالقدر في الأشياء ، هو تحديد وجود الشيء، والقضاء هو ابرامه ، ويؤيد ذلك ما روي عن بعض أئمة أهل البيت : القدر هو الهندسة ووضع الحدود في البقاء والفناء ، والقضاء هو الابرام واقامة العين [١] .

القول بالقضاء والقدر على نحو الاجمال من العقائد الأسلامية

١ . أصول الكافي : ج ١ ص ١٥٨ .

التي لايصح لمسلم انكارها ، ولو كان هنـاك اختلاف فانمـا هو في تفسيرهما وانه هل القضاء والقـدر بمعنى التقدير والحتم على أفعال الانسان وخلقها بلاارادة واختيار منه، وأنه في مسرح الحياة مكتوف اليدين فيماكتب وقدر حتى فيما يتعلق بالتكاليف (الحلال والحرام) أوبمعنى علمه السابق، على وجود الأشياء وتقديره وتحديده والحكم بوجودها على وجه لاينافي اختيار العبد وحريته من الأساس ، وان شئت قلت ثبوت الأمر الجاري في العلم الأزلي الالهي مـع اعطاء القدرة على الفعل والترك وتعريف الخير والشر وبيان عاقبة الأول ومغبة الأخير ، فهذا العلم السابق لايستلزم جبراً وعلمه سبحانه بمقادير مـا يختاره العباد من النجدين وما يأتون به من العمل من خير أوشر لاينافي التكليف كما لا سببية له في اختيار المكلفين ولا يقبح معه عقلا، العقاب على المعصية ولا يسقط معه الثواب على الطاعة .

أمـا سبق علمه سبحانه على خصوصيات الفعل وتحققه وعدمـه فيكفي في ذلك قوله سبحانه : « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ـ الحديد : ٢٢ » وقوله سبحانه : « وكل شيء فعلوه في الزبر وكـل صغير وكبير مستطر ـ القمر : ٥٣ ـ ٥٢ » وقـال عز من قائل : « ما قطعتم من لينة أوتركتموها قائمة على أصولها فبأذن الله ـ الحشر: ٥ ».

وأما كون القدر والقضاء لا ينافي التكليف فيكفي قوله سبحانه : « انا هديناه السبيل امـا شاكراً واما كفوراً ـ الانسان : ٣ » وقوله

سبحانه : « انا هديناه النجدين ـ البلد : ١٠ » وقوله سبحانه : « ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني عن العالمين ـ لقمان : ١٢ » فالله سبحانه خلق الانسان مزيجاً من العقل والنفس مع خلق عوامل النجاح تجاه النفس الأمارة بالسوء ، فمن عامل بالطاعة بحسن اختياره ، ومن معترف للمعصية بسوء الخيرة . وتدل على ذلك الايات التالية : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ـ فاطر: ٣٣ » ، « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ـ يونس : ١٠٨ » ، « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون ـ الجاثية : ١٥ » ، « فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها ـ الأنعام : ١٠٤ » ، « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان اسأتم فلها ـ الاسراء : ٧ » .

الى غير ذلك من الايات التي تنص على حرية الانسان في اختياره خصوصاً فيما يرجع الى الطاعة والمعصية .

وعلى ذلك فالاعتقاد بالتقدير والقضاء أمر لا يمكن لمسلم انكاره كما أن حرية الانسان في موقف التكليف مثله أيضاً فاذاً ما هو الذي وقع مثاراً للنقاش ؟ في النصف الثاني من القرن الأول بل قبله بقليل أيضاً ، انتشر القول بالقدر حتى فرق المسلمين الى قولين : الى قدري وجبري، وقد عرفت أن القدرية مع أنها في اللغة : بمعنى مثبتة القدر يراد منه في المصطلح نافوا القدر .

لابد من أن نقف ملياً للتأمل في تشخيص محل النزاع بين

الطرفين .

فنقول: ان التأمل في عقائد بعض العرب في الجاهلية يوحي بأنهم كانوا قائلين بالقدر ومثبتين له بشكل يستنتجون منه سلب المسؤولية عن أنفسهم والقائها على عاتق القدر . وهذا المفسير كان رائجاً بينهم وان لم يعم الجميع، يقول سبحانه: «سيقول الذين أشركوا لوشاءالله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ،كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون ـ الأنعام : ١٤٨ » .

ولعل قوله سبحانه : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آبائنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ـ الاعراف : ٢٨ » .

يشير الى أنهم كانوا يعتقدون بأن تقديره سبحانه يلازم الجبر ونفي الاختيار ، والله سبحانه يرد على تلك المزعمة بقوله : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آبائنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ـ الأعراف : ٢٨ » .

وقد بغيت هذه العقيدة الموروثة من العصر الجاهلي في أذهان بعض الصحابة فقد روى الواقدي في مغازيه عن أم الحارث الأنصارية وهي تحدث عن فرار المسلمين يوم حنين قالت : مربي عمر بن الخطاب (منهزماً) فقلت ما هذا فقال عمر : أمر الله [1] .

١ . مغازى الواقدى : ج ٣ ص ٩٠٤ .

والعجب أن تلك العقيدة بقيت في أذهان بعض الصحابة حتى بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله فهذا السيوطي ينقل عن عبدالله ابن عمر أنه جاء رجل الى أبي بكر فقال : أرأيت الزنا بقدر ؟ قال : نعم قال : فان الله قدره علي ثم يعذبني ؟ قال : نعم يابن اللخناء أما والله لوكان عندي انسان أمرته أن يجأ أنفك [١] .

لقد كان السائل في حيرة من أمر القدر فسأل الخليفة عن كون الزنا مقدراً من الله أم لا، فلما أجاب الخليفة بنعم ، استغرب من ذلك لأن العقل لا يسوغ تقديره سبحانه شيئاً بمعنى سلب الاختيار عن الانسان في فعله أو تركه ثم يعذبه عليه ، ولذلك قال : فان الله قدره علي ثم يعذبنى ؟ فعند ذاك أمره الخليفة على ما استغربه وقال : نعم يابن اللخناء .

استغلال الامويين للقدر

لقد اتخذ الأمويون مسألة القدر اداة تبريرية لأعمالهم السيئة وكانوا ينسبون وصفهم الراهن بما فيه من شتى ضروب العيث والفساد الى القدر . قال أبو هلال العسكري : ان معاوية أول من زعم أن الله يريد أفعال العباد كلها [٢] .

ولأجل ذلك لما سألت أم المؤمنين عائشة معاوية عن سبب تنصيب

١ . تاريخ الخلفاء للسيوطى : ص ٩٥ .
٢ . الاوائل : ج ٢ ص ١٢٥ .

ولده يزيد خليفة على رقاب المسلمين فأجابها : ان أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم [١] .

وبهذا أيضاً أجاب معاوية عبدالله بن عمر عند ما استفسر من معاوية عن تنصيبه يزيد بقوله : اني أحذرك أن تشق عصر المسلمين وتسعى تفريق ملاهم وأن تسفك دمائهم وان أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم [٢] .

وقد كانت الحكومة الأموية الجائرة متحمسة على تثبيت هذه الفكرة في المجتمع الاسلامي وكانت تواجه المخالف بالشتم والضرب والابعاد .

قال الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه نظرية الامامة : ان معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب ولكن بايدئولوجية تمس العقيدة في الصميم ولقد كان يعلن في الناس أن الخلافة بينه وبين علي عليه السلام قد احتكما فيها الى الله فقضى الله له على علي عليه السلام وكذلك حين أراد أن يطلب البيعة لابنه يزيد من أهل الحجاز أعلن أن اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء ليس للعباد خيرة في أمرهم ، وهكذا كاد أن يستقر في أذهان المسلمين أن كل ما يأمر به الخليفة حتى ولو كانت طاعة الله في خلافه فهو قضاء من الله قد قدر

١ . الامامة والسياسة لابن قتيبة : ج ١ ص ١٦٧ .

٢ . الامامة والسياسة لابن قتيبة : ج ١ ص ١٧١ من طبعة مصر .

على العباد [١] .

وقد سرى هذا الاعتذار الى غير الأمويين من الذين كانوا في خدمة خلفائهم وأمرائهم فهذا عمر بن سعد بن أبي وقاص قاتل الامام الشهيد الحسين عليه السلام لما اعترض عليه عبدالله بن مطيع العدوي بقوله : اخترت همدان والري على قتل ابن عمك فقال عمر : كانت أموراً قضيت من السماء وقد أعذرت الى ابن عمي قبل الوقعة فأبى الا ما أبى [٢] .

ويظهر مما رواه الخطيب عن أبي قتادة عند ما ذكر قصة الخوارج في النهروان لعائشة فقالت عائشة ما يمنعني ما بيني وبين علي أن أقول الحق سمعت النبي يقول تفترق امتي على فرقتين تمرق بينهما فرقة محلقون رؤوسهم ، يحفون شوار بهم ، ازرهم الى انصاف سوقهم يقرؤون القرآن لايتجاوز تراقيهم يقتلهم احبهم الي واحبهم الى الله . قال فقلت يا أم المؤمنين فانت تعلمين هذا فلم كان الذي منك ؟ قالت يا قتادة وكان أمر الله قدراً مقدوراً وللقدر أسباب [٣] .

وقد كان حماس الأمويين في هذه المسألة الى حد قد كبح ألسن الخطباء عن الاصحار بالحقيقة فهذا الحسن البصري الذي كان من مشاهير الخطباء ووجوه التابعين وكان يسكت أمام أعمالهم الاجرامية

١ . نظرية الامامة : ص ٣٣٤ .
٢ . طبقات ابن سعد : ج ٥ ص ١٤٨ طبع بيروت .
٣ . تاريخ بغداد : ج ١ ص ١٦٠ .

ولكن كان يخالفهم في القول بالقدر بالمعنى الذى كانت تعتمد عليه السلطة آنذاك . فلما خوفه بعض أصدقائه من السلطان فوعد أن لايعود. روى ابـن سعد في طبقاته عن أيوب قال : نازلت الحسن في القدر غير مرة حتى خوفته من السلطان فقال : لا أعود بعد اليوم [١] .

كيف وقد جلد محمد بن اسحاق صاحب السيرة النبوية المعروفة فى مخالفته في القدر قال ابن حجر في تهذيب التهذيب ان محمد ابن اسحاق اتهم بالقدر ، وقال الزبير عن الدراوردي : وجلد ابن اسحاق يعني في القدر [٢] .

وفي ظل هذا الاصرار على القضاء والقدر بهذا المعنى نسجت أحاديث لا تفارق عن الجبر قيد شعرة . واليك أمثلة منها : روى مسلم في صحيحه عن وهب بن عبدالله قال: حذرنا رسول الله وهو الصادق المصدوق أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فو الذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وأن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل

١ . طبقات ابن سعد : ج ٧ ص ١٦٧ طبع بيروت .

٢ . تهذيب التهذيب : ج ٩ ص ٤٦ – ٣٨ .

أهل الجنة فيدخلها [١] .

وروى عنه أيضاً حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي صلى الله عليه وآله قال : يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول يا رب أشقي أو سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول أي رب أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقة ، ثم تطوي الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص [٢] .

قال : جاء سرافة بن مالك بن جعشم قال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الان فيما العمل اليوم ، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ام فيما نستقبل ؟ قال : لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، قال ففيما العمل ؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له وكل عامل بعمله [٣] .

فبناء على الحديث الأول لا يقدر الانسان على اضلال نفسه ولا هدايتها كما لا يقدر على أن يجعل نفسه من أهل الجنة أو النار ، فكلما أراد من شيء يكون الكتاب السابق حائلا بينه وبين ارادته .

الحديث الثاني يدل على أن الانسان لايقدر على تغيير مصيره بالأعمال الصالحة والأدعية والصدقات ، وأن الكتاب الذي سبق حاكم على الانسان فلايزيد ولاينقص وهو يخالف النصوص الثابتة في القرآن

١ . صحيح مسلم : ج ٨ ص ٤٤ كتاب القدر .

٢ . صحيح مسلم : ج ٨ ص ٤٥ كتاب القدر .

٣ . جامع الاصول : ج ١ ص ٥١٦ ، وصحيح مسلم : ج ٨ ص ٤٨ .

والسنة من تغيير المصير والزيادة والنقص على المكتوب بالأعمال الصالحة أو الطامحة . وسنوافيك النصوص عند مذهب الأشاعرة .

ان تفسير القضاء والقدر بهذا الشكل الذي يجعل الانسان مكشوف اليدين في بحر الحياة مما ترغب عنه الفطرة السليمة .

ان هذه الاحاديث قد نسجت وفق المعتقدات السائدة للسلطة آنذاك حتى تبرر أن الوضع الاجتماعي آنذاك لايمكن تغييره ابداً فانه شيء قد فرغ منه . فالفقير يجب أن يبقي هكذا والغني كذلك يبقى غنياً وهكذا المظلوم والظالم .

نرى أنهم قد رووا عن عبدالله بن عمر ، عن أبيه قال : يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه أمر مبتدع ـ أو مبتدأ ـ أو فيما قد فرغ منه ؟ فقال : بل فيما قد فرغ منه ، يابن الخطاب وكل ميسر . اما من كان من أهل السعادة فانه يعمل للسعادة واما من كان من أهل الشقاء فانه يعمل للشقاء . وفي رواية قال لما نزلت « فمنهم شقي وسعيد ـ هود : ١٠٥ » سألت رسول الله، فقلت: يا نبي الله فعلام نعمل ، على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه ؟ قال : بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الاقلام يا عمر ! ولكن كل ميسر لما خلق له [1] .

وهذا الحديث يعرب عن أنه قد تم القضاء على الناس في الازل وجعلهم صنفين وكل ميسر لما خلق له ، لا لما لم يخلق له ، فأهل

١ . جامع الاصول : ج ١٠ ص ٥١٧ ـ ٥١٦ وفيه أخرجه الترمذي .

السعادة ميسرون للأعمال الصالحة فقط وأهل الشقاء ميسرون للأعمال الطالحة فقط .

وهذه المرويات في الصحاح والمسانيد لا تفترق عن الجبر وهي تناقض الأصول المسلمة العقلية والنقلية وحاشا رسول‌الله وخيرة أصحابه أن يتبوا بها بنبت شفه وانما حيكت على منوال‌عقيدة السلطة وعند ذلك لا تعجب مما يقوله أحمد بن حنبل في رسائله :

القدر خيره وشره وقليله وكثيره وظاهره وباطنه وحلوه ومره ومحبوبه ومكروهه وحسنه وسيئه وأوله وآخره من الله قضاء قضاه وقدر قدره ، لايعدوا واحد منهم مشيئة الله ولا يجاوز قضاؤه بل كلهم صائرون الى ما خلقهم له واقعون فيما قدر عليهم لأفعالهم وهو عدل منه عز ربنا وجل . والزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك بالله والمعاصي كلها بقضاء وقدر [1] .

وقد سرى الجهل الى أكثر المستشرقين فاستنتجوا من هذه النصوص أن الاسلام مبني على القول بالجبر وفي ذلك يقول ايرفنج من أعلام الكتاب في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر قال: القاعدة السادسة من قواعد العقيدة الاسلامية هي الجبرية وقد أقام محمد جل اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شئونه الحربية وهذا المذهب الذي يقرر أن الناس غير قادرين بارادتهم الحرة على اجتناب الخطيئة أو النجاة من العقاب ويعتبره بعض المسلمين منافياً لعدل‌الله.

١ . طبقات الحنابلة : ج ١ ص ١٥ .

فقد تكونت عدة فرق جاهدت وهم لا يعتبرون من أهل السنة [١] .

هـذا غيض من فيض مما يمكن أن يذكر حول القـول بالقدر وسيوافيك توضيحه والمضاعفات الناجمة عنه عند البحث عن عقيدة الأشاعرة .

تكوين القدرية كرد فعل

ولمـا كان القدر والقضاء بالمعنى الذي تروجه السلطة الأموية مخالفاً للفطرة والعقل. قام رجال أحرار في وجه هذه العقيدة يركزون على القـول بحرية الانسان في اطار حياته فيمـا يرجع الى اسعاده وشقائـه . وفيما عينت للثواب والعقاب ولكن السلطـة اتهمتهم بنفي القضاء والقدر ومخالفة الكتاب والسنة ثم وضعت السيوف على رقاب بعضهم هـذا هو معبد الجهني اتهموه بالقدر (نفي القدر) ذهب الى الحسن البصري فقال له ان بني أمية يسفكون الدمـاء ويقولون انما تجري أعمالنا على قدر الله فقال كذب أعداء الله [٢] .

ومعبد هذا قـد اتهم بالقدرية وانه أخذ هذه العقيدة عـن رجل نصراني ولكنه اتهام في غالب الظن قد ألصق به وهو منه براء وهذا الذهبي يعرفه بقوله : انه صدوق في نفسه وانـه خرج مع ابن الأشعث على الحجاج حتى قتل صبراً . ووثقه ابن معين ونقل عن جعفر بن سليمان

١ . حياة محمد لمحمد حسين هيكل : ص ٥٤٩ .

٢ . الخطط المقريزية : ج ٢ ص ٣٥٦ .

انه حدثه مالك بن دينار قال لقيت معبد الجهني بمكة بعد ابن الأشعث وهو جريح وكان قاتل الحجاج في المواطن كلها [١] .

ولا أظن أن الرجل الذي ضحى بنفسه في طريق الجهاد ومكافحة الظالمين ينكر ما هو من أوضح الأصول وأمتنها ولو أنكر فانما أنكر المعنى الذي استغلـه النظام آنذاك ويشهد بذلك محاورتـه الحسن البصري الانفة .

ومثلـه غيلان الدمشقي فقد اتهم بنفس ما اتهم به استاذه فهـذا الشهرستاني يقول : كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد . وقيل تاب عن القول بالقدر على يد عمر بن عبدالعزيز فلما مات عمر جاهر بمذهبه فطلبه هشام بن عبدالملك وحضر الأوزاعي لمناظرتـه فأفتى بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق [٢] .

وقد صارت مكافحة ومحاربة هذا الاتجاه الظاهر عن معبد الجهنى وغيلان الدمشقي سبباً لظهور المفوضة الذين كانوا يعتقدون بتفويض الأمور الى العباد وأنه ليس لله سبحانه أي صنع في أفعالهم فجعلوا الانسان خالقاً افعاله ، مستغنياً عن الله سبحانـه فصار كالالة في مجال الأفعال كما كان القضاء والقدر حاكماً على كل شيء ولا يمكن تغييره بأي صورة أخرى مـن الصور . فالطرفان يحيدون عن جادة التوحيد ويميلون الى جانبي الافراط والتفريط في الخلق وسيوافيك تفصيل

١ . ميزان الاعتدال : ج ٤ ص ١٤١ .

٢ . الملل والنحل للشهرستانى : ج ١ ص ٤٧ .

القول في محله .

الاحتجاج بالقدر

ان القدر بالمعنى الذي جاء في الأحاديث النبوية، يجعل الانسان مسلوب الاختيار ، مسيراً في حياته غير مختار فيها فعند ذلك يصح للعبد أن يحتج على المولى في عصيانه وخلافه .

ومن العجيب أنه جاء في الصحيحين حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت أبو البشر الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً وكتب لك التوراة ، فبكم تجد فيها مكتوباً « وعصى آدم ربه فغوى ـ طه : ١٢١ » قبل أن أخلق؟ قال: بأربعين سنة قال فحج آدم موسى[1] .

فالقائلون بالقدر مالوا يميناً وشمالاً في تفسير هذا الحديث وأمثاله اذ لو صح القدر بالمعنى الذي جاء في الأحاديث النبوية لكان باب العذر على العبد مفتوحاً على مصراعيه .

والعجب من ابن تيمية حيث فسر الحديث في رسالة أسماها بـ « الاحتجاج بالقدر » بأن موسى لم يلم آدم الا من جهة المصيبة التي

١ . جامع الاصول : ج ١٠ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٣ وصحيح البخاري : ج ٤ ص ١٥٨ وج ٦ ص ٩٦ وج ٨ ص ١٢٦ وج ٩ ص ١٤٨ .

أصابته وذريته بمـا فعل لا لأجل أن تارك الأمر مذنب عاص ، ولهذا قال لما ذا أخرجتنا ونفسك من الجنة . ولم يقل: لما ذا خالفت الأمر؟ ولما ذا عصيت؟ . والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم، بالتسليم للقدر وشهود الربوبية كما قال الله تبارك وتعالى : ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ـ التغابن : ١١ » [1].

ووجه العجب : ان ابن تيمية قصر النظر على كلام موسى حيث اعترض على آدم بأنه لمـاذا أخرج نفسه وذريته من الجنة ، ولـم يلتفت الى جواب آدم ، فانـه صريح في الاحتجاج بالقدر في مورد العصيان وان معصيته كانت أمراً مقدراً قبل أن يخلق فلم يكن له بدمنها حيث قال لموسى: أنت موسى الذي كلمك تكليماً وكتب لك التوراة فبكم تجد فيها مكتوباً « وعصى آدم ربه فغوى » قبل أن أخلق، قال: بأربعين سنة قال : فحج آدم موسى .

وعلى ذلك فموسى وان لم يلم آدم الا مـن جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل ، لكن لما كانت المصيبة نتيجة المعصية، احتج آدم على موسى بأن المعصية لما كانت أمراً مقدراً وهو بالنسبة اليها مسيراً ، وكانت المصيبة نتيجة لها فهو معذور في المصيبة التي عمته وذريته . فالكل من السبب والمسبب كانا خارجين عن قدرته واختياره فلا لوم على المصيبة لعدم صحة اللوم على المعصية المقدرة قبل خلقته بأربعين سنة .

١ . الاحتجاج بالقدر : ص ١٨ .

ثم ان كثيراً من القائلين بالقدر بالمعنى الذي تفيده ظواهر الأحاديث لما رأى في صميم عقله وأغوار فكره أنه لا يجتمع مع التكليف، صار الى الاجابة بأصل مبهم جداً ، وهو أنه « لا يحتج بالقدر » وعندئذ يتوجه اليه السؤال التالي :

لو كان القدر بالمعنى الذي تفيده ظواهر الأحاديث أمراً صحيحاً يجب الاذعان به وبنائجه ولوازمه وهو كون الانسان مجبوراً مسيراً فلا محالة يصح الاحتجاج به أيضاً في مقام الاعتذار .

وبالجملة لا مناص عن اختيار أحد الأمرين : اما الاذعان بالقدر ونتائجه ولوازمه ، ومنها الاحتجاج على المولى سبحانه في مقام المخالفة ، واما رفض ذلك الاعتقاد والقول بكون الانسان مخيراً مختاراً . فالجمع بين الاذعان بالقدر وعدم الاحتجاج به أشبه بالأخذ بالشجرة واضاعة الثمرة .

ثم ان ابن تيمية قد التجأ في حل العقدة الى جواب آخر : وهو أن القدر لا يحتج به ، قال : وليس القدر حجة لابن آدم ولاعذراً بل القدر يؤمن به ولا يحتج به والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين فان القدران كان حجة وعذراً لزم أن لايلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه ، وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لايمكن لأحد أن يفعله ، وهوممتنع طبعاً ، محرم شرعاً، ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلا في فطرة الخلق وعقولهم لم تذهب اليه أمة الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء [1] .

١ . مجموعة الرسائل والمسائل : ج ١ ص ٩١ – ٨٨ .

وكان لابـن تيمية أن يتنبه عندئذ فيجعل عـدم احتجاج العقلاء بالقدر دليلا على بطلان القدر بالمعنى الذي اختاره وتدين به ، والا فلو صح القدر لا يصح أن يقال « لا يحتج به » .

وبالجملة : اما أن يؤمن بالقدر ويحتج به ، واما أن لا يؤمن به ولا يحتج به .

وهناك أمر آخر، وهو: ان القائل بالقدر يصرح بوجوب الايمان بالقدر خيره وشره ، وبما أن القدر فعل الله سبحانه ، فتكون النتيجة كون الخير والشرمن أفعاله سبحانه وتقديراته حسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته . مع أن صريح الصحاح من الأحاديث خلافه وأن النبي صلى الله عليه وآله قال : والشر ليس اليك [1] .

وعلى ذلـك فيجب تفسير الشر بشكل يناسب مقـام الرب كالجدب والمرض والفقر والخوف . واطلاق الشر عليها نوع مجاز وتأويل .

محاولة للجمع بين القدر وصحة التكليف

ان بعض المتحـذلقين في العصر الحاضر لمـا راى أن القدر بالمعنى الذي تفيده ظواهرالروايات لا يجتمع مع الاختيار والحرية ويناقض صحة التكليف صار بصدد الجمع بينهما فقـال : ان للقدر

١ . سنن النسائي : ج ٢ كتاب الصلاة ، أبواب الافتتاح باب « نوع آخرمن الذكر والدعاء بين التكبير والقرائة » ص ١٣٠ .

أربع مراتب :

المرتبة الأولى : العلم : أي علمه الأزلي الأبدي ، فلا يتجدد له علم بعد جهل ولا يلحقه نسيان بعد علم .

المرتبة الثانية : الكتاب : فنؤمن بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن الى يوم القيمة قال سبحانه : « ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير ـ الحج : ٧٠ » .

المرتبة الثالثة : المشيئة : فنؤمن بأن الله تعالى قد شاء كل ما في السماوات والأرض لا يكون شيء الا بمشيته ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن .

المرتبة الرابعة : الخلق : فنؤمن بأن « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل له مقاليد السموات والأرض ـ الزمر : ٦٣-٦٢ ».

وهذه المراتب الأربعة شاملة لما يكون من الله نفسه ولما يكون من العباد . فكل ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك ، فهي معلومة لله تعالى مكتوبة عنده والله قد شاءها وخلقها . ثم يقول : ولكننا مع ذلك نؤمن بأن الله تعالى جعل للعبد اختياراً وقدرة ، بهما يكون الفعل ، والدليل على أن فعل العبد باختياره وقدرته أمور ، ثم استدل بايات تثبت للعبد اتياناً بمشيئته واعداداً بارادته مثل قوله سبحانه : « فأتوا حرثكم أنى شئتم ـ البقرة : ٢٢٣ » وقوله : « ولو

أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ـ التوبة : ٤٦ » [١] .

انظر الى التناقض الذي ارتكبه الكاتب المعاصر وهو بصدد بيان العقيدة الاسلامية ، اذ لوكان فعل العبد معلوماً لله ومكتوباً في اللوح المحفوظ وقد شاء الله فعله وخلقه . فكيف يكون للعبد اختياراً وقدرة بهما يوجد الفعل وهل الفعل بعد علمه تعالى وكتابته ، ومشيئته وخلقه يكون محتاجاً الى شيء آخر حتى يكون لاختيار العبد وقدرته دور في ذلك المجال ؟ « هل قرى وراء عبادان » .

فكما أنه لا يكون للعباد دور في خلق السماوات والأرض بعد ما تعلق به علمه سبحانه وكتبه في لوحه ، وشاء وجوده ، وخلقه . فهكذا أفعال عباده بعد ما وقعت في اطار هذه المجالات الأربعة . وبالجملة فعند ما تحقق الخلق من الله لا تكون هناك أية حالة انتظارية في تكون العقل ووجوده . فلا معنى لان يكون للعبد بعد خلقه سبحانه دور أو تأثير . وأما مسألة « الكسب » الذي أضافه امام الأشاعرة الى «الخلق» فعده سبحانه خالقاً والعبد كاسباً فسيوافيك أنه ليس للكسب معنى معقول بعد تمامية الخلقة فتربص حتى حين .

صراع بين الوجدان وظواهر الاحاديث

لا شك ان كل انسان يجد من صميم ذاته أن له قدرة واختياراً

١ . عقيدة أهل السنة والجماعة بقلم محمد صالح العثيمين من منشورات الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة : ص ٢٩ ـ ٢٧ .

ولا يحتاج في اثباته الى الاستدلال بالايات والروايات كما ارتكبه الكاتب وهذا شيء لايمكن لأحد انكاره، ولذلك صح التكليف وحسن بعث الأنبياء وعليه يدور فلك الحياة في المجتمع الانساني .

والقدر بالمعنى الذي تصرح به الأحاديث لا يجتمع مع اختيار العبد وقدرته . فلو صح القدر بالمعنى المعروف بين أهل الحديث لامناص في الصراع عن ارتكاب أحد أمرين : اما انكار القدر والقضاء وهو لا يصح أن يصدر من مسلم مؤمن بكتاب الله ، واما انكار القدرة والاختيار وهو يخالف الوجدان والفطرة السليمة ، والجمع بينهما أمر غير ممكن .

والحق ان الاعتقاد بالقدر بالمعنى الوارد في الروايات السابقة لا ينفك عن الجبر قدر شعرة ، وللعبد الاحتجاج على المولى بأن الفعل ـ بعد تنزله من مرتبة العلم الى مرتبة الكتابة ومنهما الى درجة المشيئة فدرجة الخلق والايجاد ـ يكون عندئذ مخلوقاً لله سبحانه وفعلا له ، وكل فاعل مسئول عن فعله لا غيره . « ولا تزر وازرة وزر أخرى ـ الأنعام : ١٦٤ » . ولاتكون حينئذ للفعل أية صلة بالعبد الا كونه ظرفاً للصدور ومحلا لايجاده سبحانه .

ولكن الامامية مع اعترافهم بالمراتب الأربع للقدر لا يرونه ملازماً للجبر، بل يرون للعبد بعدها اختياراً وحرية . ولأجل ذلك يجب تركيز الكلام في تفسير كون الفعل مورداً لمشيئته وكونه مخلوقاً له سبحانه واليك بيان هذين الأمرين .

القول بالقدر لا يلازم الجبر

ان منشأ توهم الجبر وكون الانسان مسيراً لامخيراً أحد أمرين:

١ ـ كون فعله متعلقاً لمشيئته سبحانه وما شاء الله يقع حتماً .

٢ ـ كونه خالقاً لكل شيء حتى أفعال عباده والا بطل التوحيد في الخالقية .

وبالبيان التالي يظهر بطلان التوهم المذكور ، وان واحداً من الأصلين لا يقتضي الجبر ، اذا فسر على الوجه الصحيح ، لا على الوجه الذي يتبناه أهل الحديث وحتى الأشاعرة . فنقول :

أما كون افعال العباد متعلقاً لمشيئته فلا شك أن كل ما يقع في صحيفة الكون يقع باذنه ومشيئته ويمتنع أن يتحقق في ملكه سبحانه ما هو خارج عنها قال سبحانه : « ما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين ـ التكوير : ٢٩ ـ ٢٨ » .

ولكن يجب تدقيق النظر في كيفية تعلق مشيئته بأفعال العباد بل بعامة الفاعلين مدركين كانوا أم غير مدركين .

وهذه هي النقطة الحساسة في حل عقدة الجبر مع القول بكون أفعالنا متعلقاً لمشيئته ، بيان ذلك ان هناك فرضين :

١ ـ تعلقت مشيئته سبحانه بصدور الفعل من العبد ايجاداً واضطراراً .

٢ ـ تعلقت مشيئته سبحانه بصدوره منه عن ارادة واختيار .

فالقول بالجبر نتيجة النظرية الاولى دون الثانية .

ان مشيئته سبحانه تعلقت بصدور كل فعل عن فاعله مع الخصوصية الموجودة فيه ، كالصدور عن لا شعور في النار بالنسبة الى الحرارة والصدور عن اختيار في الانسان بالنسبة الى التكلم والمشي . وعلى ذلك يجب أن تصدر الحرارة من النار عن اضطرار ، ويصدر التكلم أو المشي عن الانسان باختيار وارادة . فلو صدرت الأولى عن النار بغير هذا الوضع ، أو الثاني من الانسان بغير هذه الكيفية ، يلزم التخلف في مشيئته سبحانه وهو محال اذ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ومجرد كون الفعل متعلقاً لمشيئته وأن ما شاء يقع ، لا يستلزم القول بالجبر . ولا يصير الانسان مسيراً اذا كان الفعل صادراً عن الفاعل بالخصوصية المكتنفة له . فالنار فاعل طبيعي تعلقت مشيئته سبحانه بصدور أثرها « الحرارة » عنها بلا شعور .

والانسان فاعل مدرك شاعر مريد تعلقت مشيئته سبحانه بصدور فعله مع الشعور والارادة . فلو صدر الفعل في كلا الموردين لا مع هذه الخصوصيات يلزم التخلف . فتنزيه ساحته عن وصمة التخلف يتوقف على القول بأن كل معلول يصدر عن العلة . لكن بالخصوصية التي خلقت معها . فقد شاء سبحانه أن تكون النار فاعلا موجباً ، ويصدر عنها الفعل بالايجاب ، كما شاء أن يكون الانسان فاعلا مختاراً ويصدر الفعل لكن بقيد الاختيار والحرية .

هذا كله حول المشيئة . وأما كون افعال العباد مخلوقة لله سبحانه فهذا أصل يجب الاعتراف بـه بحكم التوحيد في الخالقيـة ، وأن « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ـ الزمر : ٦٢ » .

لكن يجب تفسير التوحيد في الخالقية . وليس معنـاه انحصار الفاعلية والخالقية ، الأعم من المستقل وغير المستقـل بالله سبحانه . بأن يكون هناك فاعل واحد يقوم مقام جميع العلل والفواعل المدركة وغير المدركة ، كما هو الظاهر من عبارات القوم في تفسير التوحيد في الخالقية ، اذ معنى ذلك رفض مسألة العلية والمعلولية بين الأشياء.

وهذا ما لا يوافقه العقل ولا الذكر الحكيم . بل معناه أنه ليس في صفحة الوجود خالق أصيل غير الله ، ولا فاعل مستقل سواه سبحانه وان كل ما في الكون من كواكب وجبال ، وبحار وعناصر ، ومعادن وسحب ، ورعـود وبروق ، وصواعق ونباتات ، وأشجـار وانسان وحيـوان وملك وجن ، وعلى الجملة كل ما يطلق عليه فاعـل وسبب كلها علـل وأسباب غير مستقلة التأثير . وان كل مـا ينسب الى تلك الفواعل من الاثار ليس لذوات هذه الاسباب بالاستقلال .

وانما ينتهي تأثير هذه المؤثرات الى الله سبحانه . فجميع هذه الأسباب والمسببات رغم ارتباط بعضها ببعض مخلوقة لله . فاليه تنتهى العلية ، واليه تؤول السببية وهو معطيها للأشياء . كما له تجريدها عنها ان شاء .

وهذا هو نتيجة الجمع بين الايات الناصة على حصر الخالقية

بالله سبحانه ، والايات المثبتة لها لغيره ، كما في قوله سبحانه حاكياً عن سيدنا المسيح على نبينا وآله وعليه السلام « اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ـ آل عمران : ٤٩ » وقوله سبحانه : « فتبارك الله أحسن الخالقين ـ المؤمنون : ١٤ » .

فهذا الصنف من الايات الذي يسند الخلق الى غيره سبحانه اذا قورن بالايات الاخر المصرحة بانحصار الخالقية بالله سبحانه ، مثل قوله تعالى : « قل الله خالق كل شي وهو الواحد القهار ـ الرعد : ١٦ » .

يستنتج أن الخالقية المستقلة غير المستندة الى شيء سوى ذات الخالق منحصرة بالله سبحانه . وفي الوقت نفسه الخالقية والفاعلية غير المستقلة المفاضة من الواهب سبحانه الى الأسباب . تعم عباده وجميع الفاعلات المدركة وغير المدركة .

وعلى ذلك كل فعل صادر عن فاعل طبيعي أو مدرك كما يعد فعله سبحانه ، كذلك يعد فعلا للعبد . لكن بنسبتين .

فالله سبحانه فاعل لها بالتسبيب ، وغيره فاعل لها بالمباشرة . فليست ذاته سبحانه مبدأ للحرارة بلا واسطة النار ، أو للأكل والمشي بلا واسطة الانسان . بل الفاعل الذي تصدر عنه هذه الأمور هو النار والانسان ، ولكن فاعلية كل واحد بقدرته وافاضة الوجود .

وبذلك يتبين أن أفعال العباد في حال كونها مخلوقة لله مخلوقة

للانسان أيضاً ، فالكل خالق لا في عرض واحد ، بل فاعلية الثاني في طول فاعلية الأول . والبيتان التاليان يلخصان هذه النظرية :

وكيف فعلنا الينا فوضا وان ذا تفويض ذاتنا اقتضى
لكن كما الوجود منسوب لنا فالفعل فعل الله وهو فعلنا

وبذلك يتبين أن الاعتراف بالمرتبة الثالثة والرابعة من القدر لا يلازم الجبر ، بشرط تفسيرهما على النحو الذي تقدم[1] .

١ . ومن أراد التفصيل فليرجع الى كتابنا : « مفاهيم القرآن » الجزء الاول ص ٣٣٤ ـ ٢٩٩ .

(٤)

هل الايمان بخلافة الخلفاء من صميم الدين

اذا كان الخلاف في الامامة أعظم خلاف بين الأمة حسب نظر الشهرستاني اذ قال: ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة في كل زمان . فيجب على دعاة الوحدة الذين يبذلون سعيهم لتوحيد الصفوف معالجة هذه المسألة من وجهة علمية في جوهاديء، فان حل هذه المسئلة ونظائرها يوجب تقارب الخطى، بل توحد الصفوف . فان الوحدة بشكلها السلبي الذي يدعوا الى تناسي الماضي ، والتغافل عنه من اساسه، واسدال الستار على كل ما فيه من مفارقات ، على ما يتبناها بعض دعاتها ، لاتؤثر ولا تحقق أمنيتهم وانما تحقق تلك الامنية لو اثبتت بصورة علمية أن جملة كبيرة من صور الخلاف لا تستند على أساس ، وانما هي وليدة دعايات خلقتها بعض الظروف وغذاها قسم من السلطات في عهود خاصة ، ولأجل

ذلك نطرح هذه المسئلة على طاولة البحث حتى تتقارب الأفكار المتباعدة فان الصراع العلمي والجدال بالحق مهما كان بصورة علمية ، يكون من أفضل عوامل التقريب ورفع التباعد فنقول :

من راجع الكتب الكلامية لأصحاب الحديث، وبعدهم الأشاعرة وجدأنهم يعدون الايمان بخلافة الخلفاء الأربعة وحتى تفاضلهم حسب زمن امامتهم من صميم الايمان ، ولا بد أن نأتي ببعض النصوص للقدامى منهم :

١ ـ قال امام الحنابله (المتوفى عام ٢٤١) في كتاب السنة : خير هذه الأمة بعد نبينا صلى الله عليه وآله أبوبكر ، وخيرهم بعد أبي بكر ، عمر ، وخيرهم بعد عمر ، عثمان ، وخيرهم بعد عثمان علي ، رضوان الله عليهم خلفاء راشدون مهديون[1] .

٢ ـ وقال أبوجعفر الطحاوي الحنفي في العقيدة الطحاوية المسماة بـ « بيان السنة والجماعة » : ونثبت الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله لأبي بكر الصديق تفصيلا وتقديماً على جميع الأمة ثم لعمر بن الخطاب (رض) ثم لعثمان بن عفان (رض) ثم لعلي

١ . كتاب السنة المطبوع ضمن رسائل باشراف حامد محمدفقي وهذا الكتاب ألفه لبيان مذاهب أهل العلم وأصحاب الاثروأهل السنة ووصف من خالف شيئاً من هذه المذاهب ، أوطغى فيها ، أوعاب قائلها بأنه مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق .

ابن أبي طالب (رض) [١] .

٣ ـ وقال أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعري (المتوفى عام ٣٣٠) عند بيان عقيدة أهل الحديث وأهل السنة: ويقرون بأنهم الخلفاء الراشدون المهديون افضل الناس كلهم بعد النبي صلى الله عليه وآله[٢].

وقال أيضاً بعد ما استعرض خلافة الأئمة الأربعة قال رسول الله صلى الله عليه وآله الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك[٣].

٤ ـ وقال عبد القاهر البغدادي في بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنة : وقالو بامامة أبي بكر الصديق بعد النبي خلاف من أثبتها لعلي وحده من الرافضة ، وخلاف قول الراوندية الذين أثبتوا امامة العباس وحده [٤] .

أقول : هذه هي عقيدة هؤلاء الأعلام وغيرهم ممن كتب في موضوع الامامة عن أهل السنة ، ولرفع الستار عن وجه الحقيقة ، نبحث في نواحي خاصة لها صلة وثيقة في الموضوع وهذه النواحي عبارة عن:

الف : هل الامامة والخلافة من أصول الدين أو من فروعه ؟

١ . شرح العقيدة الطحاوية للشيخ عبد الغنى الميدانى الحنفى الدمشقى : ص ٤٧٨ ـ ٤٧١ . وقد توفى الطحاوى عام ٣٢١ .

٢ . مقالات الاسلاميين : ص ٣٢٣ .

٣ . الابانة عن اصول الديانة الباب السادس عشر : ص ١٩٠ وما ذكره من الحديث رواه أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٢٢٠ ولاحظ العقائد النسفية : ص ١٧٧ ولمع الادلة للامام الاشعرى : ص ١١٤ ؛

٤ . الفرق بين الفرق : ص ٣٥٠ ؛

ب : هل هناك نص في القرآن أو السنة في مسألة الامامة أولا؟

ج : مبدء ظهور هذه العقيدة ؟

د : هل هناك نص على أفضلية بعضهم على بعض وفق تسلسل زمانهم ؟

فاذا تبين الحال فى هذه المواضع يتبين الحال في المسئلة التي بيناها آنفاً .

ألف : هل الامامة من الاصول أو من الفروع ؟

الشيعة الامامية على بكرة أبيهم اتفقوا على كونها أصلا من أصول الدين وقد برهنوا على ذلك في كتبهم ، ولأجل ذلك يعد الاعتقاد بامامة الائمة من لوازم الايمان الصحيح عندهم ، وأما أهل السنة فقد صرحوا في كتبهم الكلامية أنها ليست من الأصول ، واليك بعض نصوصهم :

١ ـ قال الغزالي (المتوفى عام ٥٠٥) : اعلم ان النظر في الامامة أيضا ليس من المهمات ، وليس أيضاً من فن المعقولات بل من الفقهيات ، ثم انها مثار للتعصبات ، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها ، وان اصاب فكيف اذا أخطأ ، ولكن اذ جر الرسم باختتام المعتقدات بها ، أردنا أن نسلك منهج المعتاد فان فطام القلوب عن المنهج المخالف للمألوف ، شديد النفار . ولكنا

نوجز القول فيه [١] .

٢ ـ قال الآمدي : واعلم أن الكلام في الامامة ليس من أصول الديانات ولا من الأمور اللابديات بحيث لا يسع المكلف الاعراض عنها ، والجهل بها بل لعمري ، ان المعرض عنها لأرجى حالا من الواغل فيها ، فانها قلما تنفك عن التعصب والأهواء ، واثارة الفتن والشحناء ، والرجم بالغيب في حق الائمة ، والسلف بالازراء ، وهذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق ، فكيف اذا كان خارجاً عن سواء الطريق . لكن لما جرت العادة بذكرها في أواخر كتب المتكلمين والابانة عن تحقيقها في عامة مصنفات الأصوليين لم نر من الصواب خرق العادة بترك ذكرها في هذا الكتاب [٢] .

٣ ـ قال في شرح المواقف : المرصد الرابع في الامامة ومباحثها وليست من أصول الديانات والعقائد خلافاً للشيعة بل هي عندنا من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين اذ نصب الامامة عندنا واجب على الأمة سمعاً ، وانما ذكرناها في علم الكلام تأسياً بمن قبلنا ، اذ قد جرت العادة من المتكلمين بذكرها في اواخر كتبهم [٣].

١ . الاقتصاد في الاعتقاد: ص ٢٣٤ وفي العبارة صعوبة والظاهر كلمة «المخالف» وصحيحها « المنهج المألوف » .

٢ . غاية المرام في علم الكلام : ص ٣٦٣ لسيف الدين الامدي م ٥٥١ ـ ت ٦٣١ هـ .

٣ . شرح المواقف : ج ٨ ص ٣٤٤ للسيد الشريف المتوفى عام ٨١٦ .

٤ ـ وقال الرازي : اتفقت الأمة، الا شذاذاً منهم ، على وجوب الامامة والقائلون بوجوبها ، منهم من أوجبها عقلا، ومنهم من أوجبها سمعاً . أما الموجبون عقلا ، فمنهم من أوجبها على الله تعالى، ومنهم من أوجبها على الخلق [١] .

وعلى كل تقدير فقد اعتبر أهل السنة هذا الوجوب حكماً شرعياً فرعياً كسائر الاحكام الفرعية الواردة في الكتاب والسنة والكتب الفقهية ، واذا تبين هذا المطلب فلنبحث عن الموضوع الثاني .

ب : هل هناك نص على الامامة أم لا ؟

اتفقت الشيعة الامامية على أن المذهب الحق في باب الامامة هو القول الثاني بالتنصيص وان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نص في أيام حياته على الخليفة من بعده وذلك في موارد ضبطها التاريخ أشهرها قوله عليه السلام في يوم الغدير، أي الثامن عشر من ذى الحجة الحرام في عام حجة الوداع في منصرفه من مكة عند بلوغه غديرخم رافعاً يد علي عليه السلام في محتشد كبير: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قال الناس : نعم ، فقال : من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، أللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وقد قامت ثلة كثيرة من علماء الفريقين بضبط طرق الحديث وأسناده، فألفوا في ذلك مختصرات ومفصلات، أجمعها وأعمها كتاب الغدير لاية الله الحجة الأميني رضوان الله عليه .

١ . المحصل للرازى : ص ٤٠٦ ط ايران .

هـذا ما عند الشيعة ، وأما عند السنة فالرأى الصائد هـو عدم التنصيص وان رسول الله صلى الله عليه وآله مـات ولم يستخلف . وهذا هوامام الحرمين يقول : وما نص النبي صلى الله عليه وآله على امامة أحد بعده وتوليته ، اذ لو نص على ذلك لظهر وانتشرت كمـا اشتهرت تولية رسول الله صلى الله عليه وآله سائر ولاته وكما اشتهر كل أمر خطير [١] .

وقال الأشعري : ومما يبطل قول من قال بالنص على أبي بكر: أن أبابكر قـال لعمر « أبسط يدك أبايعك » يوم السقيفـة . فلو كان رسول الله صلى الله عليه وآله نص على امامته لم يجز أن يقول أبسط يدك أبايعك [٢] .

وقد عقد ابن كثير الحنبلي في كتابه البداية والنهاية باباً مستقلا في أن رسول الله لم يستخلف وتبعه السيوطي في تاريخ الخلفاء[٣].

والمسئلة ـ أي عدم وجود النص على المتقمصين بالخلافة بعد النبي ـ في الوضوح بمكان بحيث لاتحتاج الى اقامة الدليل عليها كيف وهذه قصة السقيفة لم نرأحداً فيهـا من الذين رشحوا أنفسهم للخلافة كسعد بن عبادة من الأنصار ، وأبي بكرمن المهاجرين ، استدل على صحة خلافته بنص النبي .

١ . لمع الادلة : ص ١١٤ .
٢ . اللمع : ص ١٣٦ .
٣ . لاحظ البداية : ج ٥ ص ٢٥٠ ، وتاريخ الخلفاء : ص ٧ ط مصر .

هذا هو سعد بن عبادة يقول بعد أن حمدالله وأثنى عليه : يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست لقبيلة من العرب ان محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الانداد والاوثان ، فما آمن به من قومه الا رجال قليل ، الى أن قال : حتى اذا أراد بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الايمان به وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه والاعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، الى أن قال: وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين ، استبدوا بهذا الأمر دون الناس .

هذا منطق مرشح الأنصار لا ترى فيه تلميحاً الى وجود النص عليه وليس يقصر عنه منطق أبي بكر في هذا الموقف حين قال : فهم ـ أي المهاجرون ـ أول من عبدالله في الارض، وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولاينازعهم في ذلك الا ظالم ، الا أن قال : من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته الا مدل بباطل أو متجانف لاثم ، أو متورط في هلكة [1] .

فهذان المنطقان من سعد بن عبادة وأبي بكر يعربان عن عدم وجود النص على واحد منهما . وأما الخليفتان الاخران فحدث عنهما ولا حرج . فقد رقى عمر بن الخطاب منصة الخلافة بأمر من أبي بكر فقد دعى أبوبكر عثمان بن عفان في حال مرضه فقال له : اكتب بسم

١ . تاريخ الطبرى : ج ٢ حوادث السنة : ١١ ص ٤٥٦ .

الله الرحمن هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة الى المسلمين : أما بعد ثم اغمي عليه فكتب عثمان ، عمر بـن الخطاب ولم يكن خيراً منه ، ثم افـاق وقال اقرأ علي ، فقرأ عليه فكبر أبو بكر الى أن قـال لعثمان : جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله . وأمره أبو بكر مـن هذا الموضع [١] .

وأما خلافة عثمان فقد انتخب عن طريق الشورى التي عين أعضاءها عمر بن الخطاب عند ما طعنه أبو لؤلؤة ـ غلام المغيرة بـن شعبة ـ وكانت أعضـاء الشورى ستة أشخاص وهم : على بـن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبدالله، وعبدالرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام [٢] .

وقد ذكر التاريخ كيفية استلام عثمان للخلافة . فهذا هو التاريخ المسلم بـه ، يعرب بوضوح عن عدم وجود نص على واحـد من الخلفاء الثلاث جميعاً والا لم يحتج الى تعيين أول الخلفـاء لثانيهم والى تعيين الشورى وانتخاب الخليفة عن طريقها .

وقد قام المحدثون القدامى منهم والمتأخرون، بجمع ما ورد من الأحاديث حول الخلافة والامارة ، منهم الامام أبو السعادات الجزري في كتابه (جامع الاصول من أحاديث الرسول) فقد جمعها في الجزء

١ . الامامة والسياسة لابن قتيبة : ص ١٨ وص ٢٥ ط مصر والشرح الحديدى: ج ١ ص ١٦٥ .

٢ . تاريخ الطبرى : ج ٣ ص ٢٩٣ .

الرابع من هذا الكتاب، ومنهم العلامة علاء الدين علي المتقي الهندي (ت ٩٧٥) فقد جمعها في كتابه (كنز العمال، الجزء الخامس) ولا يوجد فيه نص صريح على واحد من الخلفاء الثلاث .

نعم في المقام روايات تشير الى أن الخلافة من حق قريش وهي أحاديث مشهورة موجودة في الكتاب الانف ذكره . اذا وقفت على هذين الأمرين ، تقف على أن ما ادعيناه من عدم كون الاعتقاد بخلافة الخلفاء من صميم الدين نتيجة ذينك الأمرين ، وذلك لأنه اذا كان أصل الامامة والخلافة من الفروع لا من الاصول ، ومن جانب ثبت حسب نصوص القوم أن النبي لم ينص على خلافة واحد منهم من جانب آخر ، غاية ما في الباب أن الأمة في صدر الاسلام قاموا بواجبهم الشرعي أو العقلي حيث كان نصب الامام واجباً بأحد الوجهين.

فأقصى ما يمكن أن يقال : ان خلافة هؤلاء كانت أمراً صحيحاً غير مخالف للأصول والقواعد ، ولكن يجب أن يعلم ليس كل قضية صحيحة جزءاً من الدين ، وعلى فرض كونها من الدين ، فليس كل ما هو من الدين يجب أن يعد من العقائد ، وعلى فرض كونها من العقائد فليس كل ما هو يعد من العقائد مائزاً بين الايمان والكفر أو بين السنة والبدعة . وهذا مراحل ثلاث يجب أن يركز عليها النظر فنقول :

ان غاية جهد الباحث حسب أصول أهل السنة كون خلافتهم أمراً صحيحاً ، لأن نصب الامام واجب على الامة عقلا أو شرعاً ، فلأجل ذلك قاموا بواجبهم فنصبوا هذا وذاك للامامة، ونتيجة ذلك أن عملهم

كان أمراً مشروعاً ولكن ليس كل أمر مشروع يعد جزءاً من الدين .

فلوقام القاضي بفصل الخصومة بين المترافعين في ضوء الكتاب والسنة فحكم بأن هذا المال لزيد دون عمرو وكان قضاؤه صحيحاً لا يعد خصوص هذا القضاء (لا أصل القضاء بالصورة الكلية) من الدين ، اذ ليس كل أمر صحيح جزءاً من الدين ، ولا يصح أن يقال انه يجب أن نعتقد أن هذا المال لزيد دون عمرو، ولوتنزلنا عن ذلك وقلنا انه من الدين ، ولكن ليس كل ما هو من الدين يعد من العقائد فكون الماء طاهراً ومطهراً حكم شرعي ، ولكن ليس من العقائد ، فأي فرق بينه وبين خلافة الخلفاء مع اشتراك الجميع في كونه حكماً فرعياً لا اصلا من الأصول .

ولوتنزلنا مرة ثانية وقلنا انه من العقائد، ولكن ليس كل ما يجب الاعتقاد به ، مائزاً بين الايمان والكفر ، أو بين السنة والبدعة ، اذ للمسائل العقيدية درجات ومراتب ، فالشهادة بتوحيده سبحانه ونبوة نبيه واحياء الناس يوم الدين ، يعد مائزاً بين الكفر والايمان ، وليس كذلك الاعتقاد بعذاب القبر، أوسؤال منكر ونكير، أوكون مرتكب الكبيرة مؤمناً . وعلى هذا الأساس يجب على اخواننا أهل السنة تجديد النظر في هذا الأصل الذي ذهبوا اليه ، وهو جعلهم الاعتقاد بخلافة الخلفاء المشار اليهم ،آية السنة ، ومخالفته آية البدعة .

ولوتوفى الرجل عن أولاد صغار بلاوصي ولاتعيين قيم لصغاره فعلى الحاكم الاسلامي تعيين القيم عليهم لئلا يضيع أموالهم، وعندئذ

يسئل فهل الاعتقاد بالاصل الكلى من صميم الدين ؟ وأنه يجب على المسلم أن يعتقد بأن من مات عن أولاد صغار يجب على الحاكم نصب من يلي أمورهم ؟ وعلى فرض كونه بصورته الكلية من صميمه ، فهل الاعتقاد بأن زيداً ولي الصغار عند نصب الحاكم له من صميم الدين؟ أو أن المطلوب في الفروع هو العمل عند الابتلاء . وأما الاعتقاد التفصيلي بالكبريات والصغريات فغير لازم .

ج : مبدأ ظهور هذه العقيدة

لم يكن في عصور الخلفاء الثلاث، أي أثر من هذه العقيدة ولم يكن يخطر ببال أحد من المهاجرين والأنصار أنه يجب الاعتقاد بخلافة هذا أو ذاك أو ذلك ، وأنه لو لم يكن معتقداً بخلافتهم يخرج عن صفوف المؤمنين ويلتحق بالمبدعين. وانما أوجدت تلك الفكرة يد السياسة بهدف الازراء بعلي، وتصحيح خروج معاوية عليه، لأخذ ثار الخليفة ، ولعل عمرو بن العاص هو أول من بذر تلك الفكرة .

ويدل على ذلك ما ذكره المسعودي في كتابه : قال: اجتمع عمرو بن العاص مع أبي موسى الأشعري في دومة الجندل ، فجرى بينهما مناظرات وقد أحضر « عمر » غلامه لكتابة ما يتفقان عليه، فقال عمرو بن العاص ـ بعد الشهادة بتوحيده سبحانه ونبوة نبيه صلى الله عليه وآله ـ ونشهد أن أبابكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قبضه الله اليه، وقد أدى

الحق الذي عليه .

قال أبوموسى: أكتب ثم قال في عمر مثل ذلك، فقال أبوموسى: أكتب ثم قال عمرو وأكتب : وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على اجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ورضاً منهم ، وأنه كان مؤمناً ، فقال أبو موسى الأشعري ليس هذا مما قعدنا له ، قال عمرو : والله لابد من أن يكون مؤمناً أو كافراً فقال أبوموسى : كان مومناً ، قال عمرو: فمره يكتب . قال أبوموسى: أكتب قال عمرو : فظالماً قتل عثمان أومظلوماً ؟ قال أبوموسى : بل قتل مظلوماً . قال عمرو : أوليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه ؟ قال ابوموسى : نعم ، قال عمرو : فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية ؟ قال ابوموسى : لا ، قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أويعجز عنه ؟ قال ابوموسى : بلى ، قال عمرو للكاتب : أكتب وأمره أبوموسى فكتب ، قال عمرو: فانا نقيم البينة على أن علياً قتل عثمان . . . الخ [1] .

وهذا النص من حجة التاريخ وغيره يعرب عن أن الاعتقاد بخلافة الخلفاء انما برز للوجود في جو مشحون بالعداء والبغضاء والمنافسة والمغالبة ، حتى جعل ذلك الداهية الماكر ، الاعتقاد بخلافة الشيخين وسيلة لانتزاع الاقرار بخلافة الثالث من الخلفاء ، ولم يكن ذلك الانتزاع مقصوداً بالذات بل أخذه ذريعة لانتزاع الاعترافات الأخرى

١ . مروج الذهب للمسعودى : ج ٢ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٦ .

من أنه قتل مظلوماً وأنه ليس له ولي يطلب بدمه أولى مـن معاوية وأن علياً هو القاتل الى آخره ...

ثم ان الاجواء السياسية المخالفة لأمير المؤمنين أخذت تروج تلك العقيدة من أجل الاطاحة به عليه السلام واثبات صحة قيام معاوية وصحة أعماله وقيامه ونصبه ، فصار ذلك المستمسك السياسي بمرور الزمان، عقيدة دينية وسقته الأوضاع السياسية الأموية والعباسية ، الى أن ذكرت في الكتب والمؤلفات وعدت من صميم الدين .

وقد استفحلت أهمية الايمان بخلافة الخلفاء ولاسيما الثالث منهم في عهد معاوية عند ما كتب معاوية الى عماله بعد عام الجماعة : أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيتـه ، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرئون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته ، وكان أشد الناس بلاءاً حينئذ أهل الكوفة ، لكثرة من فيها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم اليه البصرة فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف . لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومـدر وأخافهـم ، وقطع الأيدى والأرجل ، وسمل العيون وصلبهم على جـذوع النخل ، وطردهـم وشردهم عن العراق ، فلم يبق بها معروف منهم . وكتب معاوية الى عماله في جميع الافاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة. وكتب اليهم: ان انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه ، فأدنوا مجالسهم وقربوهم واكرموهم واكتبوا الي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته

ففعلوا ذلك، حتى اكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لماكان يبعثه اليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي. فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملا من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة الا كتب اسمه وقربه وشفعه فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب الى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية. فاذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس الى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب الا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فان هذا أحب الي وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد اليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس فرويت اخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، والقى الى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ماشاء الله [1].

كل ذلك يثبت أن الايمان بخلافتهم ولا سيما الثالث منهم، كان وليد سياسات غاشمة انطلقت من البيت الأموي وأشياعه ضد البيت

١. الشرح الحديدى: ج ١١ ص ٤٥ ـ ٤٤ نقله عن كتاب الاحداث لابى الحسن على بن محمد بن أبى سيف المدائنى.

العلوي واتباعه . وبذلك يسهل تصديق ما ذكره الكاتب الكبير محمود أبورية في كتابه القيم « أضواء على السنة النبوية » : ان الاهواء الشخصية والأغراض المذهبية كان لها أثر بعيد في وضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه وآله لكي يؤيد كل فريق رأيه ، ويحقق مآربه ، بحق وبغير حق . . . . . وبصدق وبغير صدق ! [١] .

وفي الختام للقارىء الكريم أن يسأل من جعل الاعتقاد بخلافة الخلفاء الأربع من صميم الدين دون سواهم ، وأن يسأل عن وجه التفاضل والتمييز بينهم وبين سائر الخلفاء ، الذين تسلموا دفة الخلافة عن طريق الوراثة ، أو تنصيص سابق منهم على اللاحق ، أو ببيعة عدة من الشاميين وغيرهم . وهذا عمر بن عبدالعزيز قد تسلم دفة الحكم بأحد هذه الطرق مع أنهم لا يجعلون الايمان بخلافته من صميم الايمان ، مع أنه من قريش . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقى منهم اثنان . وقال صلى الله عليه وآله : قريش ولاة الناس في الخير والشر الى يوم القيامة [٢] .

نعم اللهم الا أن يعتذروا عن هذا التخصيص بأن رسول الله قال: الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك [٣] لكن في سنده سعيد

١ . أضواء على السنة المحمدية .

٢ . جامع الاصول : ج ٤ ص ٤٣٨ ـ ٤٣٧ .

٣ . المصدر نفسه .

ابن جمهان ، قال أبوحاتم الرازي: شيخ يكتب حديثه ولايحتج به[١].

ثم انهنا نكتتين نبه عليهما العلامة الروحاني في كتابه بحوث مع أهل السنة والسلفية : (ص ٢٥ ـ ٢٤) نأتي بهما معاً .

١ ـ الحق الذي يراه المتتبع في التاريخ هو أن عقيدة خلافة الخلفاء الثلاثة وقد استهم البالغة ، قداقحمت في عقائد أهل السنة السنة اقحاماً ، وانما كان ذلك رد فعل ومحاكاة لعقيدة الشيعة في علي وأولاده الطاهرين ، ولذا صيغت هذه العقيدة أولا عند أهل السنة في قالب الرد والمعارضة لعقيدة الشيعة فقط ، ثم الحقوا علياً عليه السلام بهم في عصر متأخر .

وبتفصيل أكثر نقول : ان جعل خلافة الشيخين من العقائد ، لم يكن في القرن الأول . وغايه ما كان يقال فيهما هو أن خلافتهما كانت صحيحة .

هذا فضلا عن عقيدتهم في خلافة عثمان وعلي ، بل ان عثمان لم يكن بذلك المرضي عند الناس .

ثم ان المرجئة كانت تشك في عدالة عثمان وعلي ، بل في ايمانهما [٢] . ونحلة الارجاء كانت شائعة في عامة الناس آنذاك قبل غلبة أهل الحديث ، بل لقد كان لهم القدح المعلى حتى بعد وجود أهل الحديث والسنة في كثير من البلاد . حتى قال الأمير نشوان

١ . الجرح والتعديل : ج ٤ ص ١٠ .

٢ . طبقات النساء : ج ٦ ص ١٥٤ .

الحميري : وليس كورة من كور الاسلام الا والمرجئة غالبون عليها الا القليل [١] .

٢ ـ تقرر الأمر في نحلة أهل الحديث على قبول خلافة علي عليه السلام بعد ما كانوا في الغالب من العثمانية ينكرون خلافة علي ويظهر أن قبول خلافة علي عليه السلام كان على يد الامام أحمد بن حنبل، فقد ذكر ابن أبي يعلى بالاسناد عن وديزة الحمصي قال: دخلت على أبي عبدالله أحمد بن حنبل حين أظهر التربيع بعلي رضى الله عنه فقلت له يا أبا عبدالله ان هذا لطعن على طلحة والزبير ، فقال بئس ما قلت وما نحن وحرب القوم وذكرها فقلت أصلحك الله انما ذكرناها حين ربعت بعلي وأوجبت له الخلافة وما يجب للأئمة قبله ، فقال لي وما يمنعني من ذلك ، قال قلت حديث ابن عمر [٢] فقال لي عمر خير من ابنه فقد رضي علياً للخلافة على المسلمين وادخله في الشورى وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قد سمى نفسه أمير المؤمنين فأقول أنا ليس للمؤمنين بأمير . فانصرفت عنه [٣] .

وهذا يعرب عن أن مسألة التربيع كانت مسألة ثقيلة على هذا المحدث وقد كان غير الكوفيين على هذا المذاق .

ولما يؤيد عدم كون خلافة الخلفاء من صميم الدين : أن أحمد

١ . الحور العين : ص ٢٠٣ .

٢ . الحديث المنسوب الى ابن عمر هو (كنا نعدو رسول الله حتى وأصحابه متوافرون : أبو بكر ثم عثمان ثم نسكت) .

٣ . طبقات الحنابلة : ج ١ ص ٣٩٣ .

ابن حنبل في رسالته المؤلفة حول مذاهب أهل السنة لم يذكرها في عداد العقائد الاسلامية ، بل بعد ما أكمل بيان العقائد قال : ومن السنة ذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله والكف عما شجر بينهم ، فمن سب أصحاب رسول الله أو واحداً منهم فهو مبتدع رافضي، حبهم سنة ، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والاخذ بآثارهم فضيلة ، وخير هذه الامة ـ بعد نبيها ـ أبوبكر ، وخيرهم بعد أبي بكر عمر ، وخيرهم بعد عمر عثمان ، وخيرهم بعد عثمان علي رضوان الله عليهم خلفاء راشدون مهديون . . . [1] .

١ ـ كتاب السنة : ص ٤٩ .

خاتمة المطاف ، ونذكرا موراً

الاول ـ فى بيان أهل الحديث والاهواء المتضادة

قبل امامة الامام أحمد وتطور الدعوة السلفية

ان أهل الحديث قبل امامة أحمد بن حنبل لم يكونوا على طريقة واحدة بل كانوا على مسالك مختلفة واهواء متضادة وانما جمعهم الامام أحمد على وتيرة واحدة ، فقد كانوا بين مرجئي يرى تأخير القول في الحكم على مرتكب الكبائر بالنار، وناصبي مبغض لعلي عليه السلام ومتشيع يقدم علياً عليه السلام على سائر الصحابة والخلفاء ويرى الفضيلة له في الامامة والخلافة دون غيره ، وقدري ينسب شرور العباد الى انفسهم ، وجهمي ينفي كل صفة لله سبحانه ، ويعتقد بخلق القرآن ، وخارجي ينكر على علي التحكيم ويتبرء منه ومن عثمان وواقفي لا يقول: القرآن مخلوق اوغير مخلوق، ومتقاعد يرى الخروج على الائمة ولا يباشره بنفسه .

أما المرجئة فهم :

١ - ابراهيم بن طهمان ٢ - ايوب بن عائذ الطائى ٣ - ذربن عبدالله المرهبى ٤ - شيابة بن سوار ٥ - عبد الحميد بن عبدالرحمن ٦- ابو يحيى الحمانى ٧- عبد المجيد بن عبدالعزيز ٨ - ابن ابى رواد ٩ - عثمان بن غياث البصرى ١٠ - عمربن ذر ١١ - عمربن مرة ١٢ - محمد بن حازم ١٣ - أبو معاوية الضرير ١٤ - ورقاء بن عمر اليشكرى ١٥ - يحيى بن صالح الوحاظى ١٦ - يونس بن بكير .

أما النواصب فهم :

١٧- اسحاق بن سويد العدوى ١٨- بهزبن اسد ١٩- حريز ابن عثمان ٢٠ - حصين بن نمير الواسطى ٢١ - خالد بن سلمة الفأفاء ٢٢ - عبدالله بن سالم الأشعرى ٢٣ - قيس بن أبي‌حازم .

وأما الشيعة فهم :

٢٤ - اسماعيل بن أبان ٢٥ - اسماعيل بن زكريا الخلقانى ٢٦- جريربن عبد الحميد ٢٧- ابان بن تغلب الكوفى ٢٨- خالد ابن محمد القطوانى ٢٩ - سعيد بن فيروز ٣٠ - ابو البخترى ٣١ - سعيد بن أشوع ٣٢ - سعيد بن عفير ٣٣ - عباد بن العوام

٣٤ـ عباد بن يعقوب ٣٥ـ عبدالله بن عيسى ٣٦ـ ابن عبدالرحمن ابن ابي ليلى ٣٧ ـ عبدالرزاق بن همام ٣٨ ـ عبدالملك بن اعين ٣٩ ـ عبيدالله بـن موسى العبسى ٤٠ ـ عـدى بن ثابت الانصارى ٤١ ـ على بن الجعد ٤٢ ـ على بن هاشم بن البريد ٤٣ ـ الفضل ابن دكين ٤٤ ـ فضيل بن مرزوق الكوفى ٤٥ ـ فطر بـن خليفه ٤٦ ـ محمد بن جحادة الكوفى ٤٧ ـ محمد بن فضيل بـن غزوان ٤٨ ـ مالك بن اسماعيل ابو غسان ٤٩ ـ يحيى بن الخراز .

اما القدرية فهم :

٥٠ ـ ثور بـن زيد المدنى ٥١ ـ ثور بـن يزيد الحمصي ٥٢ ـ حسان بن عطية المحاربى ٥٣ـ الحسن بن ذكوان ٥٤ ـ داود ابـن الحصين ٥٥ ـ زكريا بن اسحاق ٥٦ ـ سالم بـن عجلان ٥٧ ـ سلام بن مسكين ٥٨ ـ سيف بن سليمان المكى ٥٩ ـ شبل ابن عباد ٦٠ ـ شريك بن أبي نمر ٦١ ـ صالح بن كيسان ٦٢ ـ عبدالله بن عمرو ٦٣ ـ أبو معمر عبدالله بن أبي لبيد ٦٤ ـ عبدالله ابن أبي نجيح ٦٥ ـ عبد الاعلى بن عبد الاعلى ٦٦ ـ عبدالرحمن ابن اسحق المدنى ٦٧ ـ عبدالوراث بن سعيد الثورى ٦٨ ـ عطاء ابن أبي ميمونه ٦٩ ـ العلاءبن الحارث ٧٠ ـ عمرو بـن زائدة ٧١ ـ عمران بن مسلم القصير ٧٢ ـ عمير بن هانى ٧٣ ـ عـوف الاعرابى ٧٤ ـ كهمس بن المنهال ٧٥ ـ محمد بن سواء البصرى

٧٦ ـ هرون بـن مسوى الاعور النحوى ٧٧ ـ هشـام الدستوائى ٧٨ ـ وهب بن منبه ٧٩ ـ يحيى بن حمزة الحضرمى .

واما الجهمية فهو :

٨٠ ـ بشر بن السرى .

واما الخوارج فهم :

٨١ ـ عكرمة مولى ابن عباس ٨٢ ـ الوليد بن كثير .

واما الواقفة فهو :

٨٣ ـ على بن هشام .

واما القعيدية فهو :

٨٤ ـ عمران بن حطان [1] .

الى غير ذلك من ذوى الأهواء والاراء الذين انساهم الدهر بعد ما وصل احمـد بن حنبل الى قمة الامامة في العقائد وذلك لاجـل صموده وثباته فى طريق عقيدته بعدم خلق القرآن او قدمه عند ما قام الخليفة العباس المأمون بردع اهل الحديث عن القول بقـدم القرآن

١ . تدريب الراوى : ج ١ ص ٣٢٨ .

فاهتم بهذا الامرسنة موته ٢١٨، وعاونه عليه علماء المعتزلة فاستتاب اهل الحديث كبارهم وصغارهم من هذه العقيدة فأجابوه طوعاً وكرهاً الا نفرات اربعة فلما اخذ المعتصم زمام الامر بيده قام بالتشديد عليهم الى ان مـات واحد منهم ورجع شخصين وثبت احمد فى عقيدتـه فأقاموا مجلساً للبحث والمناظرة فلم يقتنع فامر المعتصم بضربه بالسياط وذلك في رمضان ٢٢٠ [1] .

وقد صار ذلك سبباً لامامته لاهل الحديث خصوصا عند ما انقلب الوضع ايام المتوكل لمصالحهم فكانت السنة ما قاله احمد ، والبدعة ما هجره ونسوا او تناسوا ما عليه اسلافهم من الاراء المتضادة .

١ . سيوافيك بيان الحادثة عند عرض عقائد الاشاعرة فى الكلام النفس .

الثاني ـ رسالة تاريخية للاشاعرة ضد الحنابلة

لم يزل النزاع قائماً على قدم وساق بين الحشوية والحنابلة من أهل الحديث من جهة ، ومتكلمى الاشاعرة من جهة اخرى ـ مع ان امام الاشاعرة كان قد اعلن اقتفاء اثر امام الحنابلة ـ ونار الجدال تستعر بين الفريقين ، عبر العصور المختلفة وذلك ان الطائفة الأولى كانت متمسكة بروايات التشبيه والتجسيم ، ومثبتة لله سبحانه مالاتصح نسبته اليه، وكانت الطائفة الثانية تتبرأ من هذه الامور ولقد بلغ السيل الزبى فى عصر أبي نصر عبدالرحمن بن أبي القاسم القشيري، رئيس الأشاعرة في وقته فقام فطاهل الاشاعرة في عصره ، تعضيداً ومساندة لشيخهم برفع الشكوى الى الوزير نظام الملك مما تبثه الحنابلة من سموم التشبيه والتجسيم وتمت الرسالة بتوقيع كثير من علمائهم التى تبين جوهر العقيدة الحنبلية في ذلك العصر .

اما الوالد فهو أبوالقاسم القشيري النيشابوري فهو من أعاظم

الاشاعرة في عصره ولد عام ٣٧٦ من العرب الذين وردوا خراسان وسكنوا النواحي كان يعرف الاصول على مذهب الأشعري والفقه على مذهب الشافعي توفى عام ٤٦٥ [١] .

واما الولد فهوأبو نصرعبدالرحيم بن أبي القاسم القشيري فيعرفه ابن عساكر بانه امام الائمة وحبر الامة تخرج على امام الحرمين حتى حصل طريقته في المذهب وتوفى عديم النظير فريد الوقت سنة ٥١٤ [٢] يقول ابن عساكر :

وهذه الرسالة بخط بعض اصحاب الامام ابي نصر عبدالرحيم ابن الاستاذ القشيري فيها خطوط الائمة بتصحيح مقاله وموافقته في اعتقاده على الوجه الذي هو مذكور في هذا الكتاب فأوقفنا عليه شيخنا ابو محمد القاسم واسمعناه وامرنا بكتابته فاكتبناه على ما هو عليه واثبتناه في هذه الترجمة اللائقة به وقد رفع الامام ابو اسحاق الشيرازي وأصحابه هذا المحضر الى نظام الملك منتصرين للشيخ أبي نصر بن القشيري فعاد جواب نظام الملك الى فخرالدولة والى الامام أبي اسحاق بانكار ما وقع والتشديد على خصوم ابن القشيرى وذلك سنة ٤٦٩ واليك « المحضر » .

شكوى الاشاعرة من المتوسمين بالحنبلية

بسم الله الرحمن الرحيم يشهد من ثبت اسمه ونسبه وصح نهجه

١ . التبيين ص ٢٧٦ – ٢٧١ .
٢ . المصدر ص ٣١٠ – ٣٠٨ .

ومذهبه واختبر دينه وامانته من الائمة الفقهاء والأماثل العلماء وأهل القرآن والمعدلين الأعيان وكتبوا خطوطهم المعروفة بعباراتهم المألوفة مسارعين الى اداء الامانة وتوخوا في ذلك ما تحظره الديانة مخافة قوله تعالى : « ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » أن جماعة من الحشوية والأوباش الرعاع المتوسمين بالحنبلية اظهروا ببغداد من البدع الفظيعة والمخازى الشنيعة ما لم يتسمح به ملحد فضلا عن موحد ولا تجوز به قادح في أصل الشريعة ولا معطل ونسبوا كل من ينزه البارى تعالى وجل عن النقائص والافات وينفى عنه الحدوث والتشبيهات ويقدسه عن الحلول والزوال ويعظمه عن التغير من حال الى حال وعن حلوله في الحوادث وحدوث الحوادث فيه الى الكفر والطغيان ومنافاة أهل الحق والايمان وتناهوا في قذف الائمة الماضين وثلب أهل الحق وعصابة الدين ولعنهم في الجوامع والمشاهد والمحافل والمساجد والاسواق والطرقات والخلوة ، والجماعات .

ثم غرهم الطمع والاهمال ومدهم في طغيانهم الغى والضلال الى الطعن فيمن يعتضد به ائمة الهدى وهو للشريعة العروة الوثقى وجعلوا افعاله الدينية معاصي دنية وترقوا من ذلك الى القدح في الشافعي رحمة الله عليه واصحابه واتفق عود الشيخ الامام الأوحد أبي نصر بن الأستاذ الامام زين الاسلام أبي القاسم القشيرى رحمة الله عليه من مكة حرسها الله فدعا الناس الى التوحيد وقدس البارى عن الحوادث

والتحديد فاستجاب له أهل التحقيق من الصدور الأفاضل السادة الأماثل وتمادت الحشوية في ضلالتها والاصرار على جهالتها وأبوا الا التصريح بأن المعبود ذو قدم وأضراس ولهوات وأنامل وانه ينزل بذاته ويتردد على حمار في صورة شاب أمرد بشعر قطط وعليه تاج يلمع وفي رجليه نعلان من ذهب وحفظ ذلك عنهم وعللوه ودونوه في كتبهم والى العوام ألقوه وان هذه الأخبار لا تأويل لها وأنها تجري على ظواهرها وتعتقد كما ورد لفظها وانه تعالى يتكلم بصوت كالرعد وكصهيل الخيل وينقمون على أهل الحق لقولهم ان الله تعالى موصوف بصفات الجلال منعوت بالعلم والقدرة والسمع والبصر والحياة والارادة والكلام وهذه الصفات قديمة وأنه يتعالى عن قبول الحوادث ولايجوز تشبيه ذاته بذات المخلوقين ولا تشبيه كلامه بكلام المخلوقين .

ومن المشهور المعلوم ان الأئمة الفقهاء على اختلاف مذاهبهم في الفروع كانوا يصرحون بهذا الاعتقاد ويدرسونه ظاهراً مكشوفاً لأصحابهم ومن هاجر من البلاد اليهم ولم يتجاسر أحد على انكاره ولا تجوز متجوز بالرد عليهم دون القدح والطعن فيهم وان هذه عقيدة أصحاب الشافعي رحمة الله عليه يدينون الله تعالى بها ويلقونه باعتقادها ويبرؤن اليه من سواها من غير شك ولا انحراف عنها وما لهذه العصابة مستند ولا للحق مغيث يعتمد الا الله تعالى ورأفة المجلس السامي الأجلى العالمي العادلي القوامي النظامي الرضوي امتعه الله بحياة يأمن

خطوبها باسمة فلا يعرف قطوبها فانلم ينصرما اظهره ويشيد ما أسسه وعمره بامر جزم وعزم حتم يزجر اهل الغواية عن غيهم ويردع ذوي العنادعن بغيهم ويأمربالمبالغة في تأديبهم رجع الدين بعد تبسمه قطوباً وعاد الاسلام كما بدأ غريباً وعيونهم ممتدة الى الجواب بنيل المأمول والمراد وقلوبهم متشوقة الى النصرة والامداد فان هو لم ينعم النظر في الحـادث الذي طرقهم ويصرف معظم همه العاليـة الى الكارث الذي أزعجهم واقلقهم ويكشف عن الشريعة هذه الغمة ويحسم نزعات الشيطان بين هذه الأمة كان عن هذه الظلامة يوم القيامة مسؤلا .

اذ قد أديت اليه النصائح والامانات من أهل المعارف والديانات وبرئوا من عهدة ما سمعوه بما أدوه الى سمعه العالى وبلغوه والحجة لله تعالى متوجهة نحوه بما مكنه في شرق الأرض وغربها وبسط قدرته في عجمها وعربها وجعل اليه القبض والابرام واصطفاه مـن جميع الانام فما ترد نواهيه واوامره ولاتعصى مراسمه وزواجره والله تعالى بكرمه يوفقه ويسدده ويؤيد مقاصده ويرشده ويقف فكرته وخواطره على نصرة ملته وتقوية دينه وشريعته بمنه ورأفته وفضله ورحمته .

صورة الخطوط :

١ ـ الأمر على ما ذكر فى هذا المحضر مـن حال الشيخ الامام الاوحد ابى نصر عبدالرحيم بن عبدالكريم القشيرى اكثرالله فى ائمة الدين مثله من عقدالمجالس وذكرالله عزوجل بما يليق به من توحيده

وصفاته ونفى التشبيه عنه وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم ولم أسمع منه غير مذهب اهل الحق من اهل السنة والجماعة وبه أدين الله عزوجل واياه اعتقد وهو الذى ادركت ائمة اصحابنا عليه واهتدى به خلق كثير من المجسمة وصاروا كلهم على مذهب اهل الحق ولم يبق من المبتدعة الا نفر يسير فحملهم الحسد والغيظ على سبه وسب الشافعى وائمة اصحابه ونصار مذهبه وهذا امر لايجوز الصبر عليه ويتعين على المولى اعز الله نصره التنكيل بهذا النفر اليسير الذين تولوا كبرهذا الامر وطعنوا فى الشافعى واصحابه لان الله عزوجل أقدره وهو الذى برأ فى هذا البلد باعزاز هذا المذهب بما بنى فيه من المدرسة التى مات كل مبتدع من المجسمة والقدرية غيظاً منها وبما يرتفع فيها من الاصوات بالدعاء لايامه استجاب الله فيه صالح الادعية ومتى اهمل نصرهم لم يكن له عذرعند الله عزوجل وكتب ابراهيم بن على الفيروز آبادى :

٢ ـ الامر على ما ذكر فى هذا المحضر من حال الشيخ الامام الأوحد ابى نصرعبدالرحيم بن عبدالكريم القشيرى جمل الله الاسلام به وكثر فى ائمة الدين مثله من عقد المجالس وذكرالله عزوجل بما وصف به نفسه من التنزيه ونفى التشبيه عنه وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم ولم نسمع منه غير مذهب اهل الحق من اهل السنة والجماعة وبه ندين الله عزوجل وهو الذي كان عليه ائمة اصحابنا واهتدى به خلق كثيرمن المجسمة واليهود والنصارى فصاروا

اكثرهم على مذهب اهل الحق ولم يبق من المبتدعة الا نفر يسير فحملهم الحسد والغيظ على سبه وسب الشافعي رضى الله عنه ونصار مذهبه حتى ظهر ذلك بمدينة السلام وهذا امر لا يحل الصبر عليه ويتعين على من بيده قوام الدين والنظر فى امور المسلمين ان ينظر فى هذا ويزيل هذا المنكر فان من يقدر على ازالته ويتوقف فيه يأثم ولا نعلم اليوم من جعل الله سبحانه امر عباده اليه الا المولى اعز الله انصاره فيتعين عليه الانكار على هذه الطائفة والتنكيل بهم لان الله سبحانه اقدره على ذلك وهو المسئول عنه غداً ان توقف فيه وصار قصد المبتدعة اكثره، معاداة الفقهاء الذين هم سكان المدرسة الميمونة فانهم يموتون غيظاً منهم لما هم عليه من مذاكرة علم الشافعي واحياء مذهبه . وكتب الحسين بن محمد الطبرى :

٣ ـ الامر على ما شرح في صدر هذا المحضر وكتب عبيدالله ابن سلامة الكوفي :

٤ ـ الأمر على ما ذكر في هذا المحضر من حال الشيخ الامام الأوحد أبي نصر عبدالرحيم بن عبدالكريم القشيرى ادام الله حراسته من عقد المجالس للوعظ والتذكير في المدرسة النظامية المعمورة والرباط واطنب في توحيد الله عز وجل والثناء عليه بما يستوجبه من صفات الكمال وتنزيهه عن النقائص ونفي التشبيه عنه واستوفى في الاعتقاد ما هو معتقد أهل السنة بأوضح الحجج واقوى البراهين فوقع في النفوس كلامه ومال اليه الخلق الكثير من العامة ورجع جماعة

كثيرة عن اتقاد التجسيم والتشبيه واعترفت بانها الان بان لها الحق فحسده المبتدعة المجسمة وغيرهم فحملهم ذلك على بسط اللسان فيه غيظاً منه وسب الشافعي رحمة الله عليه وائمة اصحابه ومن ينصرهم وتظاهروا من ذلك بما لا يمكن الصبر معه ويتعين على من جعل الله اليه أمر الرعية ان يتقدم في ذلك بما يجسم مادة الفساد لان سبب ذلك فرط غيظهم من اجتماع شمل العصابة الشافعية في الاشتغال بالعلم بعمارة المدرسة الميمونة وتوفرهم على الدعاء لأيام من به عزهم ولا عذر للتفريط في ذلك وكتب محمد بن احمد الشاشي :

٥ ـ الامر على ما ذكر فيه وكتب سعدالله بن محمد الخاطب :

٦ ـ الامر على المشروح في هذا الصدر من حال الشيخ الامام الأوحد أبي نصر عبدالرحيم بن عبدالكريم القشيري أكثر الله في ائمة أهل العلم مثله من عقد المجالس ونشر العلم ووصف الله تعالى بما وصف به نفسه من توحيده وصفاته ونفي التشبيه عنه وقمع أهل البدع من المجسمة والقدرية وغيرهم ولم اسمع منه عدولا عن مذاهب أهل الحق والسنة والدين القويم والمنهج المستقيم الذي به يدان الله تعالى ويعبد ويعمل به ويعتقد فاهتدى بهديه خلق من المخالفين وصار الى قوله ومعتقده جمع كثير الا من شقى به من الحاسدين فاخلدوا الى ذمه وسبه وسب ائمة الشافعين وقدحوا في الشافعي وأصحابه وصرحوا بالطعن فيهم في الأسواق وعلى رؤوس الاشهاد وهذه غمة ورده لا يرجى لكشفها بعد الله تعالى الا المجلس السامي الأجلي

النظامي القوامي العادلي الرضوي امتع الله الدنيا والدين ببقائه وحرس على الاسلام والمسلمين ظليل ظله ونعمائه ويفعل الله ذلك بقدرته وطوله ومشيئته وكتب الحسين بن احمد البغدادي :

٧ ـ حضرت المدرسة النظامية المنصورة المعمورة ادام الله سلطان اعزازها والرباط المقدس للصوفية اجاب الله صالح ادعيتهم في المسلمين مجالس هذا الشيخ الاجل الامام ناصر الدين محيي الاسلام ابي نصر عبدالرحيم بن الاستاذ الامام زين الاسلام أبي القسم القشيري أحسن الله عن الشريعة جزاءه فلم اسمع منه قط الا ما يجب على كل مكلف علمه وتصحيح العقيدة به من علم الاصول وتنزيه الحق سبحانه وتعالى ونفي التشبيه عنه واقماع الأباطيل والأضاليل واظهار الحق والصدق حتى أسلم على يديه وببركة التوحيد والتنزيه من انواع أهل الذمة عشرات ورجع الى الحق وعلم الصدق من المبتدعة مئات وتبعه خلق غير محصور بحيث لم يستطيع أحد ممن تقدم أو علماء العصر أن يشقوا غباره في مثل ذلك فخامرهم الحسد وعداوة الجهل وحملهم على الطعن فيه عدواناً وبهتاناً ثم تمادى بهم الجهل الى اللعن الظاهر للامام الشافعي قدس الله روحه وسائر أصحابه عجماً وعرباً وقائلوا ذلك شرذمة من ناشية أغبياء المجسمة وطائفة من اراذل الحشوية استغنوا من الاسلام بالاسم ومن العلم بالرسم وتبعهم سوقة لا نسب لهم ولا حسب وتظاهرت هذه اللعنة منهم في الاسواق ولم يستحسن أحد من أصحابه كثرهم الله دفع السفاهة بالسفاهة والسيئة

بالسيئة ويجب على الناظر في أمور المسلمين من الذي قد انتشر في المشارق والمغارب علمه وعدله وأمره ونهيه الذي لطاعته نبات صدور الاولياء والأعداء رغبة ورهبة نصرته ومدصبيعه والشد على يديه وتقديم كلمته العليا وتدحيض كلمة اعدائه السفلى فالصبر في الصدمة الاولى وهذه الصدمة التي كانت قلوب أصحاب الشافعي كثرهم الله وغرة وغلة شغله بها منذ سنين فانقشع ذلك وانكشف في هذه الايام المؤيدة المنصورة المؤبدة النظامية القوامية العالمية العادلية نصرها الله وأعلاها وقد وقف تمامه على الامر الماضي المنصور منه فان في شعبة من شعب عنايته ونصرته وكلمته للدين الذي مد أطراره كفاية وبلاغا وعلى الغارس تعهد غراسه فضلا وتعصباً في كل وقت وكتب عزيزي بن عبدالملك في التاريخ حامداً لله ومصلياً على محمد النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وشرف وكرم [1] .

واما اصحاب الخطوط فى هذا المحضر فهم كبار ائمة المذهب الشافعى ببغداد فى ذلك العهد فقد ترجمهم محقق كتاب «تبيين كذب المفترى» فى تعليقته على الكتاب ثم اضاف: «ولما طفح كيل فتن الحشوية الذين لايكادون يفقهون حديثاً اضطر أكابر العلماء المعروفون بكمال الهدوء والتؤده والاناة الى قمع فتنتهم بالسعى لدى ولى الامر سعياً حثيثاً ورفع الامام ابواسحاق الشيرازى واصحابه هذا المحضر الى نظام الملك منتصرين للشيخ ابى نصر بن القشيرى فعاد جواب نظام

١ . تبيين كذب المفترى لابن عساكر : ص ٣١٧ ـ ٣٨٠ .

الملك الى فخر الدولة والى الامام ابى اسحاق بانكارما وقع والتشديد على خصوم ابن القشيرى وذلك سنة تسع وستين واربعمائة ، فسكن الحال ثم اخذ الشريف ابوجعفر بن ابى موسى ـ وهوشيخ الحنابلة اذ ذاك ـ وجماعته يتكلمون فى الشيخ أبى اسحاق ويبلغونه الاذى بالسنتهم فامر الخليفة بجمعهم والصلح بينهم بعدما ثارت بينهم فتنة عائلة قتل فيها نحومن عشرين قتيلا فلما وقع الصلح وسكن الامراخذ الحنابلة يشيعون ان الشيخ ابا اسحاق تبرأ من مذهب الاشعرى فغضب الشيخ لذلك غضبا لم يصل احد الى تسكينه حتى كتب الى نظام الملك يشكو اهل الفتن ، فعاد الجواب فى سنة سبعين واربعمائة الى الشيخ باستجلاب خاطره وتعظيمه والامر بتأديب الذين أثاروا الفتنة وبأن يسجن الشريف ابو جعفر فهدأ الحال وسكن جأش الشيخ وانقمعت الحشوية وتنفس أهل السنة الصعداء والى الله عاقبة الامور» .

الثالث ـ تطور الدعوة السلفية ومراحلها

قد تعرفت في البحوث السابقة على أنه كان لمنع تدوين الحديث في العصور الاولى الاسلامية تأثير خاص في تسرب عقائد اليهود والنصارى الى أوساط المسلمين ولا سيما أهل الحديث منهم . ففي ظل ذلك المنع ، ظهرت الفرق الباطلة من المجسمة والمشبهة ودعاة القول بالجهة لله سبحانه وجلوسه على العرش ناظراً الى ما دونه مما يتحاشى عنه أهل التنزيه .

ولم يكن ظهور تلك العقائد أمراً غير مترقب ، بل كان نتيجة حتمية للعوامل السائدة على تلك البيئة ، اذ في الظروف التي يصلب فيها العقل ويعدم ، ويعاب فيها التفكير في العقائد والمعارف، ويكتفى عن التدبر في الذكر الحكيم ، بالبحث عن القراءات السبع أو العشر ويعرف الاستدلال والامعان في الكتاب العزيز بأنه تأويل باطل، بل كفر وزندقة ، ويفسح المجال للمتظاهرين بالاسلام من الاحبار والرهبان

ليقوموا بنشر قصص الأولين وأساطير الاخرين ـ ففي تلك الظروف ـ لا تظهر على مسرح العقائد الا عقائد الطوائف المنحرفة ، ولا غرو حينئذ في أن يصور اله العالم بصورة موجود مادي ذي جهات وأبعاض وأيدي وأرجل ، له تكلم وضحك ، وما يضاهي هذه النظريات .

وقد جاء بعض الخلف محاولا تصحيح هذه المأثورات، باضافة « بلا كيف » عقيب هذه الصفات ، ولكن المحاولة فاشلة جداً ، فان مرجعها الى أنه سبحانه جسم بلا كيف ، ولا يختلف التعبيران الا في الصراحة والكناية .

ومن العقائد الغريبة التي ظهرت في أواخر القرن الثاني ، كون كلامه سبحانه قديماً غير مخلوق ، وقد تلقاه أهل الحديث أمراً مسلماً ، وكان اللائق بمنهجهم هو السكوت ، لاعترافهم بعدم ورود نص من رسول الله فيها، ولكنهم اعتنقوا هذه العقيدة اعتناقا وثيقاً لم ير مثله في سائر المسائل، حتى استعدوا في طريقه لتقديم التضحيات الثمينة ، من شتى أنواع الضرب والحبس والتقييد ، وذلك عند ما عزم المأمون على ردعهم عن القول بقدم القرآن ، فاستتاب أهل الحديث منه ، فاستجاب بعضهم دون بعض وممن أظهر الصمود والثبات على تلك العقيدة امام الحنابلة أحمد ابن حنبل . وقد ضرب في عصر الخليفة المعتصم فلم يرتدع ، فصار ذلك سبباً لاشتهار الرجل بينهم وبلوغه قمة الامامة في العقائد والسنة واكتسابه مكانة مرموقة بين الناس . فصارت السنة ما أمضاه الامام ، والبدعة

ما هجره ، فراجت رسائله وكتبه التي ألفت باسم عقيدة أهل السنة وكانت الرئاسة في باب العقائد منحصرة به الى أن ظهر الامام الأشعري تائباً عن الاعتزال ، معلناً التحاقه في العقائد بالامام أحمد ، وعد نفسه مدافعاً عن عقائد أهل السنة تارة بالنصوص والأحاديث ، واخرى بالاستدلال والبرهنة ، فألف في بداية الالتحاق كتاب « الابانة » وهو تصوير خاص لرسائل امام مذهبه ، كما ألف في الفترة الاخرى كتاب « اللمع » وهو تصوير لما يملكه من الفكر الذي ورثه عن المعتزلة حينما كان منتهجاً مناهجهم .

وبما أن الامام الأشعري قد قضى شطراً كبيراً من عمره بين أهل الفكر والتعقل ، فلذا أخذ بالتعديل والتهذيب في عقائد الأم ـ أهل الحديث ـ وما قام به من العملية العقلية وان أغضبت ثلة من الحنابلة وأهل الحديث ، حتى ان كبير الحنابلة في ذلك الوقت لم يقبل دفاع الشيخ الأشعري عن عقائد أهل السنة بالبرهنة والاستدلال ، ولكن النفوس المستعدة المتنورة تأثرت بمنهج الامام الأشعري ، وزاد الاقبال عليه ، وتوفر الثناء على فكرته .

وعلى ضوء منهجه ألف الامام البيهقي [1] صاحب السنن الكبرى كتاب « الاسماء والصفات » وعالج فيه كثيراً من روايات التشبيه

١ . هو الامام الحافظ أبو بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي (المتوفى عام ٤٥٨ هـ) وطبع كتاب « الاسماء والصفات » في مصر بتصحيح الشيخ محمد زاهد الكوثري . ومن المأسوف عليه أن يد الخيانة على الطبع أسقطت

والتجسيم ، كما قام ابـن فورك [١] بتأليف كتاب « مشكل الحديث وبيانه » ، كـل ذلك على الخط الذي رسمـه الأشعري في تنزيهه سبحانه .

ابعاد أحمد بن حنبل عن ساحة الامامة فى العقائد

قد كان لانتشار مذهب الأشعري تأثير خاص في ابعاد الامام أحمد عن ساحة العقائد ، وافول امامته في الاصول ، وانزوائه في كثير من البلدان واقامة الأشعري مقامه . فصار الفرع الذي اشتق مـن الأصل المذهب الرسمي لأهل السنة . وبلغت امامة الفرع الى الحد الذي كلما اطلق مذهب أهـل السنة لا يتبادر منه الا ذلك المذهب أو مـا يشابهه كالماتريدية .

يقول المقريزي بعد الاشارة الى اصول عقيدة الامام الأشعري : « هذه جملة من اصول عقيدته التي عليها الان جماهير أهـل الأمصار

مقدمة الاستاذ الشيخ سلامة العزامى القواعى الشافعى عنـد اعادة الطبع بالافست وما هذا الا لان المقدمة كانت على ضد السلفية والوهابية .

١ . هو أبوبكرمحمد بن حسن بن فورك (المتوفى عام ٤٠٦) له ترجمة فى تبيين ابن عساكر : ص ٢٣٣ – ٢٣٢ .

يقول المقريزى فى خططه (ص ٣٥٨) فى بيان حقيقة المذهب الاشعرى أنه سلك طريقاً بين النفى الذى هومذهب الاعتزال (نفى الصفات الخبرية كاليد والوجه) ، وبين الاثبات الذى هومذهب أهل التجسيم وناظر على

الاسلامية ، والتي من جهر بخلافها اريق دمه »[١] .

نعم ، بلغ الامام الأشعري قمة الامامة في العقائد من دون أن يمس امامة أحمد في الفروع ومرجعيته في الفتيا ، كيف وهو أحد المذاهب الأربعة الرسمية بين أهل السنة الى الان في العواصم الاسلامية ، لكن لا في نطاق واسع بل في درجة محدودة تتلو امامة أبي حنيفة والشافعي ومالك .

تجديد الدعوة السلفية فى القرن الثامن

لقد اهتم بعض الحنابلة ـ أعني أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي (المتوفى عام ٧٢٨ هـ) باحياء مذهب السلفية على المفهوم الذي كان رائجاً في عصر الامام أحمد وقبله وبعده الى ظهور الامام الأشعري

قوله هذا واحتج لمذهبه، فمال اليه جماعة وعولوا على رأيه، منهم القاضى ابوبكر محمد بن الطيب البلاقلانى المالكى ، وأبوبكر محمد بن الحسن ابن فورك والشيخ أبواسحاق ابراهيم بن محمد بن مهران الاسفرائينى والشيخ أبواسحاق ابراهيم بن على بن يوسف الشبرازى، والشيخ ابوحامد محمد بن احمد الغزالى ، وابوالفتح محمد بن عبدالكريم بن احمد الشهرستانى ، والامام فخرالدين محمد بن عمر بن حسين الرازى وغيرهم ممن يطول ذكره ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلوا له فى مصنفات لاتكاد تحصر فانتشر مذهب أبى الحسن الاشعرى فى العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة وانتقل منه الى الشام الخ ما ذكره.

١ . الخطط المقريزية : ج ٢ ص ٣٩٠ .

فأصر على ابقاء أحاديث التشبيه والجهة بحالها من دون توجيه وتصرف وهاجم التأويلات التي ذكرها بعض الأشاعرة في كتبهم حول تلك الأحاديث . ولكنه لم يكتف بمجرد الاحياء ، بل أدخل في عقائد السلف اموراً لا ترى منها أثراً في كتبهم ، فعد السفر لزيارة الرسول الاعظم بدعة وشركاً كما عد التبرك بآثارهم والتوسل بهم شيئاً يضاد التوحيد في العبادة . وقد ضم الى ذينك الأمرين شيئاً ثالثاً وهو انكار كثير من الفضائل الواردة في آل البيت ، المروية في الصحاح والمسانيد حتى في مسند امامة أحمد . وبذلك جدد الفكرة السلفية الخاصة المتبلورة في الفكرة العثمانية التي تعتمد على التنقيص من شأن علي ، واشاعة بغضه وعناده .

وبذلك نقض قواعد ما أرساه امامه أحمد من مسألة التربيع وجعل علي عليه السلام رابع الخلفاء الراشدين ، وأن علياً كان أولى وأحق من خصومه .

ومن حسن الحظ أنه لم يتأثر بدعوته الا القليل من تلامذته كابن القيم (المتوفى عام ٧٥١) كيف وقد عصفت الرياح المدمرة على هذه البراعم التي أظهرها ، حيث قابل منهجه المحققون بالطعن والرد الشديدين ، فأفرد بعضهم في الوقيعة به تآليف حافلة ، وجاء البعض الاخر يزيف آراءه ومعتقداته في طي كتبه ، وقام ثالث يترجمه ويعرفه للملأ ببدعه وضلالاته .

وكفى في ذلك ما كتبه بعض معاصريه كالذهبي ، فانه كتب

رسالة مبسوطة اليه ينصحه ويعرفه بأنه ممن يرى القذاة في عين أخيه وينسى الجذع في عينيه ، وأنه لم تسلم أحاديث الصحيحين من جانبه ثم خاطبه بقوله : « أما آن لك أن ترعوي ، أما حان لك أن تتوب وتنيب ، وأنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل »[1] .

وهنـاك كلام للمقريزي يقول بعد الاشارة الى اشتهـار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الاسلام : « انه نسي غيره من المذاهب وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه، الاأن يكون مذهب الحنابلة أتباع الامام أبي عبدالله أحمد بن محمد بـن حنبـل ـ رضي الله عنه ـ فانهم كانوا على ما كان عليه السلف لايرون تأويل ما ورد من الصفات الى أن كان بعد السبعمائة من سني الهجرة اشتهر بدمشق وأعمالها تقي الدين أبو العباس احمد بن تيمية الحراني، وتصدى للانتصار لمذهب السلف وبالغ في الرد على مذهب الأشاعرة وصدع بالنكيرة عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية، فافترق الناس فيه فريقان فريق يقتدى به ويعول على أقواله ويعمل برأيه ويرى أنه شيخ الاسلام وأجل حفاظ أهل الملة الاسلامية ، وفريق يبدعه ويضلله ويزرى عليـه باثباته الصفات وينتقد عليه مسائل منها ماله فيه سلف ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الاجماع ولم يكن له فيه سلف وكانت له ولهم خطوب كثيرة وحسابه وحسابهم على

١ . تكملة السيف الصقيل : ص ١٩٠، ونقل قسماً من هذه الرسالة العزامى فى الفرقان الذى طبـع فى مقدمة الاسمـاء والصفات للبيهقى ونقله العلامة الامينى فى غديره : ج ٥ ص ٨٩ ـ ٨٧ .

الله الذي لايخفى عليه شيء في الأرض ولافي السماء وله الى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر »[١] .

الدعوة السلفية فى القرن الثانى عشر

نعم ، لم يتعظ الرجل من قول ناصحه المشفق حتى أدركته المنية في سجن دمشق، ولكن كانت بذرة الضلال مدفونة في الكتب وزوايا المكتبات الى أن ألقى الشر بجرانه ، وجاء الدهر بمحمد بن عبد الوهاب النجدي في القرن الثاني عشر (ت ١١١٥ - م ١٢٠٦) فحذا حذو ابن تيمية ، وأخذ وتيرته واتبع طريقته ، فأحيا ما دثره الدهر ودعا الى السلفية من جديد ، غير أنه اتخذ ما أضافه ابن تيمية الى عقائد السلف مما يرتبط بمسألة التوحيد والشرك ، كالسفر الى زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتبرك بآثاره ، والتوسل به ، وبناء القبة على قبره ، قاعدة اساسية لدعوته ، ولم يهتم في تآليفه بمسألة التشبيه واثبات الجهة والفوق .

نعم ، لما استفحلت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد وقام أمراء المنطقة (آل سعود) بترويج منهجه واستغلوه للسيطرة على الجزيرة العربية ، اهتمت الوهابية بنشر ما ألفه السلف حول البدع السابقة الموروثة من اليهود والنصارى، فصار اثبات الصفات الخبرية كاليد والوجه والاستواء بمفهومها اللغوي مذهباً رسمياً لدعاة الوهابية

١ . الخطط المقريزية : ج ٢ ص ٣٥٩ - ٣٥٨ .

لا يجترء عالم على مخالفته في أوساطهم [١] .

وبذلك وردت الدعـوة السلفية في مراحلها التاريخية المرحلة الثالثة بعد الاندراس، ولما تمت معاملة الدول الكبرى على الخلافة العثمانية المسيطرة على أكثر ربوع الاسلام ـ يومذاك ـ واقصيت من ساحة البلاد العربية، حلت سيطرة آل سعود المتبنين للعقيدة الوهابية من لدن ميلادها، محلها في أرض الحجاز عموماً، والحرمين الشريفين خصوصاً. ومن جراء ذلك أخذت الدعوة الوهابية تنتشر في الاراضي المقدسة بالطابع السلفي ، فصارت السلفية والوهابيـة وجهين لعملة واحدة ، وقد استعانت السلطة السعودية بكل ما تملك من قوة وقدرة ارهابية ودراهـم ودنانير ترغيبية لنشر المنهج الوهابي ، ولكل مـن ذينك الامرين أهله ومحله . فاستعملت الاول في الاميين والرعاع من الناس، واشترت بالثاني أصحاب القلم وأرباب الجرائد والمجلات وسائر وسائل الاعلام . فصارت السلفية في هذه الاماكن رمز الاسلام

١ . وقد الف رضا بن نعسان معطى فى مكـة المكرمة كتاباً حول الصفات الخبرية أسماه « علاقة الاثبات والتفويض بصفات رب العالمين » وقـدم عليه عبدالعزيز بـن باز رئيس ادارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد وأصرفيه على أن عقيـدة السلف فى هـذه الصفات ابقاؤها على مفاهيمها اللغوية بلا تغيير وتصرف ، وغير خفى على النبيه أنـه لاينتج الا التجسيم وان كان الكاتب والمقرظ لا يعترفان به ، ولكنه لاينفك عـن تلك النتيجة .

الأصيل ، وآية الدين الصحيح ، المجرد عن البدع اللصيقة بـه بعد لحوق النبي صلى الله عليه وآله بالرفيق الاعلى .

وقد استعانت هذه السلطة في تسريع الحركة الوهابية في هذا الزمان بما ظهر في المناطق الشرقية من الجزيرة من الذهب الاسود فاستولت على زبرج الدنيا وزينتها وتمادت في غيها حتى ساقت كثيراً من الناس الى معاسيف السبل ومعاميها ، حتى تأثـر بتلك الحركة بعض الشبان وغيرهم خارج الجزيرة العربية .

ان الدعايات الخادعة ، اثرت في تفكر كثير من الناس الى حد تخيل لهم أن تجديد مجد الاسلام وبلوغ المسلمين الى ذروة السنام لا يتم الا باحياء ما كان عليه السلف في الاصول والفروع ، ويريدون منه عهود الخلافة الراشدة والامويين والعباسيين ، فكأن حياتهـم في تلك العصور كانت باقات زهور تفتحت في تلك القرون ، فعم ريحها وريحانها أجواء الاقطـار الاسلامية ، فلأجل ذلك يتطلعون الى تلك العهود تطلع الصائم الى الهلال ، والظامىء الى الماء .

لكن الدعايات الخاطئة عاقتهم عـن التعرف على مـا في تلك العصور من النقاش والخلاف بين المسلمين وسفك الدماء وقتل الاولياء وحكومة الارهاب والارعاب ، الى غيرذلك من المصائب والطامات الكبرى .

ولو درسوا تاريخ السلف ـ مذ فارق النبي الاعظم المسلمين

وتسنم الامويون منصة الخلافة الى أن انتكس قتلهم ، وأجهز عليهم عملهم ، وورثهم العباسيون ولـم يكونوا في العمل والسيرة بأحسن حال منهم ـ لوقفوا على أن حياة السلف لم تكن حيـاة مثالية راقية بل كانت تسودهم المجازر الطاحنة الدامية، والجنايات الفظيعة التي ارتكبها الطغمة الاموية والعباسية في حق الأبرياء والاولياء والعلويين من العترة الطاهرة . فلوصح ما في التواريخ المتواترة ، لدل قبل كل شيء على أن السلف لم يكن بأفضل من الخلف ، وأن الخلف لم يكن بأسوء من السلف . ففي كلتا الفئتين رجال صالحون مثاليون كما فيهما رجال دجالون واناس طالحون .

هذه قصة أهل الحديث والدعوة السلفية بأدوارها المختلفة .

بلـغ الكلام الى هنا في اليوم
الثالث مـن شعبان المعظم
ميلاد الامام الطاهر سيد
الشهداء عليه السلام من
شهور عام ١٤٠٨ هـ ق
قـم المشرفـة

فهرست امهات المطالب

العنوان	الصفحة
تقديم	٥
تصدير	
الملل والنحل فى المؤلفات الاسلامية	٩
الملة والنحلة في اللغة	١٠
الصلة بين علم العقائد وعلم الملل والنحل	١١
قيمة الكتب المؤلفة في هذا المضمار	١٢
الفصل الاول	
افتراق الامة الى ثلاث وسبعين فرقة	١٦

العنوان	الصفحة
الفصل الثانى	
جذور الاختلاف فى حياة النبى صلى الله عليه وآله	٢٩
الفصل الثالث	
علل تكون الفرق الاسلامية	٣٦
العامل الأول : الا تجاهات الحزبية	٤١
العامل الثاني : سوء الفهم واللجاج فى تحديد الحقائق	٤٦
الخوارج والمرجئة	٤٦
ظهور المرجئة	٤٩
العامل الثالث : المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل التحدث عنه	٥١
أمر الرسول بكتابة حديثه	٥٢
اسطورة المنع عن كتابة الحديث	٥٥
العقل والمنطق ، والمنع عن كتابة الحديث	٥٨
الغايات السياسية والاهداف الدينية	٦٠
اعذار مفتعلة	٦٢
الاثار السلبية للمنع وظهور الدساسين	٦٥
١ ـ كعب الأحبار ومختلقاته	٧١

العنوان	الصفحة
٢ ـ وهب بن منبه اليمانى ونفى المشيئة للانسان	٨٠
٣ ـ تميم بن اوس الدارى من رواة الاساطير	٨٣
٤ ـ ابن جريح الرومى ورواية الموضوعات	٩٠
حصيلة البحث	٩٠
خاتمة المطاف	٩٢
العامل الرابع : الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضارى	٩٦
دور أهل البيت في عصر الترجمة	٩٨
الفصل الرابع	
معنى القدرية والمعتزلة والرافضة	
١ ـ القدرية	١٠٣
٢ ـ الاعتزال والمعتزلة	١٠٩
٣ ـ الرفض والرافضة ووجه التسمية	١١٤
نظرنا في الموضوع	١١٦
الفصل الخامس	
أهل الحديث والحنابلة	
١ ـ نظرة الى كتابين لأهل الحديث	

العنوان	الصفحة
« التوحيد » و « السنة »	١٢٥
التجسيم أو التشبيه	
ان الله يضحك	١٣٢
ان لله يداً	١٣٥
ان لله عينين	١٣٦
ان لله اصبعاً	١٣٧
ان لله كلاماً وصوتاً	١٣٩
ان لله ذراعين وصدراً	١٣٩
ان لله نفساً	١٤٠
ان لله رجلا	١٤١
ان لله وجهاً	١٤٤
ان الله يرى	١٤٥
فى الجبر والقدر	١٤٦
التدرع باللاكيفية	١٥١
٢ ـ اصول عقائد أهل الحديث	١٥٥

العنوان	الصفحة
تصدير فى تحليل عقائد أهل الحديث	١٥٧
(١)	
اطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة	١٧٠
اطاعة السلطان الجائر	١٧٢
صراع بين العقيدة والوجدان	١٨٧
(٢)	
عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان	١٩١
من هو الصحابي	١٩٢
عدالة الصحابة جميعهم	١٩٤
تقييم نظرية عدالة الصحابة كلهم	١٩٥
الصحابة في الذكر الحكيم	٢٠٠
الصحابة في السنة النبوية	٢١٠
الصحابة والتاريخ المتواتر	٢١٢
آراء الصحابة بعضهم حول البعض	٢١٤
التعذير التافه أو اسطورة الاجتهاد	٢١٧
خاتمة المطاف	٢٢٠
قتل الخليفة المفترض الطاعة	٢٢٤
كلمة قيمة للامام أمير المؤمنين عليه السلام	٢٢٦

العنوان	الصفحة
(٣)	
الايمان بالقدر خيره وشره	٢٢٩
استغلال الامويين للقدر	٢٣٣
تكوين القدرية كرد فعل	٢٤٠
الاحتجاج بالقدر	٢٤٢
محاولة للجمع بين القدر وصحة التكليف	٢٤٥
صراع بين الوجدان وظواهر الأحاديث	٢٤٧
القول بالقدر لا يلازم الجبر	٢٤٩
(٤)	
هل الايمان بخلافة الخلفاء من صميم الدين ؟	٢٥٤
الف : هل الامامة من الاصول أو من الفروع ؟	٢٥٧
ب : هل هناك نص على الامامة ام لا ؟	٢٥٩
ج : مبدء ظهور هذه العقيدة	٢٦٥
خاتمة المطاف	
الاول ـ فى بيان أهل الحديث قبل امامة الامام أحمد	٢٧٣
الثانى ـ رسالة تاريخية للأشاعرة ضد الحنابلة	٢٧٨
شكوى الاشاعرة من المتوسمين بالحنبلية	٢٧٩
صورة الخطوط	٢٨٢

العنوان	الصفحة
الثالث ـ تطور الدعوة السلفية ومراحلها	٢٨٩
ابعاد احمد بن حنبل عن ساحة الامامة فى العقائد	٢٩٢
تجديد الدعوة السلفية فى القرن الثامن	٢٩٣
الدعوة السلفية فى القرن الثانى عشر	٢٩٦

الصفحة	السطر	الغلط	الصحيح
٥	٩	السباقون	السباقين
١١	١٢	« من »	زائد
١٦	١٤	الرواة	الروايات
٢١	٢	يتحدث	يتحدث
٢١	١٨	عبدالرحان	عبدالرحمان
٣١	٧	يا ابابكر	فقال : يا ابابكر
٣١	٩	الدية	الدنية
٣١	١٧	المتحللة	المتخللة
٣١	١٨	أنتطلق	أننطلق
٣٢	١	لم	لن
٣٢	٦	ابن عبيدالله	عبيدالله
٣٣	٣	أعظم	وأعظم
٣٣	١٢	عائق	عاتق
٣٦	٤	النفطة	النقطة
٣٦	١١	لهداة	لهداه
٣٧	١٢	ملؤهم	ماؤهم
٤٣	١٥	المرشحية	المرشحين
٤٤	٩	وأهله	وأهله بصلة
٤٩	١٥	آل	ان
٥٤	١٨	ج ٣	ج ٢
٥٥	٥	كتابه	كتابة
٥٦	١	يكتب	نكتب
٥٦	١١		« كتاب الله » زايد

الصفحة	السطر	الغلط	الصحيح
٥٦	١٧	٠١	٠٢
٥٦	١٨	٠٢	٠١
٥٧	٥	حراة	صرار
٥٧	١٢	وأعدلها	أعدلها
٥٩	١٧	كتاباً	كاتباً
٥٩	١٩	مكاتب	مكاتيب
٦١	١٦	نظنه	أظنه
٦٢	٨	الافبح	الاقبح
٦٢	١٣	نسب	كمانسب
٦٣	٨	حائلا	حائلة
٦٣	١٥	جريح	جريج
٦٧	٨	: لئن	قال : لئن
٧٠	١٤	مجاهد	مجاهد مخالف ؟
٧١	٤	جرح	حرج
٧٢	١٠	الفرق	الفرض
٨٢	١٢	كل مه	كلامه
٨٣	١١	هذا و	هذا ما
٨٤	١٣	كتابهم	كتابكم
٨٧	١٢	لحم	لخم
٨٩	١٨	الرجال	الدجال ، ج ٨
١٠٤	١٢	يتسنن	يتسنى
١٠٩	٨	مزالى	مزال
١١٤	٣	رفضتنى	رفضنى

الصفحة	السطر	الغلط	الصحيح
١١٤	٤	المفترض	المتفرق
١١٤	١٦	اللفظ	للفظ
١٢٥	١١	يكول	يكون
١٣١	٢	فحص	غير فحص
١٥٧	٤	أن قد	الى حد
١٦٨	١٣	مختلفة	مختلقة
١٦٩	٢	مختلفة	مختلقة
١٧٣	٩	للاوثار	للاثار
١٧٦	٩	اختفى	اقتفى
١٨٠	٧	لم أتيتك	لم آتك
١٨٨	٣	المتزين بلباسه	المتزيين بلباسهم
١٩٠	١	أصهروا	أصحروا
١٩٠	٤	يرعوا	يرعو
١٩٣	١	حديثاً	الاحديثاً
١٩٣	٧	هواذن	هوازن
١٩٣	١٠	مع	معه
٢٠٤	آخر	العبث	العيث
٢١١	٥	أفرطكم	فرطكم
٢١٢	٢	بيني	رجل بيني
٢١٣	١٨	ج ٢	ج ٤
٢١٤	٣	يعدهم	يعد
٢١٦	٢	بيعة	يبيعة

الصفحة	السطر	الغلط	الصحيح
٢١٦	١٧	حال	خال
٢١٧	٩	« كانوا »	زائد
٢١٧	١٨	اهديتم	اهتديتم
٢١٨	٣	يهتدون	هم يهتدون
٢١٨	١٢	طلحة	طليحة
٢١٨	١٣	ابن العنسى . . . والاسود العنسى الكذابان وامرهم ...	
٢١٨	١٥	امه	انه
١١٨	١٦	العبث	العيث
٢٢٣	٨	مكلقاً	مكلفاً
٢٢٦	٧	مساق	فساق
٢٣٢	١٦	بغيت	بقيت
٢٩٠	١١	يمنهجم	بمنهجهم
٢٩٣	١٩	الخ	الى آخر
٢٩٤	٨	امامة	امامه
٢٩٥	١٤	يبدعه	يبدعه
٢٩٩	١	قتلهم	فتلهم

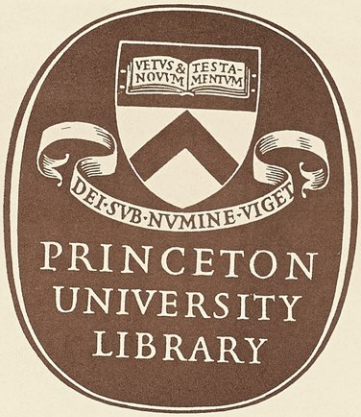
VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 060161096